اندريه سيجفريد

سيكولوجية بعض الشعوب

ترجمة

غنيم عبدون

مراجعة

مصطفى كامل فوده

الكتاب: سيكولوجية بعض الشعوب

الكاتب: اندريه سيجفريد

ترجمة: غنيم عبدون

مراجعة: مصطفى كامل فوده

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

سيجفريد، اندريه

سيكولوجية بعض الشعوب / اندريه سيجفريد ، ترجمة: غنيم عبدون، مراجعة: مصطفى كامل فوده – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٣٥ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٥٣٧ / ٢٠٢٠

سيكولوجية بعض الشعوب



نبذة عن المؤلف

ولد أندريه سيجفريد في أبريل من عام ١٨٧٥ بمدينة الهافر، وهي من أعظم مدن فرنسا، ومن أكبر الموانى الفرنسية حيث تعتبر سوقا رائعة للتجارة بين فرنسا وأمريكا الشمالية، ومن أهم المواد التي تتعامل بها مع أمريكا هي : القطن والبن والسكر. وبخلاف هذا ترتكز شهرة هذه المدينة على المكانة التي أحرزتها في الحرب العالمية الثانية ؛ فقد أسهمت بنصيب وافر في إنزال جيوش الخلفاء إلى البر الفرنسي.

نشأ أندريه سيجفريد في تلك البيئة، فطبعت نفسه بطابع الميل إلى دراسة الاقتصاد والاجتماع، ثم الولع بمعرفة مختلف الأجناس؛ لأن الموانى كثيرا ما تستقبل أجناس متباينة من جميع الشعوب مما يدفع بأبنائها إلى الوقوف على معرفة حقيقة مختلف تلك الأجناس.

وقد فاز سيجفريد برسالة للدكتوراه عن الديمقراطية في نيوزيلنده، وعين مدرسة بمدرسة العلوم السياسية باريس عام ١٩١١، ثم انتقل إلى معهد "كوليج دى فرانس".

ولسيجفريد مؤلفات عديدة، نذكر منها : انجلترا اليوم (١٩٠٩) الولايات المتحدة (١٩٢٧) صورة عن الأحزاب بفرنسا (١٩٣٠) الأزمة البريطانية فيا بين عامي (١٩٣٧ و ١٩٤٧)، جنوب إفريقيا (١٩٤٩)، رحلة إلى الهند (١٩٥١).

وقد نحا سيجفريد في كتاباته منحى "أكاديميا"، وكان صاحب أسلوب متين يفيض عذوبة. كما كان صاحب مدرسة في الدراسات الأكاديمية التي تربط بين العوامل المؤثرة جغرافيا واقتصاديا واجتماعية، ومدى تأثير كل منها في الأخرى.

والكتاب الذي نترجمة إلى العربية يعد من أشهر الكتب التي ألفها سيجفريد. وقد حاول المؤلف فيه أن يكشف عن نفسية بعض الشعوب، وقد انفرد بدراسة ستة شعوب، ووجد أن هناك مجموعة من الخصائص والعادات والتقاليد تقوم بمثابة فوارق بين تلك الشعوب ومن ثم تشكل سيكولوجية الشعب وتميزه عن الشعب الآخر.

تعريف بالكتاب

هذا الكتاب عبارة عن محاضرات ألقيت في عدة مناسبات. وقد آثر الكاتب – استكمالا للفائدة – جمعها في كتاب تحت عنوان « سيكولوجية بعض الشعوب ». وقدم لها بفصل تحدث فيه عما كانت علية حال الشعوب في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية قبل الحربين العالميتين.

ويسلط الكاتب الأضواء على سيكولوجية هذه الشعوب متسائلا : هل تغيرت هذه الشعوب إثر الحربين العالميتين ؟ ولا يدع القارئ في حيرة، فيقرر أن سيكولوجيتها لم تتغير، وأنها باقية على العهد بها لا تهز أعماقها الكوارث ولا تغير من معدها النائبات.

وقد هدف المؤلف من كتابه هذا إلى إعلاء شأن الشعوب الغربية، وسمو منزلها، وإبراز ما أسهمت به في تقدم الحضارة البشرية، كل على حسب طاقته. على أنه من الإنصاف أن نشير إلى أنه نوه بالحضارة العربية، وآثارها الخالدات، وأثر العرب في هذا الميدان الحضاري الذي عرفته لهم الإنسانية قديما وحديثا وانبثاق فجر الحضارة العربية وإشعاعها على الحضارة الغربية.

والكتاب في جملته رغم تعصب المؤلف لفر نسيته بوجه خاص ولغر بيته بوجه عام – يعد من المراجع الهامة للدارسين والمثقفين ورواد

المعرفة عن سيكولوجية الشعوب في ظل العوامل الجغرافية التي يخضعون لها، وفي إطار العوامل التاريخية التي مرت بهم، والأصول العنصرية التي نشأوا منها.

المترجم

الفصل الأول

الوجه الجديد للعالم

في سيكولوجية بعض الشعوب، أصول للدوام والبقاء لا يعتريها الفناء أبدا ولا يحكم عليها بالزوال قطعة.. فنحن الفرنسيين مثلا نرجع في كثير من أصوليتنا وخصالنا، إلى أجدادنا الفال، على أن الحضارة المميزة لشعوب البربر واليهود، وهي التي تحدث عنها المؤرخ اللاتيني تاسيت Tacite في كثير من مؤلفاته، هي بلا ريب توجد لدى الأمان والإسرائيليين اليوم : ومع ذلك، فإن هناك نوعا من التكيف والمواءمة بين شعب وآخر.

ولسوف نسائل أنفسنا في الصفحات التالية لهذا الكتاب عن حقيقة ما يشكل سيكولوجية هذه الشعوب الغربية، وإلى أي حد هم الآن مهيئون التقبل أية ثورة عرضية تفرضها عليهم ظروف معيشتهم ؟

وقد مرت هذه الشعوب بحر بين عالميتين، غيرت من وجه العالم، وأخلتا بتوازنه، ونحن ندرك جيدا أننا لا نقصد بذلك، أن هذه الشعوب قد مرت مجرد تطور عادي لا أكثر ولا أقل، بل إن ما وقع كان في الأحرى « ثورة » بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى وذلك بعد الحربين العالميتين؛ ونستطيع أن نقول: إن كل شيء قد اعتراه التغير، فقيه الأشياء لم تعد كما كانت عليه قبل هاتين الحربين، والعلاقات

الإنسانية بين الناس بعضهم البعض قد تغيرت بشكل جذري وقلبت رأسا على عقب.

في وسعنا على هذا أن نقول : إن الفكرة التي كونها الناس لأنفسهم عن العالم ووقوانينه، قد هبت عليها « رياح التغير » فجأة، بيد أنها لم تمس بصورة قاطعة أسس الأخلاق ولا طرائق التفكير.

وهذه الأزمة، أزمة « التغير العام » في كل شيء، قد هيأت نفسها الظهور مدة طويلة ؛ وقد شعر كل إنسان في نهاية القرن الماضي بالنتائج العميقة الجذور للثورة الصناعية ؛ فقد تسللت الآلة إلى كل مكان، و إلى كل شيء، كما هزت هذه الثورة الصناعية كذلك « الأسس الأصيلة » لأي مجتمع ثبتت أصوله منذ قرون، وكان لها تأثير ملحوظ على الإنسان الأول فضلا عن سواه. ويجب ألا نضع في حسابنا أن الحربين العالميتين كان وقوعهما سببا في حدوث الثورة الصناعية، بل إن دورها فقط كان في التعجيل بإحداث تلك الحركة العميقة التي كانت خليقة أن تحدث على كل حال.

إذن فنحن أمام شيء جديد، لم يكن يهيئ لنا السبيل لأمر البتة في الماضي؛ وعندما نجيل النظر في محيط بنا، نشعر في ألم يخالطه رغبة جامحة بالدهشة الأولى للإنسان الذي يخرج من مخبئه بعد انتهاء قذف القنابل من الجو، حيث يسائل نفسه : هل سيلقى البيئة أو الجو الذي ألفه سابقا..؟

والحق أن العالم الذي يحيط بنا، يعد في الحقيقة من الوجهة الجغرافية بالنسبة إلينا « عالماً جديداً »، فمن الآن فصاعدا، لن يصبح مركز الثقل للأوروبي الممتاز، هو نفس الثقل للأوربي العادي. وفي هذا الوقت بالذات، ندرك جيدا أننا نعيش في القرن العشرين الذي تحتاج فيه إلى كثير من السنوات حتى نعود أنفسنا عليه، أو بالأحرى، نستسلم إليه ونسلمه قيادنا.

إن شخصية هذا القرن تبدو الآن – والحل – أنها تشكل تناقضاً ملموساً مع ذلك القرن المأسوف عليه (القرن التاسع عشر) أو الأحمق، و إنه لشيء مؤثر جدا تلك النكبات التي علمت العالم القديم معنى التشاؤم الذي لم يكن واقع ذلك العصر، فأجدادنا، بل نحن أنفسنا أيام شبابنا، كنا جميعا نعتقد عن إيمان راسخ لا يتزعزع في حقيقة « التقدم »، ولم يكن في تصورهم بتاتا، أن الأرض الموعودة هي في المستقبل وليست في أي مكان آخر، وقد يحدث أن نسائل أنفسنا : هل هذه الأرض وجدت في الماضي عن طريق الصدفة؟

(١)

لقد كان الاعتقاد السائد في القرن التاسع عشر، يتجه في إيمان قوى صوب القومية والإمبريالية : فكان عمر « بسمارك » و « ماك كينيلى » الذي يتميز بنصرة تحالف الطبقات الاجتماعية والمبادئ والنظريات الحرة.. فقد حقق الجنس الأبيض الغربي أو بمعنى أصح

الأوروبي في هذا الاتجاه، نمطا من أنماط الوحدة العالمية التي تعيد ذكرى وحدة الإمبراطورية الرومانية، وعندما نغادر أوروبا وندخل – دون أن نصعد أو بهبط – في نوع من الجمهورية التجارية الدولية، فإن هذه الجمهورية تؤدي وظيفتها في ظل الرعاية البريطانية التي يتمتع فيها البيض بنفس الحقوق على قدم المساواة، مهما اختلفت طبقاتهم أو درجاتهم. وقد تتعارض هذه الحقوق مع القومية وحماية التجارة بلا أدنى ريب. ولكن نتائج هذا التعارض تظل في نطاق ضيق، وتحت إشراف دقيق ؛ لأن الجو العام الذي تعيش فيه هذه الجمهورية هو جو التبادل وحريته على وجه التقريب.

وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى الوراء، محاولين أن نسترجع الصفات المميزة هذا العصر المنقضي، تتملكنا الدهشة نيسره وسهولته : نعني سهولة التبادل و يسر المواصلات، رغم البون الشاسع بين طرق مواصلاته البدائية، مقارنتها إلى مواصلاتها العجيبة والممتعة في أيامنا هذه، وسهولة الرحلات في عالم ذهب مع تعميق الأسف إلى غير رجعة، والذي كان فيه الناس ينتقلون بحرية تامة ومطلقة لا تقف معها في طريقهم حدود أو تحول بينهم سدود، ولا تفرض عليهم جوازات سفر أو ضرائب.

إن استقرار الأزمنة الماضية ليقع منا موقع الدهشة البالغة، فالتعريفات الجمركية والمعاهدات التجارية كانت قائمة على نظرية عدم استمرارها إلى الأبد، بل إنها كانت قابلة للتغير صالحة للتبدل بين حين

وآخر ؛ وكانت تقوم على قواعد ثابتة سهل بها عملية المحاسبة. وقروض الحكومة كانت قائمة على دعائم مالية قوية الأركان، لدرجة أن رجال الاقتصاد المحدثين يتمنون أن لو استمر العمل بها في هذه الأيام. والأدهى من ذلك أن متانة النقد المعتمدة على الذهب كانت تسمح ببقاء الأسعار على حالها، أو ارتفاعها بفروق معقولة جدا لمدة خمسين عاما أو قرن تقريبا.

وفي هذا الصدد يجمل بنا أن نشير إلى أنه في بعض الأوساط التجارية التي كان وقوع المضاربات فيها أمرا محتملا، كان هناك نوع من الاستقرار المشروط ؛ فالتوقيعات بالأسماء كانت محترمة أيما احترام، والارتباطات التجارية الشفوية كانت بين الطرفين بمثابة « التزام شرفي »، فقد انعكس هذا الاستقرار أخيرة على البنيان العام للمجتمع، لأن الرجل الأوروبي أو الغربي كان مرتبطا أوثق ارتباط بالوسط الذي كان يعيش فيه، وإن لم يكن على هذا الحال الآن.

إن الفلاح في تلك الأزمنة كان متعلقا بأرضه، كما تتعلق الشجرة بالبقعة التي نبتت فيها، ولا يمكن نقله من أرضه إلا بإبعاده كلية عنها، والصانع لم يكن ينفك يتحول عن تقاليد صنعته، وكل الصناعات حتى الميكانيكية مها، وهي التي تسللت إلى روح المهنة، قد ظلت المصدر الذي تأخذ عنه حرفيا. وكان يبدو للرجل البرجوازي، أنه لا يستطيع أن يبتعد عن الإطار الذي يعيش فيه ؛ فهو إنسان مستقر العيش، محدود الأفق، وهو يحب النظام، ورغبته الجامحة تتمثل في أنه يبغى أن ينقل

إلى وارثيه مستوى من المعيشة أفضل دون توقف.

وآمن أهل ذلك العصر مخلصين أن ذلك النظام أمر طبيعي من صنع الله، ولا يداخلهم شك في أن هذا النظام ليس باللازم أن يأخذ طابع الدوام والاستمرار. فما أنجزه العلم مما سبق أن بهرهم كان يملأ نفوسهم ثقة وإيجابا. وكانوا يعتبرون « التقدم والحرية » وحدة لا تتجزأ، ولم يكن يجري في تصورهم أنه يمكن الرجوع بهما إلى الوراء ولو رجوعاً زمنياً في الطريق الصاعد إلى الإنسانية.. ومع هذا فإن بذور هذه الأزمة بين القرنين السابق واللاحق، كانت تكمن فيما وراء قضية التقدم والحرية

وقد أصبح في الإمكان أن نلمس ظهور هذه الأزمة في الآثار الملموسة الواحة الحركة الميكانيكية الجديدة، والمراكز الصناعية، والموقف الملح الدائب لأية مشكاة اجتماعية تثار عند صاحب العمل لرفع مستوى الإنسان، كما بدت في النمو المطرد والمتزايد لبعض البلدان الأوروبية المتطورة المتطلعة إلى المستقبل.

وفي الحقيقة لم يلاحظ أحد شيئا من هذا التطور منذ وقت طويل، وأنا أذكر لنفسى تاريخا أعتقد أنه تاريخ قدرى هو الحادي والثلاثون من ديسمبر عام ألف وتسعمائة أي بداية القرن الجديد... وفي أمسية ذلك التاريخ على وجه التحديد ودون احتفال عام، كنا نتبادل التهنئة بكلمة « قرن طيب) بدلا من « سنة طيبة ». وفي اليوم التالي لهذه الأمسية، وعند خروجي من المنزل، كنت أنظر بفضول إلى الشارع وحركة المرور فيه، لأرى ما طرأ عليه من تغيير. بيد أن كل شي، كان كعهدنا به أو

كالعادة. ولم أعد أفكر في هذا الأمر سنين كثيرة.

إن القرن التاسع عشر ما تزال له صفة البقاء والاستمرار، حتى أن المجلة الانجليزية الشهيرة المسماة « القرن التاسع عشر » لم تقرر بعد تغيير هذا الاسم، بل أضافت إليه هذه الكلمة : « وما بعده » وسمت نفسها باسم « القرن التاسع عشر وما بعده ».

وقد كانت الحرب العالمية الأولى منذ عام ١٩١٤ بمثابة النذير الأول الذي يلفت الأنظار داعيا إلى تبديل الوهم الذي كان يلازمنا والذي كان مفاده : أننا نعيش بروح القرن التاسع عشر، ولقد كان هناك احتمال في أن نرجع بعد ذلك إلى ما كنا عليه قبلا، و إلى الموقف الذي كنا عليه – وقد كان على ما أذكر – هو الحل الفطري الساذج جمهرة غفيرة من الناس. وقد كانت أزمة عام ١٩٢٩ هي الأزمة التي حتمت الظروف وقوعها لتفتح أعين الإنسانية الغربية ولتحيطها علما بأن صفحة من السنين قد طويت ليس الآن، ولكن منذ وقت طويل. وها نحن الآن في القرن العشرين بعد انقضاء ثلاثين عاما على بدايته، قد مضت بنا الأيام دون أن تشعر بذلك، ولو ظل هذا الوهم ماثلا لدينا، لكانت الحرب العالمية الثانية كفيلة بأن تبدده، فيا لا جدال فيه أننا نعلم أن أية ثورة تحدث تتجاوز طابع السياسة وتأخذ طابعة إنسانيا. و إذا صدق القول فنحن نسبح الآن في المياه العميقة للقرن العشرين وكما يقول الفليسوف الفرنسي اميل ليتريه Emile Littir : نحن نشعر أننا لا تملك بوصلة أو شراعا في هذا الحيط الذي لم نعد نرى له شواطئ.

(٢)

وإذن ففيم غيرت هاتان الحربان العالميتان العالم ؟ وما تعتبران نقطتي انطلاق لحوادث جد خطيرة غير أنها قد منحتانا هذا الشعور بالثورة الذي لا يبارح خاطرنا أبداً.

وهناك أولا ثورة في التوازن الداخلي للدول. فقد تغيرت « أصول السلطة. السياسية »، وعندما تحولت الحروب إلى حروب كلية، وضعت بين أيدي الحاكمين سلطة، وهذه السلطة ليست بسلطة سياسية أو عسكرية فقط، بل سلطة اقتصادية واجتماعية وفنية، وسلطة على المصالح الخاصة التي لا تقوى على الدفاع عن نفسها، والتي تستنفد شيئا فشيئا صالح المجموع. مثل هذا النظام الذي كان يفرضه التوتر وصخب المعارك بين الحكومات بعضها البعض. بيد أنه يجب ألا نهتم هذا، فالدول لن تستغني عن الأسلحة التي حصلت عليها نتيجة لذلك النظام السابق احتفاظ بها لبعض الظروف الشاذة.. إنها ستحافظ عليها وستحاول تدعيمها، ثم إنها بعد ذلك لكي تبرر موقفها أمام جمهرة الشعب، سوف تستخدمها التشبع رغبات الشعب المادية والعاطفية معا أي الخبز والألعاب الرياضية والسينما، فضلا عن أنها تبغي من وراء ذلك شفاء غليل الجماهير إلى المساواة. إن الجموع البشرية في حالة عدم مقدرتها على استخدام السلطة التي خولت لها تبعا لاتفاق غير مكتوب، لا تستطيع إلا أن تحولها إلى الحكومات. وهذا الاتفاق وجد في عصر أصبح فيه التنظيم شرط من شروط أية حياة جماعية متطورة. وتحول

السلطة من المجموع البشرية إلى الحكومات يؤدي بالطبع إلى الدكتاتورية، و إلى دكتاتورية الحزب الواحد ودكتاتورية البيروقراطية.... وفي آخر المطاف إلى الاستعباد الذي تضعه الحكومات في إطار يدعون أنه إطار ديمقراطي.

ويبدو أن هذا اللون من الحكم، قد أجريت تجربته، ثم قبلت دون تأفف أو ضجر، فهل القبول من جانب الفرد ناتج عن اهتمامه أو ملله، أم عن قصور من جانبه لا يمكن أن ينفك منه ؟ إن الفرد على وجه العموم وخاصة في مجتمعاتنا العربية، لم يعد يقبل أن يمل متجملا وحده مسئولية ذلك، وأن يترك إلى مبادأته الخاصة، فهو يطاب، ويطالب بإلحاح، ومع كل فهو يجد أن الحكومة تثقل كاهله فيرتمي بين ذراعيها كما يرتمي فيس بين ذراعى «وكيل التفليسة »، وبهذا لا يصبح حرة، ولكن قد يحاولنا أن نسأله : هل يهمه أن يكون كذلك ما دام الأمن والطمأنينة قد أصبحتا شغله الشاغل، ولأن المجتمع يتجه إلى أن يصبح من المساواة على نطاق أوسع، وأكثر تعاونا وتضامنا وأقل حرية،- وستبدو حرية الآراء والمبادئ مذهبا غير متعارف عليه في نظر المثقفين أو من يوصفون بالرقي ؛ ومعنى ذلك : أنك تصبح رجعيا إذا ما دافعت عن الفرد ضد التنظيم، لأن التنظيم يفسر بالتقدم أو اليسار.. و يالها من كله لا يستطيع المرء معها شيئا.

ويجب علينا في هذا المقام أن نقرر أن الشروط الحديثة للإنتاج الصناعي ستتعارض مع مختلف المبادأت الفردية والحريات الشخصية.

وقد تلا العصر المهني – الذي يقوم على استعمال الآلة باليد واستخدام الذراع والتفكير المرحلة الميكانيكية التي تقوم على الآلة الميكانيكية والتي ظهر بظهورها سيطرة المهندس. وسيادته. لكننا الآن فيما يبدو قد دخلنا مرحلة أخرى جديدة تسود فيها" الطرائق الفنية الخالصة والتي تتطلب سيادة التنظيم فقط. ففي هذا العصر الإداري الذي تتطلب فيه الإدارة المعقدة للمشاريع، مجموعة وجهات نظر لا وجهة نظر واحدة و إحساسا عميقا بإتقان الإنتاج. وقد أصبحت الوحدة الجامعة في الإنتاج ضرورة ملحة، لأنه من العبث أن تعمل في حدود جهود متفرقة.. و بعد، فإن الإنتاج الجماعي يحل محل الفوضى الفردية.

وحينما اضطرت الحكومات إلى أن تأخذ بيد الإنتاج ناهضة به في روح جماعية متوثبة، نرى أن الحرب قد عجلت كذلك هذا التطور الذي حافظت الطرائق الفنية فيه على دورها الحيوي، والذي أصبحت صفات تعد من أهم الأشياء المباشرة الطرائق الفنية آنفة الذكر. إن عامى ١٩١٤ و ١٩٣٩ يعتبران من هذه الوجهة مرحلتين حاسمتين، لأن هذه الصفات قد دعمت من تركيز أو تجميع الصناعات، وفرضت في عدد من الحالات « وحدة تخطيط الصناعات » الهامة في الإطار القومي وتحت إشراف الدولة. و بهذا التطور ضاعف «المشروع ». من مدى سلطانه، وأصبح مشروعا سياسية من الوجهة المنطقية. ولكي تدافع الحكومة عن حقها، تحاول جاهدة بدورها أن تتسلط عليه، وأن تستهلكه. وعلى أية حال، فقد تقلص إشراف السلطات العامة دون أن تستطيع الحكومة ا تحديد هذا الإشراف. ومن هنا تأتي محاولة السلطة

أو لسوء استمالها، لا بالنسبة للدولة ذاتها فقط، بل لهؤلاء الذين يرأسون – في الواقع – الحكومة. فالقوى المضادة للعصر الحر لم يعد لها وجود شيئا فشيئا أمام ظهور المجموع المتكتلة التي ابتعدت من كل جانب عن الفرد.

وعلى ضوء القواعد الحديثة للصناعة، أخذت كل مشكلة تثير اتجاها إداريا، ومن ثم اتجاها سياسيا بطريق غير مباشر. فالحلول الفردية التي كانت بمثابة قاعدة عامة في القرن التاسع عشر لم تعد تكفي أو تشفي غليلا. أما الآن، فقد أوجب الوضع الراهن حاولا من جانب الحكومة في صيغة قوانين ومراسيم تتضمن عدة أنظمة أو أوامر لا يحصيها العد، ولا يمكن نقضها ؛ ذلك أننا نجد عدد إلا حصر له من المشاكل يثار لصالح الجموع مثل : الصحة والمسكن والتغذية والإعانة والضمان الاجتماعي والمبادرة الفردية والعلاقات بين أصحاب العمل والعمال والإنتاج الصناعي التي يصعب حلها فيما بعد ؛ فعدد الساعات التي يجب أن تخصصها من حياتنا للإجراءات الإدارية، قد ارتفع عن ذي قبل، فضلا عن أن جزءا كبيرا من نشاط المنتجين يضيع في إجراءات مكتبية، وهذا ما يتطلبه و يفرضه علينا « العصر الإداري »، وإذا لم يعالج العصر الإداري نفسه بتعقل وروية واتزان، على منوال « العصر الميكانيكي »، فإن البنيان الاجتماعي المتدهور لا بد وأن ينهار

وفي هذا التيه الحزن، ربح الكائن الإنساني الكثير، لأنه لم يعد، كما كان، في ظل المبادئ والأفكار العدوانية « عامل إنتاج » بالتكلفة

فقط. فالتأثير النقابي والحركات المختلفة للإصلاح الاجتماعي والمذهب الإنساني والعدالة الاجتماعية قد فرضت في أشد وأعنف أزمات الإنتاج احترام الإنسان. فهل يجد الكائن الإنساني في هذا الاحترام ما يعادل أو يشبه التقدم ؟ إن ما ربحه الفرد من جانب قد فقده مع الأسف من جانب آخر ؛ فالمجتمع قد يهدد بشكل سريع وعاجل بالجمود والتصلب إذا لم يجد من جديد في مبادرة الفرد مصدر حياته ؛ ذلك المصدر الذي لا يمكن أن نستبدله بآخر بمعنى البحث عن توازن جديد. والبحث عن هذا التوازن هو من عمل الأجيال الصاعدة. ولكن إذا فقد الفرد ذاته في مغامرة هذا البحث، فإن الإنسانية جمعاء، قد ترجع القهقرى تحت مظهر خداع من التقدم الفني « التكنيكى ».

وبالمقابلة نرى حدوث تغير كامل في توازن الكوكب الأرضي؛ وهانحن كذلك في عصر المواصلات السريعة، فقد خلق لنا هذا العصر على ح د تعبير بول موراند Paul Maurand رذيلة جديدة وهي السرعة ؛ ونحن لا نستطيع أن تتخلص منها، أما فوائدها فأمر مشكوك فيه. لقد ألغت الطائرات المسافات، فأي فارق بين تنقلاتنا اليوم و بين بطء تنقلات أجدادنا وآبائنا ؟ وفي عام ١٨٢٩ عرفت من مذكرات جدى أن رحلته التي قام بها من مارسيليا إلى مدينة « تربيزوند » وهي مدينة تركية تقع على البحر الأسود استغرقت ستة وعشرين يوما. أما اليوم، فتستغرق الرحلة من باريس إلى القاهرة أو من باريس إلى استانبول يوما واحدا فحسب.

وفي عام ١٨٦١ قام أبي برحلة من ميناء « الهافر » إلى نيويورك في سبعة عشر يوما. وفي عام ١٩٣٨، استغرقت مني هذه الرحلة على الباخرة « نورماندي» أربعة أيام ونصف اليوم. وهناك مثل آخر أكثر وضوح) : فمن « براتكيلا » التي تقع على الشاطئ إلى بوجوتا عاصمة كولومبيا في أمريكا اللاتينية والتي تقع على الهضاب العالية لجبال « الأنديز» على بعد ألف كيلومتر في الداخل، كانت الرحلة تستغرق منذ خمسة عشر عاما أو عشرين سنة مضت، خمسة عشر يوما. ولكنني قمت بنفس الرحلة، وقطعتها في ثلاث ساعات ونصف الساعة أي أنني غادرت برانكيلا في التاسعة والنصف، وتناولت طعام الغداء في «بوجوتا»، لكن هذه الرحلات الخاطفة قد أصبحت اليوم شيئا عاديا. ومنذ وقت قريب، تناولت إفطاري في الخرطوم، ثم أويت إلى فراشي في المساء في بروكسل دون أن تعتريني الدهشة من هذه السرعة الفائقة التي تعودناها.

ومع ذلك، فإني لا أنسى رحلتي الجوية الأولى التي عبرت بها المحيط الأطلسي، وقد بدأت الرحلة في الثامنة مساء ومن مطار « أورلي » بباريس، ثم تناولت عشاي في مطار « برستويك » في مقاطعة اسكتلندا بشال انجلترا. وقد كان جو النهار شبيهة بالغسق الذي لا نهاية له. ثم تناولت إفطاري في «أيسلنده » في اليوم التالي، وكانت الأرض في هذه البقعة من العالم أشبه ما تكون بقطعة من الألوان المختلطة بين حمراء وصفراء وخضراء، وذلك منظر رائع أخاذ لا يتطاول الخيال إلى بلوغ حدود وصفه. وعندما وصلت في الخامسة مساء، بعد أن طرت طويلا فوق بحر مرصع بجبال من الجليد إلى الأرض الجديدة ذات التربة

المثلجة التي تنتشر في جنباتها أشجار الصنوبر السوداء، استأنفنا طيراننا على الشاطئ الأمريكي في المدن البراقة الوهاجة ؛ وقد كنا في هذا الحال كأننا في حلم. وأخيرا هبطنا في واشنطن في العاشرة مساء. و بمقارنة ما يحدث اليوم، نجد أن سير المواصلات كان بطيئا، ورغم ذلك فإنه لا يحدث أن يشعر المرء بالاغتراب اليوم عما كان يشعر به بالأمس.. أعني عندما يهبط من السماء في طائرة حيث يجد نفسه في أجواء عالم جديد، وقد أضحى السفر بطريق الطائرة لا يتبع طريقا مستقيا بال طريقة منحنيا يتسم بالاعوجاج، ناهيك عن اللف والدوران.

وقد كان من نتيجة هذه الثورة في مقياس السرعة أن انتهت الإقامة الأبدية في جزر العالم. فبعد الطيار الأول « بليريو » Bleriot و بعد لندنبيرج Lindberg الذي حاول الطيران بعد سابقة نقول : « بعد هذه الرحلات التي أدهشت العالم حينذاك، وملكت عليه مشاعر إعجابه بعد الحرب العالمية الثانية، هل يجوز لنا أن نتحدث عن العزلة..؟ لقد أصبحت جميع الاتصالات أو العلاقات تم على عجل وفي سرعة خاطفة. و إن الدورة المشهورة حول العالم التي استغرقت ثمانين يوما، قد تستغرق ثمانين ساعة.

ترى، هل نستطيع أن نقول : إن هذه المغالاة في السرعة قد خلقت علاقات على مستوى أفضل بين الناس بعضهم البعض؟ فلننظر إلى ما يجري حولنا، وحين تفعل ذلك نجد أن « الحواجز السياسية والإدارية» قد اشتدت وتعاظمت على حين تحاول « الوحدات القومية »

الدفاع عن نفسها عن طريق إحاطة نفسها بعوائق مختلفة. والحرية الاقتصادية – مع بالغ الأسف – لم يعد لها وجود، ومع أن المسافات قد تدانت اليوم عنها بالأمس، وتم استغلال الزمن من الوجهة الفنية، فإننا نستطيع في شيء من الصراحة أن نقول : إننا قد فقدنا هذا الاستغلال المذكور من الناحية الإدارية في دوامة من الرسميات، والتشريعات، وتأشيرات الخروج. وعلى كل فإن التقدم الكلى لم يحن وقته بعد.

ومن كل ما تقدم، نرى أن هناك تغييرا ونعني به الثورة في معيار القوى. والبلاد الوحيدة التي تستطيع أن تبقى كقوى من الدرجة الأولى هي تلك البلاد ذات المساحات الشاسعة، والمكتظة بالسكان، والمنظمة تنظيما جيدا، والتي تسيطر على ما تملك من أراض مترامية الأطراف. فقواعد الإنتاج الحديث، تتطلب تلك الضخامة التي بدونها لا تستطيع الآلة والتناسق في العمل تأدية دورها على الوجه الأكمل، وكذلك لم يعد كل من العلم والأسلوب والطريقة الفنية أمراً كافيا، ولم يعد الإنتاج متصفا بالإمكانية، اللهم إلا في إطار هياكل عملاقة. ويبدو أنه لا بد من بلاد مساحتها على الأقل من ٨ إلى ١٠ كيلو مترات مربعة، وسكانها على الأقل ١٠٠ مليون نسمة لتكون دولة كبرى. فقد سبق أن سيطرت أثينا على حوض البحر المتوسط، وقد كان عبارة عن رقعة صغيرة من الأرض، يعيش بين ثناياها نخبة مختارة من المواطنين، أما نحن فلا نستطع أن تحقق بمجموعة تتراوح بين ثلاثين إلى أربعين مليونا من السكان السيادة أو الزعامة الأوربية في ذلك الوقت.. أما اليوم فقد أصبحت الغلبة لكثافة السكان. ومن أجل ذلك، فإن الولايات المتحدة وروسيا أي القارتين

العظيمتين تتبادلان توجيه العالم بدلا من الطرف الآسيوي الصغير (أوربا) الذي كان يوجه العالم منذ أربعة قرون رغم قلة كثافة سكانه. وأصبح على « الوحدات القومية » أن تتحد لأنها لم تعد في مستوى هذا العصر الجديد.

وفي الوقت الذي كان يتغير فيه سلم القارات والبلاد، حدث اختلال في توازن مركز الثقل العالمي. فأوربا المحطمة الجاثمة على قدميها المهزومة في عقر دارها، لم تعد قادرة على أن تلعب دور القيادة في الحضارة الغربية، ولم تعد كما كانت منذ قرون – مصدر اهتمام العالم. وقد ظهر ازدواج في مركز الثقل فإما أن يكون موجها من أمريكا الشمالية أو من القارة السادسة أو السابعة التي يمكن أن نصفها بالقارة الأورو – آسيوية. وعلى ذلك، فإن مشاكل السلام و إعادة تنظيم العالم، لم يكونا واضحين تمام الوضوح لدى المنتصرين من وجهة نظر البلاد الأوربية، كما كان عليه الحال في غموض مفهومها في جميع المناقشات الدبلوماسية السابقة، وقد كان لاختيار مدينة « سان فرانسيسكو » مقرا للاجتماع الأول التنظيم هيئة الأمم المتحدة أكثر من مدلول. فالمنتصرون في الحرب العالمية الأولى لم يفكروا قطعة في أن يجتمعوا في مكان آخر غير القارة القديمة. ومن الأمور ذات المعنى أن تجتمع هيئة الأمم الجديدة بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة؛ وما له معي كذلك أن تنقل روسيا مراكزها الصناعية إلى شرق الأورال. و بذلك ظهر عالم آخر، لا تسوده الروح الأوروبية بل يسوده أحد شيئين : إما روح آسيوية أو أمريكية.

ومن هذه الحقيقة، نجد أن جغرافية التنقل والترحال، قد تغيرت عن ذى قبل. فأية مدينة مهما كانت في أقصى بقاع الأرض مثل مدينة « ادمنتون » في الشمال الغربي لكندا قد أصبحت اليوم واقعة في طريق أهم الخطوط العالمية الأرضية. وانجلترا كذلك، التي كان لا يحيط بها إلا مساحات شاسعة من محيط لا نهاية له، قد غدت بعد الاكتشافات العظيمة ملتقى لعدد كبير من الخطوط البحرية، وأصبحت كذلك رأس جسر بين أوربا والبلاد الأخرى التي نشأت عند بدء تبادل العلاقات بين القارات بعضها البعض. وأية وحدة سياسية لم تعد تفهم جيدا إلا وسط خريطة العالم. فهذه الخريطة وحدها هي التي تتيح لنا أن نفهم بنظرة خاطفة، الأهمية الجديدة التي تحتلها المنطقة القطبية؛ لأن المواصلات الجوية المباشرة بين القارات ونصف الكرة الشمالي تمر بهذه المنطقة. وعلى ذلك يدخل القطب ضمن المناطق التي يتصارع فيها الاستعمار... من هنا يستلزم الأمر نوع خاص من التفكير لنستوثق من أن خط «شيكاغو – كلكتا » يمر بالقطب الشمالي، وأن أقرب البلدان غير الأمريكية لكندا هي سيبيريا.

وإذن، فالحروب القادمة لابد أن تضع في حسبانها هذه الاعتبارات. ولقد كان بوسع الجيل السابق أن يتجاهلها. أما الجيل الحالي، فليس بمستطيع ذلك. والأرض اليوم لم تعد أرض الأمس. وكم يكون مؤثرة بل مهينا للرجل الأوربي أن يتعاقب عليه نظام غير ما يعيش فيه الآن. ففي بين عامي ١٨٩٨ و ١٩٠٠، كنت شاباً صغيراً، وطوفت بأرجاء العالم، ورأيت بعيني رأسي، كيف كانت تفتح جميع الأبواب

المغلقة أمام الرجل الأوربي أو الغربي، بالإضافة إلى أنه كان يتخطى جميع الحواجز، و يجتاز العراقيل. وقد كنت أتمتع بامتياز ليس إلا انتمائي إلى الجنس الأبيض و إلى ملكة القارات. كم تغير الزمن عما كان. عليه قبلا..! ذلك أنه يخالجني الآن شعور يخالطه إحساس بأني عاصرت ما يشبه نهاية الإمبراطورية الرومانية. ولقد كان يجول بذهني بيت من الشعر قاله شاعر فرنسا العظيم كورنيلل Corneille في القرن السابع عشر ألا وهو :

مصير عظيم ينتهي ومصير عظيم يبدأ

وعلى ضوء هذه التجارب، التي كانت قاسية بالنسبة لنا نبدأ في إدراك الخصائص المميزة الرئيسية لهذا القرن العشرين إدراكا جيدا، مع ملاحظة أنه يختلف إلى حد كبير مع القرن السابق. بيد أن التقدم الفني هو في الحقيقة « جار » لدرجة أنه غير الكثير فيما بيننا بلون من النشوة ؛ فقد حملنا على الاعتقاد بأننا قد انتصرنا على العناصر التي لم تكن في مقدورها أن تحد من قوى الإنسان، ووسعنا حدود معرفتنا وآفاقها فغدت رحبة الجناب، ودعمنا ميدان خيالنا فيها وراء عالمنا. و يلزمنا في هذا الصدد أن ننوه بأن المعارف القديمة التي كانت في الظاهر قوية ثابتة الدعائم شامخة الذرى، والتي كان يفخر بها القرن التاسع عشر، والتي كان منها المبدأ الفلسفي « الحتمية »، وفكرة القانون الطبيعي قد بدأت تختفي. وقد كان يوجد في هذا المبدأ الفلسفي أساس السلم الأخلاق المبني على التعقل وحسن الإدراك. فالاحتمالات الإحصائية لم تعد

تمنحنا الأمن والطمأنينة المنشودين. ومع ذلك، فإن مباغتة الحركات الذرية لذا قد أدخلت سيطرة الشك على العقول في شيء من الوهم الجذاب للحرية... هذه هي الروح المضطربة وقت أن ساد الحمام العارم لاكتشافات عجيبة.

وقد حقق القرن التاسع عشر « الوحدة الاقتصادية » في العالم. والآن يتجه العالم إلى الانقسام إلى وحدات سياسية اقتصادية كبرى مجزأة أجزاء صغيرة، ومدعمة تدعما عسكريا واقتصادية قويا، ولم تعد الحرية التامة تسبغ ظلالها على انتقال الأفراد والبضائع التجارية، وذلك أن مبدأ « الحماية القديمة»، الذي كان ينحصر في التعريفات الجمركية فقط لم يعد يرتبط مبدأ « الحماية الجديدة » إلا برباط ضعيف واه. وهذا المبدأ الجديد قد أقيم على أساس توزيع الحصص، وعلى الأخص «قواعد التبادل»، والأدهى من ذلك أن النقد نفسه، لم يعد حيادياً كما كان من قبل. والبنوك المركزية الموزعة للنقد تستأثر بصمام الأمن المالي وتتحكم فيه ؛ والمفاوضات الدولية التي أقيمت وانعقدت، اقترحت عدة قرارات صالحة للتبادل. ولم تصدق جميع الحكومات على هذه القرارات حتى أولئك الذين صدقوا عليها لم توضع من جانبهم موضع التنفيذ. ففي هذا العالم الذي ترغب فيه جميع الدول أن تصبح صناعية لم يكن مبدأ الحماية القومية حاسما في ذلك.

على أن مما يعد أمراً مؤثراً حقاً، الخطر الذي يحيق بالهجرة وتنقلات الأفراد، وعن طريق جوازات السفر، ومكاتب النقد الأجنبي،

حيث أخت الهجرة من الصعوبة بمكان. ومن العسير أن تسافر دون معاونة الحكومة في ذلك كما أنه من المستحيل أيضا ألا يصطدم المرء برغبة الحكومة التي تتعارض مع مبدأ سفرك. ولقد قام أحد الرحالة ويدعى «فيلياس فوج » برحلة حول العالم استغرقت ثمانين يوما، ونستطيع اليوم أن نقطعها في أسبوع واحد لاعتبارات لا تخفى على المتأمل. لكن، كم يوما تستغرقه عملية الاستعداد للقيام بهذه الرحلة من قبل الجهات الرسمية، وهي التي تشتمل بالطبع على إعداد جواز السفر والتطعيم واستبدال العملات بعملات أخرى ؟ و إذن، فيجب ألا نندمج اندماجا كليا في أية حكومة ضخمة، قوية الجانب بالنسبة الإنسان ضعيفة تجاه حل المشكلات العويصة التي تواجهها. وقد كتب الشاعر الفرنسي بول فاليري Paul Valery في هذا المعنى يقول : « الدولة مخلوق ضخم الجثة، مزعج وضعيف ؛ إنها عملاق مشوه، قوى جدا، أخرق جدا، إنها بنت القوة والقانون وقد أنجباها من تناقضاتهم. وهي لا تحيا إلا بوساطة جمهرة من صغار الناس الذين يحركون بحماقة يديها وقدمها التي لا حياة فيها. أما عينها الوحيدة فلا ترى إلا « الملاليم » أو آلاف الملايين. الدولة صديقة الكل، عدوة الفرد ».

وفي هذا العصر: عصر الحديد والنار، الذي قضى عدد كبير منا فيه عشر سنوات من حياته في الحرب ؛ نجد أن التدهور الخلق شيء ملموس لدينا : فآباؤنا لم يتصوروا أبدا مدى الهلع والخوف الذي تعرضنا له أثناء هذه الحروب، ناهيك بما كان منها إبان حمي المعارك ؛ فالبشرية لم تعد تبدو معركة في مؤخرة الجيش.

(٣)

إن نتائج هذا الانقلاب قد سرت سريعة بشكل تبدو معه كأنها تتعجل مرور الزمن العادي، ولم تكن قاصرة على الانقلاب أو التغييرات السياسية والاجتماعية التي تقع تحت ناظرينا، بل تعدتها إلى الجنس البشري الذي دخل عصر جديدة. ومن الملاحظ أن الانتقال من الآلة اليدوية إلى الآلة الميكانيكية لم يستغرق وقتا طويلا في الغرب، بل في كل مكان : فالآلة اليدوية كانت فردية ومعلمة ؛ أما الآلة الميكانيكية فهي بطريقتها جماعية ومنافية للعمل الفردي ولها أسلوبها الخاص الذي يتعارض مع أسلوب الإنسان، وكل ما تنتجه يختلف تمام الاختلاف عما تنتجه الآلة اليدوية.

ثم تطالعنا بعد ذلك ثورة في « أخلاقيات العمل »، فقد كان العمل اليدوي أو الفني في الماضي قائما في الأغلب على « شرف المهنة »، على أنه فيما بعد،. ارتكز على الطريقة الفنية، وروح التنظيم عند رئيس المصنع والعامل، وقوام العمل بعد ذلك الاهتمام والنشاط والضمير وقوة الاحتمال. و إن شرف المهنة في غالبية الأحوال، أو الروح الفنية لاتمسان طالما أن العمل الفردي يذوب في عمل الجماعة التي يجب أن ينظر فيها كل شيء نفسه بنفسه، كما تتحرك أجزاء الساعة. و إذن، فلم يعد هناك موضوع لتمييز فرد على آخر، بل إن كل ما هنالك هو أن ينهي كل فرد عمله في الوقت المناسب أو يتقن عمله على الوجه الأكمل، طالما أن الواجب يفرض عليه ألا يتحرك من مكانه الذي خصص له،

فمثله كمثل أية قطعة في آلة ميكانيكية إذا ما انتزعت منها بعض أجزائها توقفت الآلة توا عن العمل. فروح العمل كفريق ورابطة وتعاون، ينطوي على أخلاقيات جديدة في العمل. ففي هذا الميدان يبذل الفرد من نفسه الكثير، وهذا يعد تضحية من جانبه مفعمة بالعظمة والسمو، لأنها تنم في الوقت نفسه عن تعاون الأفراد لصالح الجموع ؛ وقد تتطور هذه « الأخلاقيات » في المستقبل في شكل مذهب تصوفي.

ومن هذه الحقيقة نشأت ثورة في العلاقات الاجتماعية بين الناس بعضهم البعض، فالفردية الطبيعية التي لها تقدير من وجهة النظر الإنسانية عند صاحب الحرفة أو الفلاح المالك، تبدو أنها خطأ من أخطاء المؤرخين للعلاقات الاجتماعية ولم يعد بعد في الاعتبار أن ينهض الإنتاج بطريقة فردية في مجتمع التف حول الآلة، ولم تعد الملكية الخاصة فيه أنماطها السابقة. و إن أي شكل من أشكال التعاون مهما تعددت صوره وأساليبه لا بد وأن يفرض نفسه فرضا في هذا المجتمع، ونحن نأمل أن يهدف هذا التعاون إلى العناية بالفرد والاهتمام به ؛ لكن الاتجاه يرنو في أغلب الأحيان إلى صالح الجموع. فالحياة الخاصة نفسها لا بد أن تتشكل بهذا الطابع، لأن « تنميط » الإنتاج يترتب عليه توحيد الاستهلاك.. ويجب أن ترى المستهلك على أن يكيف نفسه حسب مقتضيات أية صناعة قائمة على النظام الحديث بحيث يصبح الإنتاج (حسب الطلب » أمرا مستحيلا. اللهم إلا بالنسبة لحفنة من أصحاب الملايين. فيدان الفردية يتجه حينئذ إلى الانكماش، وتنشأ طبقة جديدة تسود فيها الحياة المترفة المتوسطة في صور مختلفة، ويصبح

الفرد مجرد رقم بين مجموعة أرقام.

فكيف يمكن التوازن المجتمعات الإنسانية أن يصمد أمام الهزات التي لم يكن لها سابقة من قبل ؟ وقد تصادف أن أدت سرعة سير مجرى التغيرات الاجتماعية على إحداث هزات عنيفة في المجتمع، لأن الطريقة الفنية في الصناعة تتطور اليوم بسرعة أقوى من الأفكار. وقد كان يوجد في القرن التاسع عشر بين عمال الآلة اليدوية نوع من التعايش الذي انتشر في أرجاء العالم؛ وقد كان تعايشا إنسانيا ظلت سيكولوجيته تنمو وتزدهر بين العمال، وحينئذ نواجه ثغرة واسعة. ولسنا في حاجة إلى أن نبسط أخطار ذلك، ونبين هذه الثغرة التي نشأت على غير انتظار بين البلاد التي ضربت بس م وافر في الصناعة الميكانيكية و بين المجتمعات القديمة التي ما تزال تعيش على صناعاتها اليدوية. ولقد تسللت الآلة الميكانيكية اليوم إلى كل مكان، فقد رأيت مصانع النسيج على أحسن صورة من الإعداد كمصانعنا وسط جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية، وفي بعض المقاطعات الهندية التي لم يشق فيها بعد طريق معبد، ولم يمد فيها خط حديدى. والواقع أن الانتقال كان سريعا من الحصان إلى الطائرة. وقد أصبح من المناظر غير المألوفة والتي تدعو إلى السحرية معا منظر تلك القافلة التي تتكون من الجمال والتي يقابلها من طرف آخر، قافلة من السيارات الكبرى، تعبر قلب الصحراء ومن فوقها الطائرات تغدو وتروح في سمائها، ومن تحتها خطوط أنابيب البترول تشق أرضها. وقد ترى في الجنوب الغربي من بلادنا أن الأبقار البيضاء الموثقة « مثنى مثنى » معا بواسطة حبل يشدها، تحافظ على

هدومها المتزن وكان كل واحدة في تعايش سلبي مع الأخرى : فهل يستطيع الناس أن يتمثلوا بهذه الأبقار ؟ إن الارتباطات أو الاتصالات بين المجتمعات التي لم تصل إلى مستوى العصر الحديث تؤدي في الحقيقة إلى بعض الانفجارات. وعلينا بهذه المناسبة أن نتأمل حالة روسيا قبل عام ١٩١٤ مصانعها التي أدخلت عليها الآلات الميكانيكية، لكن اليد التي تعمل بها قد اختيرت من الريف الذي ما زال يعيش بعقلية القرون الوسطى على حين نجد أن المكسيك التي ما تزال مصانعها تعمل على الطريقة اليدوية تقترب شيئا فشيئا من البلاد المتقدمة صناعية ؛ وحتى الآن لم نعثر على بنيان اجتماعي بلغ من القوة والصلابة درجة يستطيع بها مقاومة مثل هذه الاهتزازات.

وقد ازدهر انتصار الطريقة الفنية في الصناعة، فأصبح المهندس على مقدرة كافية تجعله قادر على حل جميع المشكلات التي تعرض عليه، لكن رجل الأعمال والمشتغل بالسياسة وخاصة واضع علم الأخلاق يشعرون أنهم غير قادرين على حل المشكلات الجديدة التي تنشأ عن التقدم لدرجة أنهم لا يستطيعون الإلحاق لحل هذه المشكلات. فكل حل لمشكلة صناعية فنية يخلف وراءه مشكلة اجتماعية أو أخلاقية... هذا، وكأن الطبيعة تثأر لنفسها لتسترد ثمن الفوائد التي تعتبر انتصارا بالنسبة لنا. ومن أجل هذا، فإن الانتصار على الطبيعة الذي تحدثنا عنه آنفا، لا يعد انتصارا حقيقيا ومكتسبة إلى أقصى حد. إن الآلات مطيعة، بيد أنه في اللحظة التي نقرر فيها انتصار «الغزو الميكانيكى » في مجتمعاتنا نجد أن الحضارة ترجع إلى الوراء إلى طرق

اقتصادية اتبعت سابقا وإلى عادات سياسية قديمة. وليس من المبالغة في شيء أن نصفها بأنها طرق وعادات بربرية.

(٤)

لقد غدا المدلول اللفظي أكلمة « الثورة » غير محدود المعاني، فقد أصبح الناس كافة يستعملونها في غير معناها ؛ بيد أنه في هذا المقام نرى أنها تعبر عن مدلولها الصحيح بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى لأننا قد شاهدنا في الواقع ثورة ليست سياسية حسب، رغم أنها تتضمن تغيرات فجائية في النظم والأشخاص، كما أنها ليست « نورة اجتماعية » تنطوي على تغيير التوازن القديم في الطبقات، بل هي « ثورة إنسانية » اضطرتنا إلى مراجعة كل القي و إلى إعادة النظر في طرائق تفكيرنا في الحياة، وفي الأسس التي قامت عليها أخلاقنا.

وعندما نرجع بذاكرتنا إلى الوراء في سنوات ما قبل عام ١٩٣٩، يبدو لنا أننا أمام عصر آخر. أما عن عام ١٩١٤، فيبدو كذلك أنه بـعيد جدا لدرجة يشق علينا معها عقد المقارنات بينهما، وكأننا نهدف إلى إثارة مجتمع لم تعد تستطيع معاييره المشي مع تفكيرنا كمثل هؤلاء الذين خرجوا من ملاجئهم بعد هزة أرضية عنيفة فوجدوا يد التبديل قد مات بعنف تلك الأرض التي كانوا عليها حيث تبدلت فيها أشياء وتغيرت معالم كثيرة.

وقد يكون من الجنون والشطط في التفكير أن ترغب في الرجوع إلى الوراء وأن نتمنى بعث ما فات. فانتصارات الآلة الميكانيكية قد أصبحت

فرض علينا، فيجب أن نهيئ أنفسنا حتى نتكيف مع الوسط الفني الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الجديد، و إن مواءمة كهذه، لكفيلة بأن تتضمن مراجعة فلسفتنا الأخلاقية التي يجب أن يحدد فيها وضع الفرد بالنسبة للمجموع في شروط تحافظ على استقلال التفكير قدر الإمكان، وجهد الطاقة. هذه هي مشكلة المشكلات بالنسبة للغرب، وفضلا عن ذلك، فإننا نجد بلاد مختلفة أخرى من تلك التي تعتبر إحدى دعامات الحضارة الأوربية تواجه نفس المشكلة بإمكانيات تختلف تمام الاختلاف عن إمكانيات الغرب نفسه تبعا لاختلاف سيكولوجيتها. فبعض هذه البلاد تواجهها هذه المشكلة عن رغبة صادقة وفي روح سمحة دون النظر إلى الوراء، و بعضها الآخر تواجه بذات الأمر، وعلى هذا المنوال مع التطلع إلى الماضي الذي لا يخلو عامة من بعض الفائدة، و بعض ثالث يكن عاطفة قوية جياشة – الطريقة الفنية في الصناعة بطريقة لا تقوم على أسس صحيحة توحي بالشك في أنهم لا يعملون من أجل الحضارة.

وسنستعرض بعض سيكولوجيات الشعوب ؛ فإذا تم ذلك ربما أصبحنا قادرين على أن نتبين ماهية الغرب بشكل أكثر وضوحا.

الفصل الثاني

الواقع عن الشعوب اللاتينية

(١)

تسري في أوربا « روح لاتينية » هي قوامها وملاك حضارتها، وبدونها قد تفقد حضارتنا توازنها. فالواقع الفكري لهذه الروح قد يحدث خللا في التوازن الفكري مع « ديناميكية » الأنجلو ساكسون في الحدود التي تبتعد عنها هذه الديناميكية عن « الأسلوب الكلاسيكي ». وعندما انفصل هذا الأسلوب الكلاسيكي عن منبته الأصلي، ظل « الغرب الأقصى » للعالم الجديد غريبة دون شك، ولكنه لا يستطيع على مر الأيام أن يواجه مصيره إلا في طرق مختلفة عن طرق الغرب.

وإذن، فما هي حقيقة هذه الروح عن الشعوب اللاتينية ؟ نحن نتحدث كثيرا عن الأجناس اللاتينية، لكن إذا نظرنا إلى الاصطلاح في معناه الحقيقي يجب أن نقرر أن اللاتينيين لا يمثلون جنسيا، بل لغات لاتينية هي الوسائل وأدوات التعبير عن « الفكرة اللاتينية،، التي تتصل دون جدال حضارة كان مهدها البحر المتوسط. – من وجهة النظر هذه – وعليه، فإن اللغة اللاتينية حقيقة واقعة.

وقد ساعد عدد لا بأس به من الأجناس على تكوين الصورة

الإنسانية الحقيقية لقاطن البحر المتوسط. بيد أن أكثر الأجناس التي تضرب في القدم بعرق نافذ، وأشملها تمثيلا لهذه الصورة آنفة الذكر هو «الجنس الأيبيري» أي سكان أسبانيا والبرتغال، وهو جنس أبيض مستطيل الجمجمة، ذو بنية عظيمة تحيفة، قصير القامة، أسمر البشرة. ويتميز هذا الجنس عن أجناس تختلف عنه جغرافيا كالجنس الأسود الذي يتميز باستطالة الجمجمة، والجنس الذي يسكن جبال الألب، والكلت الذين من سماتهم استدارة الجمجمة، والاسكندنافيين والشماليين الذين يمتازون باستطالة الجمجمة و إن كان لونهم يميل إلى الشقرة و بشرتهم يجنح لونها إلى البياض الناصع.

ويضم الحزام الغربي لحوض البحر المتوسط هذا الجنس، كما تشمل هذه الرقعة البربر والإيطاليين والأسبان وفرنسي الجنوب. وترتبط هذه الأجناس جمعاء رباط « الوحدة الأوروبية الإفريقية ». وبهذه المناسبة نود أن نستعرض في أذهاننا ذكرى الإمبراطورية الرومانية التي نشأت في محور بحر هو جزء من أجزاء وطننا. لكن الأيبريين لم يكونوا وحدهم من سكان البحر المتوسط بدليل تلك الغزوات المتلاحقة وحوادث التسلل التي جلبت معها أجناس غير متجانسة. فالشماليون الذين يغرهم غالبا سحر الجنوب وشمسه كثيرا ما غزوا اليونان وإيطاليا والفال وأسبانيا ووصلوا إلى الشواطئ الشمالية من قارة إفريقيا. وهؤلاء الشماليون كانوا يذوبون في شعوب تلك المناطق، ويمتصون فيها. ولكن وجوده بقى مع ذلك قاما ونحن نعرف جيدا نظرية العنصر بين الذين يقولون : إن كل شيء طيب في البحر المتوسط قد أتي من الشمال. فقد

جلب الشماليون معهم إلى حوض البحر المتوسط كثيرا من آيات الروعة ومعالم الجمال التي تنبض بسحر الحياة ورواها. وليس من نافلة القول أن نبين هاهنا أن الإحساس بالقيادة والترتيب والنظام الذي نلمسه بين سكان هذه المنطقة هي في مجملها، من خصال أهل الشمال : وأن السيد المسيح عليه السلام، قد ينتمي إلى فصيله الجنس الأعلى لمستطيلي الجمجمة، وقد يكون هذا الكلام مدعاة للسخرة مني، ومع هذا فإن كلامي هذا لا يبعد في جوهره عن الحقيقة.

إن العرب الساميين لم يكن لهم أثر يدل على التفرقة العنصرية في البلاد التي غزوها ؛ فقد شعر الناس بتأثيرهم ووجودهم في الجنوب الغربي وجنوب البحر المتوسط الذي أقاموا بل نشروا فيه لواء الحضارة التي كان لها سمات، وطابع خاص بهم لن تمحوها تعاقب الأيام وتوالى السنين. فالعرب الساميون هم الذين طوروا طرق الري، وأدخلوا في هذه البقاع مختلف النباتات الاستوائية مثل القطن والأرز وقصب السكر والموالح بحيث تميز حوض البحر المتوسط بالطابع العربي الشرقي، وفي نفس الوقت، كانوا يساعدون على انهيار « الوحدة القديمة » لهذا الجزء من العالم ونعني بذلك: حضارة العالم الروماني، وقد كان من جراء تأثيرهم أن حوض البحر المتوسط لم يصبح مسيحياً خالصاً.

ولنذكر الأتراك، هؤلاء المغوليين الذين لا يعدون بحق من سكان حوض البحر المتوسط من ناحيتي الأصل والثقافة، ذلك أنهم قد وصلوا إلى شواطئ هذا البحر وسيطروا عليه سيطرة شبه تامة. ومع هذا ظلوا فيه

غرباء أو كالغرباء: لا ناقة لهم فيها ولا جمل. وعاشوا حينا من الدهر على هامش الحياة البحرية الجميلة. وقد ذهبت حصيلتهم في النواحي السياسية وضروب الفنون العسكرية أدراج الرياح، على خلاف ما أحدثه العرب في هذه المنطقة.

وقد اتخذ الأتراك منذ تاريخ استيلائهم على القسطنطينية عام ١٩٥٣، والتي كانت بمثابة ممر تاريخي للمواصلات القارية العالمية حاجز أقاموه بأنفسهم إلى أن تم افتتاح ممر قناة السويس في عام ١٨٦٩، فأصبح هذا الممر الذي يقع في حوض البحر المتوسط الشرق والذي تعاقبت عليه أجيال تبعها أجيال أخرى عديم الجدوى. فأين نبحث في هذا الخضر المتلاطم من الأجناس المختلفة عن « وحدة الجنس اللاتيني »؟

وتبدو الحضارة اللاتينية حقيقة ناصعة لا لبس فيها ولا غموض ؛ ذلك أن التأثيرات التي ساعدت على تكوين معالم شخصيتها أكثر من أن يحصيها العد و إن أبلغ ما أثر في حضارتنا اللاتينية وأشدها دلالة هو التأثير الروماني الكاثوليكي والروماني عامة والإغريقي أيضا عن طريق روما مع إضافة تأثير بعض الشعوب المتسللة من الشرق عن طريق اليونان والغرب. فالمنطقة الجغرافية اللغة اللاتينية هي جزء من منطقة الإمبراطورية الرومانية وليست كلها على الإطلاق : فقد استقر الأتراك في الحوض الإفريقي من البحر المتوسط. وتسللت التأثيرات التركية إلى بلاد الإغريق، والتأثيرات العربية إلى أسبانيا. وقد اتسع نطاق اللغة اللاتينية

فعبرت المحيط حتى سواحل أمريكا اللاتينية حيث توجد الآن اللغتان الأسبانية والبرتغالية، وهما من سلالة ثقافية واحدة هي اللاتينية.. فسريان هذه العدوى من الخارج إلى هذه البلاد الجديدة، قد أتى على اكتمال الجنس الأصلي لهذا البلاد. وقد أثار وجود الرجلين الأسود والهندي أموراً بل مسائل شتى لا علاقة لها بمصدر البحر المتوسط، ونعني به العالم اللاتيني الذي يمثل اللاتينية في شتى مظاهرها.

وللطابع الثقافي اللاتيني سمات مميزة يتميز بها عما عداه حيث يتخذ لنفسه طابعا معينا خاصا أينما وحيثما حل، ولا نعني بذلك الطابع السياسي. وتبدو في المجتمعات اللاتينية الخالصة مشاعر التعاطف والتآخي بأجلي معانيها، و إلى جانبها أجواء من الجاذبية تشع في تلك المجتمعات. و إذا رغبنا أن نرسم خريطة لهذه البلاد العجيبة التي تمثل هذه الأجواء، فإننا سندهش حقا من اتساع رقية هذه الأجواء في العالم

(٢)

إن العوامل التي ساعدت على تكوين سيكولوجية الشعوب اللاتينية كثيرة جدا : منها مناخ البحر المتوسط، والموقع الجغرافي الفذ لهذا البحر، والتراث العظيم لماضيهم الخالد والتأثير الملموس لحضارة روما. وقد لا تستحب الحضارة الأوروبية إلا في ظل الثقافة اللاتينية. وقد نشعر أننا لسنا في أوربا إذا توارت ظلال هذه الثقافة عن البلاد. إن الحضارة الأمريكية هي حضارة غربية دوما لا تميز عن حضارة العالم القديمة إلا

باختفاء تأثير الثقافة اللاتينية فيها.. ولمناخ البحر المتوسط مميزات خاصة : فهو في مجال المقارنة يفترق عن مناخ المحيط الأطلسي الأوروبي ومناخ الصحراء، ويشكل بين هذين منطقة أخرى يجتاحها الصراع، و يسودها الاضطراب وعدم الاستقرار : فتارة يتقلب المناخ الصحراوي الجاف الذي يحرق بأشعته القاسية وشمسه المحرقة أدم الأجساد في غير رفق أو شفقة، وطوراً يتغلب المناخ الأطلسي ذو الشتاء الرطب والليالي التي تتدفق من سماها مياه الأمطار كأفواه القرب. وإذن فهذا الجو هو في حقيقته خليط من التنافر والتناقض بين رياح هوجاء عاتية، وأمطار غزيرة تجر في أذيالها ماسى، وتجلب معها فيضانات تسبب الخراب والدمار، وأحيانا يكون جو هذه المنطقة صحراويا بضيائه ونوره المتلالىء وأحيانا أخرى يكون استوائية بتقلباته المختلفة أو أو قاريا بموجات البرد القارص المباغتة. فهو إذن في مجموعه مناخ إفريقي أكثر منه أوربي. وعندما تهبط من شمال أوربا نجد أنفسنا فجأة في حوض البحر المتوسط. ولا نبالغ حينئذ حينما نقول : إننا تركنا إلى حد ما أوربا.

وينعكس هذا المناخ على مزاج سكان فرنسا بشكل واضح، حيت يكون له تأثير كبير على أمزجتهم وبخاصة الرياح العاتية التي تلعب دورا بارزا في حياتهم عامة، و يتأثر السلوك الفردي لكل منهم بذلك أيما تأثير. فهناك رياح بحرية تنهك القوى، ورياح شمالية تثير الأعصاب، إن مزاج قاطن البحر المتوسط أو في الأصح مزاج الرجل اللاتيني يتأثر بهذا المناخ لا من جهة الرياح المتقلبة فحسب، بل من هذا الضياء الساطع الذي يشع إشراقا ويفيض نورا من شمس جنوبية والذي لا تحجبه الكآبة

الثقيلة للمنطقة الاستوائية.

إن جيل تيليه Jules Tellier الشاعر الهافرى « نسبة إلى ميناء الهافر » بفرنسا قد أعطانا صورة فلسفية رائعة فيما يقرب من صفحة كاملة عن شمس الجنوب التي تصف في دقة واستقصاء كل ما في الجنوب حيت يقول : « إن الشرق يضيء ثم يبزغ الفجر ويعقبه الضحى، ثم يأتي النهار، ولا يخالجنا إحساس أو شعور ما في الجنوب بأي كفاح في الحياة أو أية معركة و بالهدوء التام أثناء الليل.. فكل شيء يمضي دون جلبة، ثم يأتي النهار في اليوم التالي، وينتهي بمجيء الليل، ويبدو أن ليل هذا الجنوب لا يطول كثيرة في هذه الأقطار، وأنه يغيب دون أن يكون له آثار. وعند ظهور الخيوط البيضاء الأولى من الفجر، يبدو الضوء كضرورة «قدرية» الناس، ويجب أن يختفي التحدث عن الإحساس بالقلق والاضطراب في شعر سكان الجنوب، وهو يختفي عندهم، فأشعارهم تختلف عن أشعار أهل الشمال، ذلك أن شعرهم يوصف « بالشعر المتحفظ » وهو شعر كلاسيكي يختلف عن الشعر الرومانتيكي لأهل الشمال ؛ لكن من الواضح أن الرياح المتقلبة والضوء الأخاذ لها تأثير لا يعتريه الشك على مزاج سكان الجنوب. وكما ذكرنا أن الليل لا يطول في هذه الأقطار، فإن من اكتمال الحديث أن نقول : إن النوم لا يباغتهم أيضا في وقت مبكر، كما يباغت أهل الشمال، لذلك فإن مقدرتهم على النشاط غير ثابتة »

إن جغرافية البحر المتوسط الذي تكونت فيه الروح اللاتينية، تميل

عامة إلى الفردية وتحدد الروح الاجتماعية بروح القبيلة أو العشيرة ونقصد بهذه الجغرافية : جغرافية الأراضي المقسمة حسب حدودها الطبيعية فهي عبارة عن سهول منعزلة عن بعضها البعض، ومحدودة محاطة بجبال قريبة منها ؛ وهي جغرافية السواحل المتشابكة التي تساعد على إقامة مواصلات بحرية وتجارة محلية. وهي جغرافية القراصنة الذين يغتصبون مباني المدن الصغرى المحصنة في سبيل الدفاع عن المباني القديمة المستقرة الباقية. وهي جغرافية الجفاف والفيضانات الغزيرة التي تجعل إيجاد سياسة لدى الأراضي أمر ضرورية، وتفرض رغم كل شيء التعاون ولو كان في أصغر صورة. من هذه الملامح الأصيلة لجغرافية هذه المنطقة، نجد أن الحضارة اللاتينية رغم بعد الشقة التي تفصل بيننا وبينها اليوم ملموسة لدينا دوما. وقد كتب لي ذات يوم فرناند موريت Fernand Maurette هذا الجغرافي العظيم الذي قضى نحبه وهو أوفر ما يكون شبابا في خطاب لي أعتز به وأحتفظ به حتى اليوم، فقال لي فما كتب : « إن اقتصاد بلاد البحر المتوسط هو عبارة عن بنيان مقسم الأجزاء الإقليم يصل فيه الجبل حتى البحر الذي يصنع كثيرة من الأجزاء المنفصلة التي يوجد فيها سهول صغيرة غارقة في الجبل. إنه إقليم تعتبر فيه سياسة المياه ضرورية وملحة، طالما أن الأرض قد تتحول إلى مستنقع إن لم توضع وسائل تصريف المياه منها موضع التنفيذ، وإلى صحراء إن لمترو بالمياه. إنها بلاد أساس حياة الفرد فيها البستان وليس الحقل.. بلاد تفرض فيها تضاريس الأرض على الناس العمل الذي يقتضي الصبر والدأب.. بلاد يعتبر البحر فيها الطريق السهل المعبد للتجارة بدلا من

أن يكون عقبة في سبيل التبادل التجاري. وكان وضع البحر في هذه البلاد وسيلة اتصال لكثرة موانيه وجزره (١٩ يناير ١٩٢٩). إن مجتمع هذه المنطقة الذي تسود فيه الفردية والمحلية والتنوع هو في الحق مجتمع يتعارض مع حضارات مجتمعات يسود فيها مبدأ « التسلسل والجماعة »

إن حضارة البحر الأبيض المتوسط عريقة جدا ومتوغلة في القدم ؛ في العصر الحجري كانت توجد شعوب في منطقته، اكتملت لها دواعي التقدم مقارنها بمنطقة أوربا الشمالية التي كان من أسباب تأخر تطورها بقاء الثلوج فيها مدة طويلة. فعلى ضفاف شواطئ البحر المتوسط وفرنسا الجنوبية عاشت الحضارة قرونا أكثر مما عاشته شواطئ الشمال. إن كنيسة Beziers. وأطلال انسيرن Enserune وسانت أمبرواز Saint - Ambroise في ميلانو تشهد على هذا المجد والتراث العظيم الحافل. ولا تملك بعد هذا إلا أن نستنتج أن سكان البحر المتوسط أي اللاتينيين يسيطرون حقا على المفاهيم التاريخية للعصور التي انقضت، وهم على اتصال دائم في بحوثهم مع أقدم عصور التاريخ، ولم يكن تاريخ روما واليونان والشرق غريبا عليهم، ذلك أن اللاتينيين لم يكونوا شعوبة مستحدثة بل تامة النضج، وهم ليسوا شعبة طائشا كالشعب الإنجليزي. و إذن فسيكولوجية الشعوب اللاتينية هي سيكولوجية مكتملة أو بالأحرى سيكولوجية الشاب الذي بلغ سن الرشد، وهي بالطبع مشرقة الجنبات وضاءة محكم السن؛ فهم قوم يؤمنون بمذهب الشك، لا يأخذون الكلام على علاته وليسوا شعبا ساذجة. إن صفاء قريحتهم

وانبلاج تفكيرهم ليخول اللهم دون جهد أن يفرقوا بين المبادئ وطرق تطبيقها. وهذا الفصل بين المبادئ وتطبيقها يباعد بينهم وبين النفاق والمداهنة والرياء، ناهيك بعدم المبالاة، وهم ألا يعتقدون أن الإنسان خير بطبعه، كما اعتقد «روسو» وتلاميذه، فهم لا يثقون فيه، و بالرغم من أن للكلمة في حد ذاتها سحرا وريقا يستهوي رجل البحر المتوسط، فإنهم لا يسرفون في كلام لا طائل تحته ؛ ويتفوق الذكاء لديهم على العمل، إنه ذكاء يتحدث وحده عن نفسه، ويصور حقيقته في سهولة ويسر، وقد طبعتهم روما بطابعها الخاص.. فاللاتينيون مدينون لها من حيث التكوين الاجتماعي الذي يقوم على الأسرة والقبيلة، وحماية رب العمل لعملائه ؛ فهي تشكيلات أكثر قوة ومتانة ودواما من الحكومة ذاتها. وهم مدينون لها كذلك بمفهوم معين للقانون، وهو قانون مكتوب على شكل زوايا بارزة كا لقطاع الجانبي من جبالهم المتعرية. وهذا القانون يقوم على التحرز والواقعية المجردة دون ادعاء من ناحية الأوهام المتعلقة بالطبيعة الإنسانية. وهنا نلمس الفارق البين بين القانونين الانجليزي واللاتيني. فالثقة هي جوهر القانون الإنجليزي، وهو يعبر بذلك عن مفهوم العدالة، وأساس كل شيء في القانون اللاتيني هو الملكية التي عرفت تعريفا اتصف بالدقة المتناهية، وعلى عقد محرر لم يدع شاردة ولا واردة. وقد عبر عن ذلك الكاتب السياسي الفرنسي فالديك روسوWaldeeh - Rousseau حيث قال : « نحن أيها السادة، أمة قديمة لها تاريخ طويل، واتصالنا بالماضي يرجع إلى أصول بعيدة، و إذا تطرق إلى اعتقادنا هذا الذبول والجفاف، فإنها رغم ذلك ما

تزال محتفظة بقوتها لدرجة أن أية إثارة لها توقظها من مرقدها، وأنها على اتصال دائم بجهازنا الاجتماعي. نحن أمة يسود فيها حكم القانون. نحن شعب لاتينى. نحن من هذا الجنس الذي بدا له أن القانون المكتوب ضرورة من ضرورات حياته، لا يجنح إلى التعميم فيما يعرض له من أمور، بل يميل إلى الوضوح التام والحرص على حقوق هذا الشعب »

(من خطاب ألقي في مجلس الشيوخ الفرنسي في ٢٧ من يوليو عام ١٩٠٣)

هذا هو أصل كل مفهوم خاص للدولة وللسلطة السياسية على وجه العموم. فعند اللاتينيين تعتبر سلطة الدولة خارجة عن سلطة الفرد وأعلى من سلطته، أو كأنها سلطة عظيمة الخطر، إذا صح هذا التعبير – ويمكن الاستيلاء على هذه السلطة واستحداث أداة للتسلط والسيطرة، وبذلك تكون بمثابة السلاح. وواجب الفرد حماية نفسه من هذه السلطة، لأن الدولة لا تبدو في نظر الفرد رحيمة به بالضرورة. فالتجربة الطويلة التي مرت بالإنسان في حياته جعلته يرتاب كثيرة تجاه سلطة الدولة ذاتها، حتى إنه لا يدهش ولا يسخط على نفسه إذا ما أسيء استخدام السلطة، و إذا ما استعملها الحاكم لنفسه ولأصدقائه. ومن هنا كان سر العاطفة الخماسية التي يتسلح بها اللاتينيون في معاركهم السياسية. وما أعظم الفرق بين هذا المفهوم الأنجلو – ساكسوني للدولة، فتعتبر الدولة لدى الأنجلو – ساكسونيين تعبير عن الجماعة، والدولة لديهم أداة المواطن وخادمته. إن الديانة. المسيحية الرومانية لم تكن كمدرسة تلقن حب

الوطن، كما كانت الكنائس ذات الطابع البروتستانتي التي تنتسب إلى مذهب كلفن Calvin أحد مؤسسي المذهب البروتستانتي في القرون الوسطى.

ومما يسترعي نظرنا ويثير انتباهنا في مفاهيم الشعب اللاتيني وقيمه، صفاء أفكاره. ويتميز اللاتيني بقدرة على التحليل وطاقة خلاقة تجل عن الوصف، كما يتميز في نفس الوقت بخاصية التعميم : ففي كل مشكلة يستخلص توا المبدأ المتضمن فيها، والنتائج المنطقية البعيدة الاحتمال الوجهة التي سيختارها الإنسان وهو يتميز كذلك بمناقشة المبادئ أكثر من مناقشته الحقائق. وهو يحب السياسة على الإطلاق. أما فيما يختص بالمصالح المادية، فيثق في الانتهازية الرخيصة. وبالخروج من المارق بطريقة ماهرة.

ولا تنفصل موهبة التحليل هذه محال عن القدرة الخارقة على التعبير» فاللغات اللاتينية ذات التخطيط الواضح والتكوين المنظم تمنحنا الأهمية الكبرى لهاتين الصفتين، وتبدو كأنها خلقت كي تنقش على الحجر. على أننا نجد في ضعف بعض هذه اللغات الرغبة الجامحة الأكيدة في استخدامها، لأنها لا تخلو من جاذبية ولا تعدم مقاييس الجمال. ومن هذه اللغات مثلا الاسبانية التي تتميز بجمال الجرس، لدرجة تغرى المرء بالتحدث بها واستخدامها في أساليب التعبير. وهذا الجرس قد يحل عند الاقتضاء محل الفعل والحركة. فإذا تغني رجل من أمريكا الشمالية بأنشودة عن حرية المبادئ والأفكار، فإنه يشعر فعلا أنه

قد أضحى حقيقة رجلا حر المبادئ، طليق الأفكار، و إذا ما تغنى كذلك بأنشودة عن شرعية القانون، فإنه يشعر بقوة دافعة تحفزه للدفاع عن القانون وحمايته. إن تذوق الرجل الفرنسي للموسيقي يقل كثيرا عن تذوق أهل أمريكا الجنوبية، فهم قوم ذواقون لها، يطربون لسماعها. ومع ذلك، فقد حاول الشاعر الفرنسي الكبير « فيكتور هوجو » Victor Hugo أن يضفي على أشعاره جرس اللغة الاسبانية، فباءت محاولاته بالفشل، ومن يطالع الكثير من أشعاره يرى مدى صحة هذه القضية.

وعلى ضوء هذه الملاحظات التي سبقت، نستطيع أن تحدد الملامح السيكولوجية للشعوب اللاتينية.

فالشعب اللاتيني كفرد ذى ضمير يستمسك دائما وقبل كل شيء بإثبات وجوده، و يتصف الفرد في انجلترا بالتواضع، غير أنه يفاخر ببلاده بكل ما أوتي من قوة، ويضرب الأمثلة الرائعة على البذل والتضحية والفداء وحب الوطن عن طريق الوراثة والغريزة. إن اللاتيني ينظر إلى الأمور من وجهته الشخصية، فهو عموما يتميز بالكبرياء والأنفة والزهو، وهو يحب الظهور، ويهتم بذلك، وقد يضحي في سبيل نجاحه الشخصي – غير متورع – بنجاح الجماعة. والواقع أن كلا من الجنسين اللاتيني والأنجلو ساكسوني أناني على طريقته الخاصة، لكن الرجل الثاني يعبد التفكير العملي، أما اللاتيني الذي يدين بالشك، فيملك – على كل حال – الإحساس بالواقعية. إن العمل في صورته الحديثة هو التنظيم، ويتفق تماما مع إمكانيات الأنجلو – ساكسولي. ومع ذلك ففي بعض الظروف

التي لم يعد للنظام شأن فيها، وخاصة في الأزمات، نجد اللاتيني يعرف جيدا كيف يتغلب على هذه الأزمات ؛ فهو قوى الأعصاب وعاطفي إلى حد ما. وهذا الخلوق الذكي يكشف عن أنه يجيد التخلص من المأزق والأزمات. ويجب ألا تخدعنا بلاغته وغزارة مظاهره الكلامية، وهي في الواقع لا تخدعه ذاته إلا في الحدود التي يحلو لنفسه فيها أن يخدع.

ويجب أن نقرر أن هذه الخصال التي يتصف بها الفرد، لا تخدم المجموع بحال. والشعوب اللاتينية لم ترتفع بنفسها إلا إلى صور بدائية ومحدودة من صور الاجتماع، ولكنها كانت تتشيع له عن عاطفة و إخلاص تامين. فهي لم تغرها المدنية، بل كانت تفضل دائما الحياة في مجتمع القبيلة. ويبدو أن العائلة في حد ذاتها على حل التعبير الذي أطلقه الكاتب الفرنسي هنرى باربوس Henri Barbusse كأنها «مؤامرة صغرى». وأنا في غاية الدهشة إلى أن أقرر : إلى أي حد يثير هذا الاصطلاح لكلمة العائلة آراء مختلفة لدى الأنجلو ساكسوني البروتستانتي، وعند اللاتيني الكاثوليكى. فعند سكان البحر المتوسط، وفي الحضارات التي نشأت وكان إشعاعها صادرة عنهم، يفهم هذا الاصطلاح – تبعا لما يمليه على تداعى المعانى – بأنه رهط من الناس متضامنون فيما بينهم من أجل مصالحهم. وقد نشأ ذلك الرهط من الروابط العائلية، ونحن جميعا يشدنا إلى بعضنا البعض رباط الدم،. ذلك العامل الخفي العميق التأثير، وهو الذي يؤلف بين الناس و يقارب بينهم بعضهم البعض. ومن هذا المعنى تشتق فكرة عفة المرأة التي يدافع عنها اللاتيني بغيرة الرجل الشرقي. إن العائلة والقبائل والمدن والجمعيات

والنقابات والأقارب هي الحقيقة الواقعية لجميع الناس الذين شكلوا حياتهم في صورة هذا المجتمع. فالدولة التي نتصورها على أنها سلطة جليلة الشأن، مازال بيننا وبينها آماد بعيدة. ويجب والحالة هذه أن نكون على علاقة طيبة مع هؤلاء الذين بلغوها، وعرفوا طريقة استخدامها. وفي هذه الظروف تصبح البراعة السياسية بمعنى المكيافيلية مشاعة بين الناس. لكن لن يكون هناك حب للوطن إلى حد ما بمعنى « الخدمة الوطنية » على الطريقة الأمريكية. فالضعف الملموس الذي لوحظ على المجتمعات اللاتينية هو أنها لم تنجح في إرساء قواعد لنظم سياسية قوية لها صفة البقاء. إنها تنتقل من الفوضى إلى الاستبداد دون أن تبحث عن الحالة الوسطى » التي بلغها – في غير مشقة – السويسريون والإنجليز والهولنديون، وهم الذين ليس لهم من اللاتينية شيء.

إن نظرة فاحصة إلى ميدان الإنتاج عند الشعب اللاتيني تبين أنه يأخذ طابع صفات مجتمعاته المحدودة كما ذكرنا، بالإضافة إلى نفس مواهب أفراده ؛ فهو شعب نابغ واسع الحياة، سريع التخلص من المآزق. وحين يحب عمله يكون قادرة على التفاني فيه، والإخلاص الدائب له حتى أنه يستطيع أن يهبه نفسه و يقدسه إلى درجة العبادة، وله من عزة نفسه ما يجعله يتفوق دائما، ويقف على كل أمر يتعلق به، ولا يدع نفسه كمية مهملة، بل يصر على إثبات وجوده في أي موقف. ففي هذا الميدان، يعتبر اللاتيني متفوقا بشكل ملحوظ على قرينه الانجلو – ساكسوني، وعلى أهل الشمال. وهو كتاجر، يتصف بالفطنة والمهارة والتبصر. واللاتيني اقتصادى بطبعه، وهو يضرب بسهم وافر في

المشروعات الصغيرة، كما أن لديه القدرة على إنجاح المشروعات الكبرى. فهو في كل مكان، وفي جميع مراحل عمله يتصف بالمرونة والدبلوماسية و يمارس الدسيسة، كما يتمتع بقوة الحجة وصدق الإقناع، والقدرة على سوق البرهان على ما يحكم عليه من قضايا. وفي البلاد اللاتينية تقيم « إدارة الأعمال » للناس وزن كما تقيم للأشياء سواء بسواء. والمبدأ في ذلك هو « قبل أن تكسب عميلا، يجب أن تكسبه كصديق أولا » وقد يكون في هذا المبدأ بعض الجوانب الإنسانية التي تخل بنظام الإدارة، لكنه مبدأ يعيش ولا يموت، ويحيا ولا يفي.. يدر الربح ولا يجلب الخسران.

وقد تكون هذه الصفات بعض عيوب الإنتاج الصناعي الكبير فقد كان البحر المتوسط مركز اقتصاد العالم. ولقد ضاع هذا المركز منذ اكتشاف المحيطات والقارات عبر المحيطات أي منذ الثورة الصناعية الجديدة، التي لم تعد قائمة على العبقرية الفردية للمنتج. بل على التنظيم الميكانيكي لأي عصر في طريقه، إلى أن يصبح عصراً جماعياً. وإذن فسوف نرى أن الشعوب اللاتينية منفردة، تنجح في المجتمعات الأنجلو – ساكسونية. وقد تنجح أحيانا في هذه المجتمعات أكثر من الأنجلو ساكسونيين أنفسهم، بيد أنهم لم يحددوا اقتصاديات العالم؛ وإن كان يوجد في فرديهم ما يقف حجر عثرة في سبيل الإنجازات الضخمة في عصرنا هذا؛ و إذا لم يتوفر شيء من الأناقة والذوق في إنجازاتنا الطيبة كما يقول الكاتب الفرنسي باريس Barres فإن هذه المشروعات العملاقة ستكون متسمة بالتضحية الجماعية مع الفردية اللاتينية.. فهل

معنى ذلك، أن نسقط من حسابنا دو ر الفرد في الإنتاج ؟ قد يكون ذلك عندما نقصد الحديث عن الحكم في الإنتاج، لا الكيف. وعندما نتصدى الحديث عن الكيف نحتاج إلى الفرد، ومهما تكن الإنجازات الثقافية للشعب الأنجلو – ساكسوني، شعب الشمال، فإن أوروبا، لن يعرف لها ثقافة أصيلة دون رصيد من الثقافة اللاتينية. فاللغة اللاتينية التي حافظت في القارة القديمة على تراث الأدب الكلاسيكي الذي ثبتت دعائم شخصيته المتسمة بالحيوية الدافقة على مر العصور على الأدب الأمريكي المعاصر والأدب الروسي.

فالأدب اللاتيني، أدب متنقل غير أن دعائمه لا تتغير، وهي ترتكز على الحكمة والحذر في الحياة الخاصة، وها لا يتوفران لدى أهل الشمال. والأدب اللاتيني لا يتحدث كثيرة عن الأخلاقية، بل إن خلوه من إشراق الفكرة يمتد أثره إلى شخصية اللاتيني نفسه، وعلى الأقل إلى ضمير هذا الشامخ بأنفه. وبناء على ما قدرت، قد لا أكون مجافيا للصواب إن اعتقدت أن الصراحة الفكرية هي طابعه الفكري العام، على عكس أدب هؤلاء المخادعين من أهل الشمال الذين لا تؤهلهم الشجاعة التي افتقدوها للوصول إلى أعماق نفوسهم. و إذن، فالأدب اللاتيني يعكس إحدى الوجهات الدائمة للروح الإنسانية.

هناك إذن حضارة لاتينية بجوها الخاص بها، وقد يكون من العسير أن تحلل عناصر هذا الجو، ولكننا نستطيع التعرف عليها بشيء لا يمكن تحديده، نستطيع التعرف عليها في هذا العطر الذي يفوح أريجه منها، أو

في هذا الضوء الذي يشع منها، فإذا وصلنا إلى حدودها لمسناها لأول وهلة، و إذا هبطنا من أوروبا الوسطى إلى أقاليم البحر المتوسط أو من أمريكا الشمالية إلى أمريكا اللاتينية، فإننا نطبع بنفس الانطباع، حيث نجد في كليهما أسلوباً خاصاً من الحياة ولونا خاصا من الحكومة وطابعاً خاصاً من الأخلاق والدين والروح الفنية، في صورة من حرية فكرية يصعب تحديدها.

ولننظر إلى المنطقة التي رسمنا حدودها اللاتينية آنفا، وسنرى أن اللاتينية أشبه ما تكون حالة المد والجزر ؛ فأحيانا تنبسط مساحتها وأحيانا أخرى تنحسر عن بعض الأراضي التي غزتها. فمنطقتها القصوى هي بالتقريب منطقة الإمبراطورية الرومانية، وتشمل في خارج أوروبا : أمريكا الأسبانية والبرتغالية. ولكنها اليوم أبعد ما تكون عن أن تشمل هذه الإمبراطورية ذلك أن المناطق الشمالية المتطرفة من الإمبراطورية الرومانية قد غزتها عناصر جرمانية وسلافية أو منغولية، وهي عناصر لم تنعكس عليها آثار البحر المتوسط الحضارية، وقد تمخضت عن ذلك قارة أوربية لم تعد مراكز ثقلها ومراكز فاعليتها نابعة من اللاتينية. « فرومانيا » الأمس، أي البلاد الرومانية، لم تكن من ناحية العنصر والحضارة رومانية إلا تجاوزا. وفرنسا التي تنتسب من ناحية العنصر إلى شعوب الكلت والجرمانيين أكثر من انتسابها إلى شعب البحر المتوسط، ليست بالمعنى الصحيح لاتينية العنصر إلا في جزئها الجنوبي ؛ ولو أن نظام التعليم الكلاسيكي في فرنسا قد جعل منا لاتينيين في سلوكنا وفي طريقة التفكير. وقد انطبعت أمريكا الأسبانية بهذا الطابع، وكذلك أمريكا البرتغالية الدرجة أن

نفوذ أمريكا الشمالية لم يفلح حتى الآن في طمس معالمه. لقد ظهر طمس المعالم بالأحرى في الداخل حيث الجو الجبلي جبال الأنديز وحيث النمو الاستوائى ؛ ففي تلك المناطق ظهرت خصائص هندية أو زنجية تهدد بتشويه الأثر اللاتيني في هذا الجزء من العالم.

وقد رأينا بضعة « سفوح » أو أوجه؛ فالوجه اللاتيني لأوروبا هو : وجه الإمبراطورية الرومانية التي لا نستطيع أن تحددها تحديدا كافيا على الخريطة عندما نتصدى لمناقشة مشكلات القارة القديمة، ووضع الحلول لهذه المشكلات، لأن ردود الفعل لتلك المشكلات، لم تكن هي بعينها ردود الفعل في كل الأجزاء التي سادها النظام الروماني والقانون الروماني والملكية الرومانية. و يجب علينا في هذا المقام أن نتأمل خريطة تقدم المسيحية لا في عهد الإمبراطورية فحسب، بل في العهد الكاثوليكي الروماني أيضا. ففي هذين العهدين تغلغت الروح اللاتينية، ورسخت أقدامها في التراث البربري لهذه القارة. فليس من شك أن هناك فرق بين ذاك البلد الذي بقي مسيحيا ثمانية عشر قرنا، وذلك البلد الآخر الذي لم يعرف المسيحية إلا من خمسة قرون ؛ وعلى هذا لا يعتبر « السفح» السلافي – و إلى حد ما السفح الجرماني – لا يعتبران إلا نصف أوربيين. فهناك عالم مختلف تمام الاختلاف منتجه وجهة أخرى، و يبدأ من المنطقة الثلجية في شمال ألمانيا حتى غاية « تيتو برج » التي فقد فيها القائد الرومانى Varus طوابير جنده.

وفي أمريكا – مع الفارق – سفوح مشابهة : منها الأنجلو – ساكسونى واللاتيني (أو الهندى). والوحدة الجغرافية للعالم الجديد لا تقوى على إخفاء تنوع الثقافة التي ما زالت قائمة بها، والتي لن تقوى القرون على محو آثارها.. وقد أتي وقت تنازع فيه أهل البحر المتوسط وأهل الشمال سلطان العالم

ويبدو أن المنافسة أشد اليوم بين الشرق والغرب منها بين الشمال والجنوب لأن الغرب قد اكتسب في نظرنا شخصية خاصة به، وكان إسهام اللاتينية فيه عظيما. نعم لم تكن أوروبا اللاتينية هي التي صنعت الثورة الصناعية، وقد حاولنا أن نستقصي تعليل ذلك، بيد أن هذا لا يحملنا تبعا لهذه الحقيقة – على إنكار الدور الجوهري الذي لعبته أوربا اللاتينية في تقدم الإنسانية. فالنظرة اللاتينية في الاهتمام بالمشاكل وتقديرها ووزنها وفي مفهوم الحياة ذاته، نشكل وجها لا يستغني عنه في حضارتنا، فإننا نحقق هذه النظرة أرقى ثقافة وأكثرها نزاهة في صورة يغلب عليها الأدب أكثر مما يغلب عليها العلم.. وسنرى فيها بعد الديناميكية التي لا تقاوم لدى الأنجلو ساكسون. أما عن اللاتين فإن لهم نظاما عجيبا يفصل – عن وعي – العمل عن الفكر و يتيح للفكر – دون وسيط – الوجود أمام الواقع ذاته : وذلك هو الضمان الأكيد للحرية الفكرية – الكاملة، و إذا انتزعت اللاتينية من العالم فإننا نعتقد أنه يفقد هذه المقدرة النفيسة..

الفصل الثالث

البراعة عن الشعب الفرنسي

(١)

لكي نقف على حقيقة الظروف التي تفسر لنا ما هية النفس الفرنسية، يجب أن نبدأ بتحديد موقع فرنسا الجغرافي. فلفرنسا ثلاثة سفوح أو أوجه، وتبعا الحقيقة هذه السفوح الثلاثة، تعد فرنسا غربية وأوربية « ومتوسطية » (نسبة إلى حوض البحر الأبيض في وقت معا. فمن ناحية جبهتها الأطلسية تطل فرنسا على العالم الخارجي بنافذة مفتوحة على المحيط الأطلسي، و بذلك تتعرض لإغراءات خارجة عن القارة، لإغراء المغامرات البعيدة. وتنتمي فرنسا البحرية الاستعمارية التوسعية إلى مجموعة الدول الحرة ذات الحضارات « الأنجلو أمريكانية » وتبدو في هذه الغربية «غريبة» حقا. فرياح الغرب الدائمة التي تهب على شواطئها تحمل إليها من الحيط شيئا غير العذوبة الرطبة النقية وعلى العكس، نظرا لأنها «قارية» تجدها ترتبط بأوروبا برباط الدم الذي لا ينفصل. وهي تختلف في هذا كل الاختلاف عن انجلترا الجزرية.. غير أن الحزام الشرقي للبلد كله أي ذلك الجزء الذي آل عن طريق تقسيم شارلمان إلى لوثر إنما هو من أوروبا الوسطى في كثير من سماته الجغرافية والأخلاقية التي لا تغيب عن عين الناظر. وفي إطار هذه

النظرة، لم نعد أطلسيين بل بريين، وأوروبيين بخاصة. وكل التاريخ القديم والحديث يؤدي إلى هذه النتيجة ؛ وهي أنه لا يوجد ما يسمى بفرنسا دون أن توجد أوروبا، ولا يمكن أن تكون فرنسا دون أوروبا. ففرنسا جزء لا غنى عنه في أي نظام غربي.

وعن طريق جبهتها « المتوسطية » تتصل فرنسا اتصالا مباشرة بأفريقيا وآسيا والشرق الأقصى، أعني في المكان : مع عالم خارجي عظيم، وفي الزمان : مع أمجد ماض للإنسانية. ونحن نعرف الوحدة الأساسية لحوض البحر المتوسط، حيث تتشابه في كل مكان من مرسيليا إلى بيروت، ومن أزمير إلى برشلونة، وعلى ذلك فنحن على صلات وثيقة بمجتمعات لم تعد معاصرة لنا، وبأنماط من الثقافة تعدها أوروبا الشمالية غريبة عليها ولكننا نرتبط بها بجاذبية خفية. وعلى حين نجد فلاحا بعيدا كل البعد عن القائم بالزراعة الميكانيكية في العالم الجديد، فإننا نستطيع أن نعثر فيه على بعض التشابه مع « الفلاح الصيني ». فالحقول و « المصاطب » الزراعية في الريفييرا تعكس عمل أجيال من الفلاحين – تتصف بطول الصبر والأناة، وهذه المدرجات الصناعية من الأراضي الزراعية تذكر بالإنسانية الخالدة التي لا تنال منها تقلبات الزمن.

وتأتي الخصيصة الوحيدة للسيكولوجية الفرنسية من هذا التنوع الذي صورته القرون : خلقت منه وحدة جديدة، ويقصد بهذا التنوع مجموعة متناقضة، تتجه في وقت معا إلى الشرق و إلى الغرب، و إلى الماضي وإلى المستقبل، و إلى التقليد وإلى. التقدم، فليس ثمة بلد أشد

منه جرأة في آرائه وأكثر روتينية (تحفظا) في عاداته. ووفقا لوجهة النظر، تجد في فرنسا دائما شيئا يستحق النقد، ولكن فيها أيضا دائما شيء يستحق الإعجاب.

وليس أيسر من ذلك أن تحدد جغرافيتنا العنصرية، فلا يوجد ما يسمى « بالجنس » الفرنسي بحيث إن هذا التعبير لا يعني شيئا عند استخدامه. والواقع، أنه يوجد في الشمال، « جرمانيون ». وفي الهضبة الوسطى وفي الغرب «كاتيون » وفي الجنوب « متوسطيون » أو إذا أردنا ألبيون فنحن كما يقول «سيجنوبوس » Siegnobos من جنس مختلط، ولكننا نعرف جيدا أن أية نخبة مختارة لا تمتزج بالغير يقف ذكاؤها، وأن أي اختلاط بين الأجناس يعطى نتائج لا بأس بها. ويبدو أن الشعب الفرنسي قد أثرى بهذا اللقاح المتنوع ؛ فنحن مدينون للاتينيين بصفاء الذهن وموهبة التعبير، وللكاتبين روحنا الفنية،.و بفرديتنا التي تندفع أحيانا فتصل إلى درجة الفوضى، وللجرمانيين – ما فينا من عبقرية تنظيمية بناءة.

غير أن كل هذه الصفات المتباينة، قد انصهرت في وحدة واحدة، وتحولت جميعا إلى صفة عامة واحدة، لم تتح لشعوب أخرى كالشعب الألماني مثلا. فالوحدة الوطنية التي توصلنا إليها لم تقم على أساس الجنس، وقد تكون الأصول الجنسية متميزة بعضها عن بعض ولكن على نقيض الشعبين الانجليزي والألماني لم يد جنس على جنس؛ جميع الفرنسيين سواء انتسبوا إلى الجنس الجرمانى أو الكلى أو اللاتيني

يعتبرون أنفسهم فرنسيين على قدم المساواة دون فارق. نتج عن الجنس أو الدم الذي يجري في عروقهم. وهل أستطيع أن أقول نفس الشيء عن الأنجلو – ساكسوني البريطاني بالنسبة للكلتي أو عن الأمريكي بالنسبة للنيويوركي الأسمر، وذلك إذا أغفلت ذكر احتقار النازي بالأمس للسلافي ؟

ولقد نتجت الوحدة الوطنية الفرنسية في الأكثر من التكيف القديم مع الأرض والمناخ ومن تقاليد تاريخية، أو حدث نوع معين من الثقافة ودعمته. إنها وحدة اجتماعية أكثر منها سياسية وتتجلى قوة الأمة في الأسرة وفي الفرد خاصة إلا في الدولة. وحب الوطن في فرنسا عادي، أما الملاط (الأسمنت الإجماع فله قوة الصخر.

ولما كان الفرد في بلدنا أساس الدولة، فلا يفوتنا أن نذكر أن أزمة «الفردية» في فرنسا التي نشهدها تبدو في منتهى الخطورة فتكويننا – على عكس كثير من البلدان الأخرى –– قدم و يعتبر منتهية في نواح كثيرة، منذ أمد طويل. فعلى حين أن ألمانيا لم يتم تكوينها إلا منذ عام ١٨٧٠، وأمريكا منذ حرب الانفصال، وروسيا منذ الثورة البلشفية (على افتراض أن هناك نظما نهائية)، فإن الشخصية الفرنسية قد تم اكتمالها منذ القرن الثامن عشر، واسنا متأكدين أن الثغرات التي حدثت فيما بعد قد حسنتنا. إن حضارتنا بمقارنتها بالحضارات الأخرى لتعتبر حضارة في سن الاكتمال.

وإن الأزمة التي نعانيها – ونحن على وعي بها – قد نتجت، منذ

أن بلغنا قرنين من مرحلة النضج الفكري، غن حدثين عالميين لهما أهمية ضخمة : فقد غيرت الثورة الميكانيكية وطرائق الإنتاج كل ظروف الحياة المادية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قلب تطور العالم خارج أوروبا، مقاييس العظمة ومعاييرها، وكذلك التناسب بين البلاد، ونقل مركز الثقل في العالم. وروح النظام الجديد التي تسري في العالم كله تخضع للإنتاج الضخم الذي أحل الكم محل الكيف، وتخضع لعمل الجماعي الذي حل محل العمل الفردي. فكل الظروف إذن تسير ضد تقاليدنا التي هي تقاليد ريفية وحرفية وفردية جدا و يجب علينا أن نكيف أنفسنا تبعا للظروف المستحدثة، ونحن نعرف ضرورة ذلك ولكننا نعرف أيضا أن خير صفاتنا لا تخدمنا في هذا التكيف دائما على حين أن نقائصنا تبدو فيه واضحة جداً :

(٢)

تكشف الروح الفرنسية عن اتجاهين متضادين : فالأول نجد أصوله في شخصية سانشو Sancho والثاني في شخصية «دون كيشوت» Don quichotte فهناك أولا اتجاه عامي يظهر بخاصة في مزاج الفلاح الفرنسي وسلوكه التقليدي، ويرجع الأصل في هذا المجال إلى الكلتيين، لأن الكلتى سواء في ذلك الرحالة أو الشاعر أو الخيالي، يرتبط ارتبطا شديدة بأسرته وأرضه و بكل ما يشده إلى بيئته، هذا هو ما يميزنا عن الأنجلو – ساكسون والشماليين خاصة. بيد أن تلك الخصال تنمو – على أشدها – في حياتنا الخاصة، أما في الحياة العامة فقد تقابل رجلا

آخر ذا خصال أخرى. ومن هذه الناحية نجد أن الفرنسي كرب عائلة وكعضو في هذه الأسرة أو كفرد، نجده يحرص على المصلحة المادية.. فضلا عن أنه ذو عاطفة قوية مشبوبة تجاه الملكية الفردية. وهو في الأعمال الخاصة إنسان حسن التصرف يتمتع إلى درجة كبيرة بروح القصد والاعتدال، ويكاد أن يؤخذ عليه عدم التطلع إلى أعلى والرضا بالقليل، فالمثل يقول له: «عصفور في اليد خير من اثنين على الشجرة» وهو يؤمن بهذا.. وبالاختصار ترى الفرنسي في حياته اليومية واقعيا، ولا ينخدع بالكلمات. وأعمال الفرنسيين تدار عادة إدارة حسنة، أو على الأقل حين تدهمهم الحروب والكوارث ؛ فنرى أثاث منازلهم مصونا وملابسهم في حالة جيدة لفرط العناية بها، وهم لا يحبون الاستدانة، وميزانيتهم دائما في حالة توازن، و إذا كان انخفاض النقد يجعل هذه الإدارة الحكيمة مستحيلة، فإنهم يحنون إلى الماضي ويأسون على الزمن الذي كانوا يستطيعون فيه – ولو ببعض التضحية – أن يرتبوا معاشهم وفقا لقواعد الحكمة المالية التي ورثوها عن آبائهم. وهذه الحكمة وروح الادخار اللتان تدهشان الأجنبي قد تحولان إلى ضيق في الأفق وإقليمية، بل – إلى حد ما – إلى مادية. ففي بلد قديم بلدنا حيث يصعب كسب المال، من الطبيعي أن يتمسك الإنسان بالمال و يحميه، والأمريكي أكثر بذلا وكرما من الفرنسي ؛ فهو إذا فقد ثروته فانه يؤمن بإمكان تعويضها. أما نحن فلا نستطيع أن يكون لنا هذا الوهم.

وليس هذا سوى وجه من أوجه طبعنا، وهو يناقض اتجاها واضحا أيضا نحو الجماعية والمالية والتجرد عن الغرض. فالفرنسي إذا ما اطمأن

على مصالحه ثم حدد مطامحه تراه يحرر عقله بنوع من الفصل بين الفعل والفكر. وعند ذاك يسمو إلى التجرد الفكري بعملية انفصال لا أرى لها مثيلا لدى أحد سوى الصيني. فترانا وقد تخطينا مرحلة القومية الهايتية أو العنصرية لنسمو إلى فكرة إنسانية بمعنى الكلمة وبهذا كانت قدرتنا على الإشعاع وقدرتنا على تحرير العقول وفتح النوافذ، قدرة لا تبارى. وهذه الخصيصة كما رأينا قد ورثناها عن اللاتينيين عن طريق الكلاسيكية التي هي أساس تعليمنا، والتي توجهنا دائما نحو غريزتنا القومية العميقة.

ولنحاول الآن أن نفهم الفرنسي كفرد، وهي أضمن طريقة للنفاذ إلى لب الموضوع. كل خير في فرنسا وكل شرفيها و كل عظمتها و كل ضعفها تأتي من مفهومها للفرد: وانه لمفهوم جليل، و يحتمل أن يكون أيضا مفهوم مشوبا بالمرض. فالمسألة قبل كل شيء مسألة مطالبته بالاستقلال وخاصة بالاستقلال الفكري. فالفرنسي يقول انه يفكر بنفسه ويقضي بنفسه ولا ينحني أمام أي سلطان و إذن فهو ليس من أولئك الذين يؤمنون بالدكتاتورية. و إذا حدث أن اتبع أمرا عن تعصب أو عن طاعة عمياء دون أن يبدى نقدا، فإن ذلك يرجع إلى التضحية المتعصبة المبدأ أو نظام أو سياسة، فهو في ذلك ليس على شاكلة الرجل الألماني الذي إذا اتبع أمر ما، فإنه يتبعه بطبيعته الطيعة. في أمريكا قد تحصل على كل شيء من الفرد باسي « الفاعلية » أما في فرنسا فإنك لا تحصل من الفرنسي على شيء إلا باسم المبدأ. وفي ضوء هذا الاتجاه، فإن الفكر الفرنسي سواء في النقد أو في « التعصب الأيديولوجي » يبدو لا

كأداة من أدوات التحرر حسب بل كخميرة خطرة وثورية عند الاقتضاء. وفي كل مكان يمر به الفرنسي، تهب من خلفه رياح تحرك الغبار ؛ وتزلزل دعامات الدول غالبا. وفي هذا المعني كتب « شارل بوجى » Charles Péguy يقول : «نحن نرفض بكل قوانا العقائد التي تقله ها الدولة رفضنا لتلك التي تقول بها الكنيسة. غير أن يتكون مائة فرد يتمتعون بعقول متحررة من أن يكون لنا الآلاف من ذوي العقول الباهتة المستعبدة ».

وإننا لندرك جيداً أنه ليس هناك استقلال فكرى دون استقلال اقتصادى، ولهذا فإن مطالبتنا بالاستقلال الفكرى تصحبها مطالبة بالاستقلال في حياتنا الخاصة، فنحن قبل كل شيء لا نريد أن نعتمد على الآخرين، على جارنا أو على رئيسنا : و بدلا من أن نعاني تدخله، نؤثر أن نلجأ إلى الدولة – فسلطتها على الأقل – سلطة مشاعة ونحن نعرف أيضا، أن الاستقلال يشمل حدا أدنى من الأمن وقد ظل الفرنسي طويلا يعتمد على نفسه فقط لنوال الاستقلال، ومن هنا كانت رغبته الجامحة للتملك والادخار واهتمامه الدائب للحصول على معاش، ينعم به في شيخوخته، و يأنس إليه حين تتقدم به السنون. وطموح الفرنسي محدود الجوانب، يحيط به سياج من التواضع، فكل ما تتطلع إليه آماله وغاية ما ينشده في حياته : « منزل صغير وحديقة ومعاش يسد به رمقه ويقضى به غلته » وهناك مثل فرنسي يقول : « كوبي صغير ولكنه يطفئ ظمئي » وهذا المثل يصور تصويرا صادقا بعض جوانب العقلية الفرنسية.

وفيما ذكرناه آنفا من خصال الفرنسيين نجد مزيجا من المثالية والتفكير العادي ويقول الأجانب : الفرنسي « مغرض » فهو يعرف أن الحصول على المال عسير، وأنه إذا ما اكتسبه الإنسان فلا بد من المحافظة عليه. و إذن يجب تضييق القيود والرقابة عليه... ذلك هو العرف لدى الفلاح الفرنسي وأن تقاليدنا هي تقاليد الريف، وتبعا لذلك نقر بأننا حريصون كل الحرص على أموالنا، وكثيرا ما نكون أنانيين، متحرزين ضد من يريد أن يأخذ مالنا، و بالتالي متحرزين من الدولة. وأكثر من ذلك فإننا نغار منها ونحقد عليها في بعض الأحيان، ومع هذا نشأ من هذه العيوب ذاتها شعب فريد في تطوره.. شعب في سن الاكتمال، شعب يعرف كيف يواجه الحياة دون طفولة ودون نفاق، ودون وهم كذلك. اننا شعب من دارسي الطباع.

ولقد عبر الشاعر « لافونتين » La Fontaine في أساطيره عن رصيد من حكمة الفلاحين : فواقعيته، واعتداله، وحجة حكمه المشوبة أحيانا ببعض ما يلذع، كل ذلك يمثل رأي الشعب الفرنسي في الناس وفي الأشياء.

وإذن فنحن قوم إنسانيون، وبخاصة متحضرون، في حياتنا المادية بقدر. ما في تفكيرنا. ونحن نشعر شعورا غريزيا بكره ما هو فوضوي أو ما يجاوز الحد المعقول، ونكره تلك الضخامة التي يفتن بها الألمان. إن شعار : « لا تضخيم ولا تهويل » هو أحد شعارات التربية المنزلية في بيوتنا، ونحن نتجه دائما كلا أمكن ذلك إلى مخاطبة العقل والمنطق. وقد

أبدى لي رجل انجليزي، عميق إعجابه عندما سمع سيدة فرنسية تقول لطفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات : « كن عاقلا » وأضاف قائلا : إن المرأة الانجليزية تقول لطفلها في هذا الموقف كن ولدا طيبا « وهو شيء جد مختلف. ونحن في الحق تلاميذ الفيلسوف « ديكارت » والشاعر «لافونتين » وتلاميذ قدماء الإغريق، ويالها من سلسلة رائعة.

وإذا سئلت من أي جانب ما زالت هذه الصورة صحيحة ؟ فإني أقول : إنها صحيحة عندما تنطبق على الفرد الفرنسي في حياته الخاصة، على الفرنسي التقليدي الذي ما زال موجود رغم الحروب والثورات وتخفيضات النقد. ولكن علينا ألا نخطئ في هذا، فهو نمط قد تكون في وسط اقتصادى و اجتماعى آخذ في الاختفاء، وإننا لنسائل أنفسنا: كيف يستطيع أن يعيش في ظروف صارت مختلفة اختلافاً تاماً.

(٣)

وهناك مفهوم فرنسي بحت لأسلوب العمل، وهو مفهوم قديم قد ورثناه عن أرضنا التي نشأنا فيها، وينحصر هذا المفهوم في تمجيد العمل المتقن، والتعاون البناء للفكر والآلة والرغبة الغريزية في إظهار الذاتية أو الشخصية في الإنتاج، ولذا نجد العامل عندنا يريد دائما أن يضع اسمه على كل ما ينتجه. و إنها الظاهرة بديعة تلك التي نشهدها لدى صاحب الحرفة القديم الذي لا يكاد ينتهي من عمله حتى يرجع إلى الوراء خطوة.. ثم ليتأمل ما صنعت يداه. وقد كتب « بوجى Peguy صفحات

ممتازة في هذا المقام أذكر منها:

« عرفنا في حياتنا عمالا شديدي الرغبة في العمل. وعرفنا عمالا لا يفكرون منذ بداية اليوم إلا في العمل كانوا يستيقظون في الصباح المبكر وينشدون الأغاني فرحا وطربا لا لشيء إلا لكونهم سيقبلون على العمل بعد حين. وفي الساعة الحادية عشرة يستأنفون الغناء عند ذهابهم لتناول الغداء.. كان العمل متعهم الحقيقية وجوهر كيانهم وسبب وجودهم. كان للعمل شرف عظيم لا يدانيه شرف آخر، وهو الشيء الوحيد الخالد لديهم. لقد عرفنا تلك العبادة للعمل المتقن. لقد رأيت بعيني رأسي أثناء طفولي « حشو » الكراسي بنفس الروح وعلى نفس الهمة والنشاط، و بتلك اليد التاريخية التي شيدت الكاتدرائيات العظيمة. لم يكن هؤلاء العمال يخدمون، فهم يعملون بدافع من ضميرهم وشرفهم لا يرعون في ذلك رضا رئيسهم أو عملائهم لأنهم – بطبيعتهم – يتقنون عملهم بدافع من أنفسهم ولأنفسهم ».

والواقع أن الفرنسي يعشق وازع من عاطفته ووحي قلبه الخالق والاختراع ثم كثيرا ما يحدث أن يهمل التطبيق ولا يهتم به.. إنه يزرع على حين يحصد آخرون، وهذا يفسر لنا : كيف كانت فرنسا في مقدمة الدول السباقة إلى الاختراع والابتكار : السيارة والطائرة مثلا، ولكنها لا تكون موجودة عند توزيع الأرباح. وقد عبر عن ذلك « جان كوكتو» Jean Cocteau في عبارة موجزة مفيدة ؛ إذ قال : « فرنسا التي لا تبالي،... كانت تملك بذورا ملء جيوبها، وكانت تتركها تتساقط بإهمال

خلف ظهرها، ثم أتت شعوب فالتقطت هذه البذور وحملتها معها إلى بلادها لتزرعها في أرضها، فأنتجت لها زهورا ضخمة وإن كانت من غير عطر أو شذى..».

وهنا يعن لنا أن نتساءل : أيمكن أن تتواءم هذه المفاهيم والطرق الجريدة للإنتاج؟... يبدو لي أنها تتواءم جد المواءمة، على عكس ما نعتقد لأول وهلة. في التنظيم العلمي الصناعي نجد «التفكير الفرنسي» الخلاق البناء، في مواجهة نوع من المشاكل يلذ له أن يعالجها، ولا يغيب عن بال أحد منا ماذا يتضمن مذهب تيلور الانجليزي Taylor إنه عبارة عن تأييد مبالغ فيه للعقل إزاء روتين التقاليد. وفي هذا الاتجاه يمكن أن يندرج هذا الرياضي في عداد تلاميذ «ديكارت» والفرنسي «الديكارتي» يعتبر حقا من رائدي التنظيم والتنميط، فالثورة، مثلا هي التي أتت بالنظام المتري الذي مازال الانجليز والأمريكيون معارضين له. وتفكيرنا التحليلي والتعميمي ولغتنا – أداة الدقة – قد هيا لنا استخدام العقل خيرا من الآخرين. والخطأ الفادح الذي ترتكز عليه دعايتنا في تمجيدنا لإنجازاتنا الأدبية فقط، وليس لنا أي حق في إهمالنا الطرائق الفنية في الدعاية. وقد عبرت عنها الولايات المتحدة في عبارة رقيقة هي « المعرفة الفنية ».

ويفقد الفرنسي – للأسف – جميع صفاته التي تؤهله للسبق في معظم الميادين عند التطبيق كما يمارس الآن. وسواء كان عاملا أم فنانا أم أديبا، فإن ما يدفعه إلى العمل كما قلنا هو شرف المهنة والكرامة. والذي

يطالب اليوم من العامل هو : قوة الاحتمال والوعي والقدرة على مقاومة المال في العمل الأوتوماتيكي الذي يسير على وتيرة واحدة، نعنى هذا النوع من العمل الذي يفقد فيه العامل شخصيته، لا نلمس للفرنسي إلا موهبة يسيرة، ولا عجب في ذلك. وهو يبدى أحيانا القليل من الحماس في العمل الذي يبذل للآخرين. فالعامل الفرنسي لا يعمل جيدا إلا إذا كان يعمل لنفسه، أو إذا تحمس لعمل يشعر أنه مرتبط به، وعند ذاك ترى منه نشاطا وفاعلية، لا حد لهما، ولكن ليس ذلك بدافع المصلحة أو الضمير، و إنما بدافع الكرامة، ومن هنا نرى أي خطر علينا من هذه الاتجاهات الحضارة التي أصبح منهاجها عملا فنيا تطبيقيا، وأضحي فيها العمال بال والاختراع جماعيين، وعار العمل الفردي غير ذى موضوع.

والمسألة اليوم أننا في حاجة قصوى، في عالم اليوم، إلى البحث عن منهاج خلقي جديد، جديد لنا بخاصة نحن الفرنسيين. والمشكلة تنحصر الآن في العناية بالفرد مع الاعتراف بضرورة إدماجه في المجتمع. وللان لم يتح لفرنسا الوصول إلى حل لهذه المشكلة.

وأصل الآن إلى مسألة تبدو لي مهمة جدا في تكوين الفكر الفرنسي بقدر أهمية مفهوم العمل في تكوين ذلك الفكر، ألا وهي رأينا في الدين، فجر الحياة الدينية في فرنسا – في الأصل – جو بلد يدين بالمذهب الكاثوليكي، وحتى إذا بدا هذا البلد غير مؤمن أحيانا فبلدنا مازال يحتفظ بطابعه الديني، الذي أن يندثر أو يمحى بفعل التكوين الأصلي العريق. فالفرنسي حتى إذا كان متشككا في الدين أو معاديا

للدين فإنه يتصرف في حياته و يعيش في إطار من الفكر الروماني والفرنسي المتوسط يتطور – وهو مرتاح – في إطار الفكر الكاثوليكي، على حين أنه لا يستريح في جو التفكير البروتستانتي، الذي يبدو لي مصطبغا بصبغة أجنبية، ويلوح له أن من الصعب عليه التكيف معه. ومن هنا نلمس التنافر بين فرنسا والبلاد البروتستانتية. ومن هنا أيضا عدم التفاهم المشوب بغضاء خفية – في علاقاتنا مع الشعوب الأنجلو ساكسونية.

وتنطوي الكاثوليكية الفرنسية على أثر من عهد ما قبل المسيحية ينعكس في الاحترام الشعبي الشديد لبعض الأيام والبعض الأمكنة التي تعتبر مقدسة. لكنها تشمل بخاصة الانتماء إلى مجتمع روحي يعبر عن نفسه في الكنيسة التي تمنح بركاتها بواسطة « القربان » الذي يمنحه الكاهن المؤهل لهذا وفقا لمراسم معينة تضفي على الحياة لونا من البروتوكول الصوفي..

ويقوم هذا العمل على أساس من النظام. فيحضع الفرد روحية، ولكنه يعود إلى نفسه في مستوى آخر. فالضعيف لأنه في حاجة إلى هذه الدعامة، والصوفي ورجل العمل لأنه يجد في هذا الخضوع حرية جديدة. فالكنيسة في فرنسا إذن عبارة عن سلم من المراتب تعطى المجتمع « إطاراً أخلاقياً » وهي بهذا عامل منظم، فلا يقتصر دورها الضخم في الحياة على الدين فقط، بل يتعداه إلى الميدانين : الاجتماعي والسياسي. فكون الفرنسي كاثوليكيا أو معاديا للكاثوليكية، إنما يعتبر في فرنسا أمرا

سياسية بالإضافة إلى كونه مسألة دينية، وتقف الكنيسة شامخة أمام الدولة كأنها قوة سياسية أخرى. ونتج عن ذلك وجود فلسفة معادية للكنيسة في فرنسا وهذا ما تجهله المجتمعات البروتستانتية.

ولم يعلمنا هذا الدين التبعات الأخلاقية للفرد ولا ممارسة الحرية السياسية. لقد وضعنا في إطار مدعم من « النظام الكنسي » الذي لا ننكر عظمته، لكنه يشابه أيضا منظمة بوليسية للعقول والأخلاق. وقد خضعت بلادنا إلى حد كبير للدين، ولكنها قاومته أيضا إلى حد كبير تارة عن طريق « مذهب الشك »، وتارة أخرى عن طريق روح النقد المطلقة». وقد حدث أن خرج على الكنيسة عدد كبير من الفرنسيين الذين قاوموها – في قوة وإصرار – كراهية وعداوة لها، ولكن ظل الأكثرون منها إذ توصلوا إلى طريق من التعايش بين الكنيسة وبين حرية الفكر. وبما أنه لا يوجد تقريبا روتستانتيون في فرنسا، فإنه يمكن القول بأن جميع الفرنسيين سواء الذين ظلوا على ولائهم للكنيسة، أو الذين خرجوا عن طاعتها – يحملون طابع الكاثوليكية. « وفولتير » من هذه الناحيه هو حقا أن البلاد. فما من بلد بروتستانتي كان مستطيعا أن ينبت مثل فولتير. لقد بلغنا في بلدنا درجة من تحرر العقل لم يعرفها بلد آخر، فقد تخلص العقل – ليس فقط من العقيدة بل أيضا من أوامر الأخلاق – فوصل إلى استقلال لا تعرفه انجلترا المتطهرة ولا ألمانيا ذات النظام ولا أمريكا صاحبة الفعالية. هذا التحليق في التفكير الذي يستنشق الإنسان فيه الهواء المر والمنعش، هواء القمة العالية، يدهش الأجانب الذين يتاح لهم الاتصال به، يدهشهم كأنه معجزة.

وفي السياسة كانت النتيجة أقل توفي في الوقت الذي راحت فرنسا فيه تنتظم في إطار نظام تسلطي، اتجهت الملكية – وكانت قبل ذلك أكثر توازنا اتجهت إلى نظام مطلق. وفرنسا الحديثة، فرنسا الثورة، هي نتاج ثورة مزدوجة ثورة إما ضد سلطة الملك، و إما ضد الكنيسة. ومن هنا تشوهت لدينا فكرة السلطة وفكرة الحرية. ولم نستطع أن نتصور سلطة تكون متحررة أو حرية تكون بناءة. وهذا العيب في أصل فرنسا، ما برحت فرنسا المعاصرة تعاني منه.

(٤)

إن مسلكنا في الحياة السياسية والاجتماعية والخاصة ليتأثر تأثراً مباشرة بما سبق ذكره و بالمنابع الحلقة التي نبعت منها شخصيتنا القومية. ومن السهل عليك أن ترى ما نحن مدينون به للأصل اللاتيني وللأصل الكلتي. إنها مزايا ولا شك بيد أنها تتحول بسهولة إلى عيوب، إما نتيجة للأفراد و إما نتيجة لسوء استخدامها. والقوة المقابلة للعنصر الجرماني موجودة ولا شك لتعيد التوازن، ولكنها في مجموعها غير متوازنة فالعنصران اللاتيني والسكلتى متغلبان.

وإذن فماذا ورثنا عن اللاتينيين ؟ : ورثنا بنيانا اجتماعية متينة يقوم على الأسرة وهو أكثر قوة وأمنع صلابة وأشد بقاء من الدولة ذاتها؛ ولكن روح التعصب للقبيلة أوضح في هذا البناء – بالنسبة الوعي الشعبي – من المصلحة القومية. وقد ورثنا عن اللاتين أيضا مفهومنا

لقانون، و كذلك القانون المحدد المكتوب اختلف جدا عن القانون العرضي البريطاني. فالرباط الاجتماعي يبدو لدينا كأنه عقد بين شركاء، كل شريك لا يثق في الآخر، ولسنا شعبا نعتقد كما اعتقد روسو Roussean – هذا السويسري – أن الإنسان خير بطبيعته.

ومن هنا كان مفهومنا للدولة وللسلطان العام، فنحن نعتبر الدولة – تبعة لمفهومنا اللاتيني الحقيقي – أشبه ما تكون بكيان خرج عن الفرد وأعلى منه، ومن المحتمل أن يكون خطرة عليه. والواقع أننا نعتبر الدولة – إلى حد ما– عدوا يجب على المرء أن يحمي نفسه منه، ومن الحرص أن ينتزع المرء منها ما يمكن انتزاعه بكافة الحيل في سبيل صالح الأسرة... كان «كونفوشيوس » Confucius يقول : إنه من الأصلح للفرد أن يسرق الدولة ليطعم أباه الجائع، ولسنا بعيدين عن أن نشاطر الفيلسوف، رأيه، فنحن في فرنسا نحمل شيئا من الاستنكار الخفي لكل من يدفع الضريبة أو يسدد رسم الجمرك دون أن يحاول كيف يتخلص منهما. إننا نعتبره شخصا مقصرة ساذجة. ولكننا في الوقت عينه ترى أن الدولة أداة قوة يمكن الاستيلاء عليها : فأعداؤنا قد يستخدمونها السيطرة علينا، وهذا أمر لا يمكن التسامح فيه. أما إذا كان أصدقاؤنا هم الذين يستولون عليها، فإننا سنستفيد من ذلك، ومن هنا كان هذا الداء المفرض الذي يجعل حياتنا العامة مختلفة جد الاختلاف عن مثيلاتها في انجلترا وسويسرا، حيث تعتبر الدولة ترجمان الجماعة. وهذا يظهر التناقض بين الكاثوليكي والبروتستانتي، لأن بنياننا الاجتماعي ظل كاثوليكيا في السياسة كما هو في الدين.

ونحن مدينون للاتينيين أيضا بقدرتنا في التفكير والتعبير، وقدرة الفرنسي على التحليل تجل عن الوصف. حتى إن رجل الشارع بيننا يتمتع بقدرة خارقة على التعميم، وموهبة لا تجاري في اكتشاف المبدأ الخفي في أية مشكلة، ومن التعرف على النتائج التي يمكن أن تنتج عنها. وفي أية ظرف يعرف الناخب – بغريزته الصادقة – إلى أين الاتجاه : إلى اليمين أم إلى اليسار، ويدرك منطقه ما سيحدث أخيرة من رد فعل أو ثورة. و بمثل هذه الخطوط الفاصلة تميز الأحزاب في فرنسا حيث يكون المبدأ فوق التطبيق العلمي مما يثير دهشة الرجل الأجنبي الذي تعود أن يضحي بالمبدأ في سبيل أن يعيش فحسب، وهذا الموقف المتناقض يرجع إلى وضوح التفكير عندنا، الأمر الذي يدفعنا إلى استعراض المشكلات بطريقة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، مما قد يجعل الحلول عسيرة، بدلا من أن يساعد على إيجادها. فسهولة التعبير لدينا تبدو هنا كبائل نصبت لنا. وإذا قارنا أنفسنا من هذه الوجهة – بالألمان الذين تقيدهم لغتهم فلا يستطيعون إبراز نفوسهم، إذا فعلنا ذلك فإننا نعجب بشفافية الفكر الفرنسي وقدرته على أن ينقل نفسه ويتصل بغيره. ونحن في هذا نتدرج مع سكان البحر المتوسط أكثر مما نتدرج مع أهل الشمال، ولكن في وضع وسط ؛ لأنه إذا كان الاعتدال وعدم التأنق في لغتنا قد حال بيننا و بين « الغنائية الفصيحة على الطريقة الأسبانية فإن كلاسيكيتنا تضطرنا فكرية إلى البناء على حين أن الانجليزي لا ينحو هذا المنحى.. و يجب ألا نغفل هذه الحقيقية وهي : أن المدرسة الثانوية « الليسيه » تطبعنا بهذا الطابع الذي لن يمحى على مدى الأزمان.

وبعد، ألننا أن نتحدث كثيرا عما نحن مدينون به للاتينيين، ولكن لا يتطرق الحديث كثيرة عن الخصال التي ترجع إلى الكلتيين. و إني لأرى في هذا الميراث الكلتي العنصر الجوهري لتراثنا الاجتماعي والعاطفي. وهنا يتجه الفكر توا إلى غموض شعر « البريتون »، و إلى السحر الرومانطيقي للفولكور العالمي ولكننا ورثنا عن الكلتيين الإحساس بالمسلحة والميل الشديد إلى الادخار، والجد في إدارة ميزانية الأسرة والتعلق بالأرض، ويرى الأجنبي في «الفرنسى» رجلا لامعا خفيفا غير قادر على التحدث جديا في أمر من الأمور. وما أخطأ هذه النظرة.. وعندما تتصل بجالياتنا الفرنسية عبر الحيطات، في أمريكا اللاتينية مثلا، نرى أن مواطنينا الذين يشغلون مراكز هامة في تلك البلاد مدينون بهذا لتلاك الصفات القوية الجادة التي ورثوها عن أجدادهم الفلاحين أو الجبليين. وترى الانجليزي في مثل هذا الوسط أكثر ادعاء وأناقة ولكنه أقل استقرار، وترى الفرنسي من أصل ريفي في تلك البلدان أقل أناقة، عليه مظهر الفلاح البسيط الأصل. لقد ورثنا عن الكلتبين أيضا ذلك الجانب الفوضوي في فرديتنا. وهذه. الفردية إذا لمعت في مجال الفكر أو الفن فإنها غير مكللة بالنجاح في الميدان. الاجتماعي، فهي أم الغيرة التي تعتبر كل تدخل من جانب الجماعة إهانة لها ومن الفردية أيضا جاءت الصفة الهدامة لذكائنا الذي يشعر براحة في المعارضة أكثر من شعوره بها في التعاون. فاللاتيني – الذي مازالت به آثار روما القديمة – قادر على فهم المنشآت السياسية الكبرى والإعجاب بها. أما الكلتى فهو بصفة. خاصة شخص مقاوم للتدخلات الضرورية، من جانب

المجتمع، ونحن من هذه. الناحية نعارض بدافع المزاج أكثر مما يكون بدافع المذهب.

وقد غدت النتائج التي ترتبت على هذا الأصل المزدوج : (الكلتية واللاتينية) « نذير شر» في الميدان السياسي. أما في المبدأ الفكري، فإن لها آثارا باهرة ويتعرض الفرنسي للوقوع في إسراف مزدوج سواء أكان ذلك ناتجا عن إخلاصه لمبادئه أم عن أثرته وتبدو هذه الأثرة أحيانا في أحط درجاتها، وهناك تعويض عن ذلك : عندما نكرس أنفسنا لعبادة المبادئ : وقد أوضح روبرت دي جوفينيل [Robert de Jouvene ذلك الناقد الدقيق للسياسة الفرنسية : أن – مشروعات القوانين بالنسبة لأعضاء البرلمان، أهم بكثير من القوانين، ذلك لأن المبادئ – وليست المصالح هي التي تحتل المكانة الأولى في مناقشاتها، هذه المبادئ التي تحولها بالحماس إلى لون من التعصب الأيديولوجي، وتحت شعار هذا التعصب و باسمه ننتهي إلى المبالغات الحمقاء : والحق أن فرنسا قد عاشت طيلة أجيال – في ظروف بلد يتمتع بكثير من الامتيازات، بلد لم تكن نتائج المبادئ تحدث فيه بالضرورة : فكان المرء يقول: إنه ثوري وهو في الوقت نفسه يحيا حياة بورجوازية، ويمدح المرء أي مذهب ديماجوجي، دون أن يكون لذلك أثر على حياته الخاصة «وفي كتاب رو برت جوفينيل » « جمهورية الرفقاء » الذي ألفه عشية قيام الحرب العالمية الأولى، قال الكاتب : « فرنسا بلد سعيد، تربته خصبة والعامل فيه على درجة كبيرة من البراعة والثروة فيه موزعة أشتات متفرقة. والسياسة فيه هواية الأفراد، ولكنها ليست أساس حياتهم ».

ولقد تغيرت جميع الظروف وبقي علينا أن نعلم : هل يدرك الفرنسي في الأحوال الحاضرة لمبادئ عند تطبيقها يمكن أن يكون لها أثر على الحياة الخاصة لكل فرد عند التطبيق ؟

إن الانفصال الذي تحدثنا عنه – سابقا – بين المبدأ وتطبيقه لم يعد رداء اليوم كما كان بالأمس، فالفرنسي الذي يصوت بصفته مذهبية متعنتنا مع اليسار هو – غالبا – نفس الفرنسي الذي ينزلق إلى الأثرة المطلقة في سبيل الدفاع عن مصالحه. وهذا « المالك الشيوعي » – وما أكثر الملاك الشيوعيين لدينا – على أتم استعداد للدفاع بكل ما يملك من قوى عن ملكيته. بل إنه قد يجد من الخطأ الفاحش أن يفرض عليه نظام المزارع الجماعية « كولكوز » وهؤلاء الآخرون الذين يصوتون عن إيمان وعقيدة في جانب التأميم تراهم رغم هذا لا يثقون في الدولة، ونراهم في المسألة الخطيرة يعتمدون على أنفسهم. وهم يجيدون التخلص من المأزق التي يقعون فيها. وهم يشبهون – إلى حد ما – الصينيين. وقد وجد بول موراند Paul Mourand تشابها غريبا بيننا وبينهم مثل الولع بالاقتصاد، فمن المحافظة على الأشياء مدة طويلة بترميمها أولا بأول، والمهارة في الطهى، وعدم الثقة، والأدب الموروث عن أجيال سابقة، والكراهية المتأصلة للأجانب، غير أنها مقت سلبي، والمحافظة التي تهب عليها العواصف الاجتماعية من وقت إلى آخر، والتجرد من الروح العامة، وحيوية الشيوخ الذين تجاوزوا سن الشباب. فهل هناك تشابه كبير بين جميع الحضارات القديمة بعضها البعض ؟؟

وعلى ذلك فإن الفرنسي عندما يلجأ إلى السلطة العامة، يجد نفسه تواقا إلى اعتبارها بقرة حلوبا، يريد أن يحصل منها على الحد الأقصى ولا يعتبرها منشأة هو شريك متضامن فيها. فتراه عندئذ ينشد الفائدة أكثر مما ينشد الصالح العام. وكلنا نعلم كيف يحيا عضو البرلمان وحقيقة حياته والمكانة التي يلعبها دوره كنائب للأعمال التي لا يستطيع ناخبه أن يقوم بها في دائرة نشاطه، و يعتقد صاحب الدخل أن صندوق الحكومة المالي لا رصيد له، وأن الصناعة المؤممة يمكن أن تدور إلى الأبد بخسارة، ولا بد من تربية عظيمة ليدرك أنه مساهم في شركة كبرى هي : فرنسا ذاتها.

ومع وجود مواهب عظيمة في فرنسا، ومع الكرم في بذلها والإخلاص فيه.. فإنه من الغريب أن تكون الحياة العامة غير مثمرة على نقيض إثمار حياة الفرد، وثمة فكاهة لا يعوزها الصواب : « الفرنسي بمفرده شخص ذكي. وإذا وجد فرنسيان فمعنى ذلك النقاش.. و إذا وجد ثلاثة، فعناه: الفوضى.. فهل لنا أن نحسد زملاءنا وراء المانش ؟ : وانجليزي مفرده شخص غبي، وإذا وجد انجليزيان وجدت الرياضة، و إذا وجد ثلاثة معنى ذلك الإمبراطورية البريطانية

(٥)

وقد يكون من العزاء لأنفسنا أن نتذكر نصيب فرنسا في هذه الحضارة الغربية التي تعتبر فرنسا إحدى دعائمها. و إذا كان على أن أبحث عن هذا النصاب الذي أنا نخور به كل الفخر، فإني أضع في الاعتبار الأول إيمان الفرنسي وثقته بذكاء الإنسان أي بالإنسانية ذاتها،

فهو يعتقد أن هناك حقيقة إنسانية ملك لجميع الناس، وأن الذكاء يستطيع إدراك هذه الحقيقة، وأن اللغة تستطيع التعبير عنها. لأن الفرنسي يؤمن أن الفكر لا يوجد إلا إذا أمكن التعبير عنه. أما قبل ذلك فهو شيء تقديري أي أنه لا يوجد في الواقع؛ لأنه يعتقد أن « الشكل » ضرورة للوجود. وفي هذا ينحصر البون الشاسع والفارق الكبير بين الفكر الفرنسي والفكر الألماني.

فالفكر الألماني لا يحس بالراحة إلا في « الصيرورة » في «التقدير »؛ لأنه يعتقد أنه إذا تحدد شكله أصابه الضعف، وهو يؤمن أنه عميق طالما كان غامضا، ويعتبر وضوح الفكر لدينا سطحية. أما نحن نهدف إلى العكس ؛ لأننا نؤثر من الأمور أوضحها، ونعتقد أننا نقترب من الحقيقة كلما اقتربنا من النور.. وتفوق العقلية الفرنسية ينحصر في إلقاء الضوء على المشكلات وفي تمييز ما يستحق البقاء من كل ما تقدمه لنا الطبيعة. وقد عبر عن هذه الفكرة جان كو كتو Jean Cocteau هذا الملاحظ الماهر للسيكولوجيات الحديثة ؛ إذ قال : « إن ألمانيا الحديثة لا تعرف التخمة، إنها تموت من إقبالها على لون من التبسط المدرسي للثقافة الفنية. وللجمهور الألماني معدة قوية، فهو يكدس فيها غذاء غير متجانس ويلتهمه ولكنه لا يهضمه. وفي فرنسا نلتقي بالغذاء، ولكن لدينا بعض معدات تختار وهضم أحسن مما يوجد في أي مكان آخر ». وهذا الفكر الفرنسي – الذي يشعر بذاته – يرى ضرورة الاتصال بغيره وقيمة لغتنا في التعبير عظيمة جدا. وربما كان هذا أعظم ما ساهمنا به في حضارة الإنسان. وإن أية فكرة عادية إذا مرت بالعقل الفرنسي، صفت

واتضحت، بل وأكثر من ذلك أصبحت متداولة كأنها عمله دولية، يستطيع كل شخص استخدامها، و بهذا أصبح للفكر الفرنسي شمول دولي، وحدثت من ذلك معجزة أشبه ما تكون معجزة الخلق : فبمجرد أن أنشأنا الفكر ووهبناه الحياة، لم يعد ملكا لنا، بل اكتسب حياته الخاصة ككائن جديد. إننا نشعر أنه يصبح عند ذاك ملكا للإنسانية. وإذا كان الفكر حقيقة بالقياس إلينا فهو حقيقة بالقياس إلى الناس كافة. وقد عانوا علينا أحيانا ما أسموه بـ « الاستعمار الثقافي» وليس ثمة شيء أظلم من هذا. فنحن لا نريد إلا أن نكون ناشرى دولة الفكر، لأن « العالمية » هي الجو الطبيعي لروحنا.

ومن هنا يكون – على ما اعتقد – الحب الخالص الصادق والعاطفي الذي نكنه للغتنا، تلك الإدارة الطيبة ذات الفاعلية.. وترى الانجليزي في «بريد القراء في الصحف » يكتب عن موضوعات تتعلق بالكتاب المقدس أو حكايات عن حديقة الحيوان.أما نحن فن كتب عن اللغة وقواعدها ومشاكلها. ومهمة مجمع اللغة بقاموسه هي المحافظة على هذا التراث القومي. وليس معنى هذا ببساطة أن يكون دوره قاصرة على تزويق اللغة، بل المسألة مسألة تكامل ثقافتنا التي قد تنهار لو انهارت أداة التعبير. ونحن نشعر أنه يجب أن تصان لغتنا بنفس العناية التي تصان بها أداة صاحب الحرفة.

وهذه الطريقة في تصور الفكر والتعبير عنها قد جعلت من فرنسا بطلة حقوق الإنسان، لأن فرنسا تبجل بالغريزة الإنسان المفكر، ومن

وجهة النظر هذه تؤمن أن الناس جميعا سواسية في الكرامة، مهما اختلفت بهم البلاد وابتعدت بهم الأجناس وتنوعت الألوان وقد عبر الفيلسوف باسكال Pascal عن أحد معتقداتنا العميقة بقوله : « تنحصر كل كرامتنا في الفكر » والبلاد التي يبدو أنها تجعل الرفاهية أو القوة هدفها الأسمى، نشعر إزاءها بنوع من الحنين هو الحنين إلى الروح، بعد أن نكون قد أعجبنا بمنجزاتها المادية بعض الوقت. ففي نظرنا، لا حضارة بالمعنى الصحيح إذا لم يتمتع الناس بالإنسانية، ومن هنا كان الفرنسي في كل مكان يمر به منبها و باعث، بل وثائرة ينادي بالمذهب الثورى: مذهب احترام شخصية الإنسان. وهو يشجع ثورة الفكر، ويقول للأرقاء والسجناء والمحكوم عليهم بنظم الأحكام المطلقة: « فلتكن لك الجرأة على الوجود ». وعندما تتعرض الشخصية الإنسانية لأخطر، وعندما تكون حقوق الفرد أو حرية الفكر موضع تهديد، فإن الناس يتجهون نحو فرنسا. وهناك دائما فرنسي يتسمى باسم « فولتير » أو بأي اسم آخر، يتبنى حق الإنسان المظلوم، ويدافع عنه دفاع الأبطال. وليست المسألة مسألة إحسان أو حب لا خير إنها شيء آخر غير هذا. ونحن هنا في قلب الغرب الذي لا يعد غربا بكامل معانيه دون فرنسا. وأعرف أنه من الممكن ذكر الكثير عن إسهامنا في تقدم الحضارة الغربية، ولكن يبدو لي أن هناك بنت من الشعر يلخص هذا النصيب أوفي تلخيص، وأقصد ما نظمه الشاعر اللاتيني « تيرانس » إذ يقول :

« إلى إنسان وأعتقد ألا شيء مما يتعلق بالإنسان غريب عني »

(٦)

وكيف ننتهي إلى خاتمة من جملة هذه العناصر المتناقضة ؟ كان هناك أمريكى بصير عرفي بلادنا جيدا ولكنه نفض يديه من الحكم عليهم.. قال :

« أحيانا، لا أرى لدى الفرنسيين سوى عيوبهم، لا أرى غير روتينهم أو إقليميهم، وغيرهم وعجزهم عن العمل الجماعي، ويبدون لي عند ذاك أنهم قوم لا يحتملهم أحد. وفي اليوم التالي لا أرى فيهم إلا محاسن حميدة، للسهولة العجيبة التي يعبرون بها عن فكرتهم، وثقتهم في الكائن الإنساني، وذوقهم السليم، وشعورهم الكريم بالتضامن، بين الناس قاطبة، وعلى ذلك فإني لا أتصور محال أن هناك أي شعب – اللهم إلا شعب الإغريق القدامى – بلغ مستوى من الثقافة ومن الحضارة مثل ما بلغه هذا الشعب». كان رينان يقول : إنه في حالات كثيرة لا تنجلى الحقيقة إلا في تناقض المحادثة. ولم يحاول ألفونس « دوديه » Alphonse Daudet في روايته « تارترن تاراسكون » أن ي كون شخصية واحدة «دون كيشوت » وساتشو معاً، ومع هذا فليس بين شعوب أوروبا من وصل إلى فكرة التأليف بين العناصر التاريخية المختلفة – ولا أقول الاندماج – مثلما وصلنا نحن. فإن ألفا وثمانمائة سنة من التاريخ قد صنعت منا أكثر البلاد الغربية تطورا وكما قلنا، أكثر البلاد اكتالا. وإذا نظرنا في سيكولوجية الفرنسي، قادنا ذلك إلى القول بأن عيوب الفرنسي هي النقيض الذي لا بديل عنه لمحاسنه. وإن هذه المحاسن المعروفة ليست إلا الاستفادة من بعض العيوب وتطويرها. وقد قيل : إن الطبيعة قد وهبتنا نوعا من آلية التوازن التي تقومنا دائما في الوقت المناسب وتمنعنا من أن نقع تماما في الحفرة : ففرنسا الكاثوليكية الصادقة

دائما في كاثوليكيتها هي بلد العلمانية « وهذا الشعب الذي الا يستجيب لنظام والذي يصعب حكمه، ليس بشعب فوضوي، و إذا ما جنح إلى عدم النظام قليلا، فإنه يخشى في النهاية أن يقع في الفوضى ويتردى في الاضطراب.

وكل هذا يشترك فيه جميع الفرنسيين، وتلك علامة الحضارة. فلا تقاس حضارة من الحضارات بعدد قممها، و إنما تقدر متوسط ارتفاعها، وهي ليست من صنع عظاء رجالها ولكنها من صنع المستوى الأدنى لعناصرها، وبخاصة من صنع إمكانيات أقل عنصر من عناصرها. ومن هذه الوجهة كان الاندماج لدينا تاما تقريبا فسواء أكنا « جرمانيين » أم «كلتيين » أم « متوسطيين »، وسواء أنا من أصل شعبي أم « بورجوازى » فإن قدراتنا على الإنجاز والتطور واحدة. في باريس بيئة فكرية راقية تبدو كأنها فريدة في العالم، غير أن الأجنبي الذي يعرفنا، يؤثر عليه الإدراك السليم والذكاء المتفتح، والإنسانية الباهرة التي يصادفها لدي رجل الشعب أو لدى الفلاح. وثمة تقاليد عريقة أتاحت ونمت في بلادنا فنا للحياة وحكمة، قوامها القصد والاعتدال؛ لأننا تعلمنا أن الحياة قد تعطى الكثير، بيد أننا لا نستطيع أن نطلب منها كل شيء. ولربما كانت هذه هي الحضارة الحقة.

الفصل الرابع

العناد عن الشعب الانجليزي

لكي نستطيع فهم الشعب الانجليزي على حقيقته، يجب أن نبدأ بتحديد موقع انجلترا الجغرافي، فذلك أمر حيوي هام ينير سبيل ما نحن بصدد الحديث عنه. قال المؤرخ الفرنسي « ميشيليه » في مستهل دروسه في « الكوليج دى فرانس»: « انجلترا جزيرة وكفي هذا. فأنتم الآن تعرفون عن تاريخها ما أعرف».. والملاحظة التي أبداها هذا المؤرخ العظيم – رغم أن انجلترا فقدت الكثير من جزرها – ما زالت مهمة وأساسية. بيد أن ما يسترعى نظرنا ليس هو الوضع الجزرى بل صغر مساحة هذه المملكة المتحدة التي لا تبلغ (انجلترا واستكتلندا وإيرلندا الشمالية سوى ثلاثمائة وثلاث عشرة ألف كيلو متر مربع، وتقدر مساحتها بنسبة ٤٣٪ من مساحة فرنسا، و ٢٪ من مساحة الأراضي التي تتكون منها الكرة الأرضية، ولكن الإمبراطورية (أو بالأحرى الكومنولث كما تدعي الآن) تشمل أكثر من ربع العالم. و إذن لا تستمد انجلترا عظمها من أرضها فقط، بل إن لهذه العظمة أسسا ومصادر أخرى.

هناك خمسة وأربعون مليون من الأنفس تعيش على هذه الصخرة، وقد مارس هؤلاء الانجليز عملا حاسم في العالم، وساهموا بنصيب

يعادل – أو يفوق – غيرهم في تطور الحضارة الغربية، ومما يسترعى النظر ويدفع إلى الإعجاب منذ الوهلة الأولى أن بنيان هذه القوة الكبرى قد أقر على رقعة صغيرة من الأرض.. بيد أنه في ذات الوقت الذي نلمس فيه عظمة هذه البلد، نرى منه الضعف والوهن.. فلكي تقام مثل هذه الإمبراطورية ولكي يحافظ على بقائها عبر قرون عدة، كان لا بد من وجود الصفات الفريدة في نوعها حقا.

وليس ثمة موضوع أصعب من السيكولوجية البريطانية، ولم يسترع شعب ما أكثر من هذا الشعب انتباهنا واهتمامنا.. فلقد شغف كثير من أدبائنا وكتابنا بدراسة هذا الشعب أمثال « فولتير » voltaire و « تين » Taine و «وماى Boutmy و«أبل هيرمانت»Abel Hermant وفي أيامنا هذه، «أندريه مورووا» Andre Maurois ومع ذلك فما من شيء في تاريخنا وفي مزاجنا ييسر لنا تفهم هذا الجار القريب منا والبعيد عنا في وقت معا.. وإنني حين أعبر ممر «كاليه » وأهبط في لندن، أشعر بأني قد هبطت عالم آخر، فإذا ما تعودت على هذا الجو الانجليزي شعرت أني لم أعد أفهم بلدي. لم أستطع – ولو مرة واحدة – أن أفهم وجهة النظر البريطانية والفرنسية معا، وقد نجحت أحيانا في فهم الاثنتين، الواحدة إثر الأخرى. ولم أعرف شعبين أكثر غموض أحدها تجاه الآخر من هذين الشعبين ؛ وعند شاطئ هذه القناة، عند مدينة « دوفر » حيث نلمح عن بعد شواطئ « فرنسا » تحس أن هذه القناة من الناحية المعنوية عميقة واسعة سعة المحيط.

(١)

لكي نتبين العوامل والظروف التي كونت الشعب الانجليزي، يجدر أن ميز في هذا المقام : الوراثة والبيئة والزمن على حد تعبير « تين » Taine.

فانجلترا جزيرة بلا ريب، ولكنها قريبة جدا من أوروبا، وهذا القرب هو الذي حدد تكوينها العنصري من سلالات تتابعت عليها. فقد جلبت الغزوات إلى العنهم الأصلي « الأيبري » وهو عنصر سابق للكاتبين، جلبت له من داخل أوروبا – عناصر الكلت والرومانيين والساكسونيين والنورمانديين ولكن لا يجدر أن ننسى أن آخر هذه الغزوات يرجع إلى أكثر من ألف سنة، وتنقسم هذه الغزوات إلى أربع غزوات إنسانية.

فالغزوة الأولى كانت غزوة الكلت في القرن السادس قبل الميلاد حتى عصر قيصر. وتشمل « البريتونيين » (نسبة إلى سكان مقاطعة بريتاني Bretagne في شمال فرنسا) وتشمل كذلك إلى Caels وأدخل هذان الجنسان شعبا ولغة وحضارة في البلاد. ثم أعقبت ذلك الغزوة الرومانية من عام ٥٥ قبل الميلاد إلى عام ٦١٠ بعد الميلاد، ولم تكن هذه الغزوة، إلا احتلالا عسكرية على مستوى صغير ولم يجلب معه إلا نوعا من التنظيم الإداري.

وفي الشمال، لم تصل إلى ال Gadls في اسكتلندا أية غزوة من الغزوات. أما الجنوب، فقد عرف النظام الروماني، ونستطيع أن نقرر أنه

مازال متأثرا به وتأتي بعد ذلك الغزوة الجرمانية فيما بين القرنين الخامس والحادي عشر، فقد دفعوا بالكلت نحو الغرب فاحتل الساكسون والاسكندينافيون الشاطئ الشرقي على بحر الشمال من فرنسا، تم تعمقوا في الداخل واستقروا في البلد. وسيكونون العنصر المتغلب في الشعب البريطاني والذي سيترك أعظم الأثر فيه كما وكيفا ؛ فالانجليزي اليوم مازال في جوهره (أنجلو – ساكسونيا ». وأخيرا تأتي الغزوة النورماندية في عام ١٠٦٦ – وهي – إلى حد ما – صورة للغزوة الرومانية فهى عبارة عن: الاحتلال العسكري والسيطرة السياسية لجماعة من ارستقراطية الأرض خلفت الحتلين السابقين، وقد جلب النورمانديون معهم اللغة الفرنسية ونظام للحكم وحضارة إن لم تكن رومانية خالصة، فإن لها على الأقل طابع الحضارة الرومانية، لأن هؤلاء الاسكندينافيين المتخلفين الذين كانوا بالأمس من البرابرة قد تهذبوا بإقامتهم قرنين في فرنسا.

ولنسائل أنفسنا عما كسبته انجلترا من هذه الغزوات المتعاقبة، فاثنتان منها غزوتان جبارتان جلبتنا معهما بخاصة عددا كبيرا من الناس : الكلت والأنجلو – ساكسون ؛ وكانت الغزوتان الأخريان عسكريتين جلبنا معهما بخاصة حكاما وهما : غزوتا الرومانيين والنورمانديين. ونلاحظ أن هذه الغزوات الأربع لم تندمج أو يختلط بعضها بالبعض الآخر و إنما تعاقبت إحداها إثر الأخرى، أو دفعت إحداهما الثانية وما أشبهها بالطبقات الجيولوجية التي ما زالت ظاهرة، ومن هذا مازال الكلتى حتى اليوم يتميز بوضوح عن الساكسوني.

وفكره الانجليز عن أنفسهم تتوقف على هذا التكوين التاريخي الذي مازلنا نام سه بوضوح في التكوين الاجتماعي الحاضر لهذا الشعب ؛ لأنه كان هناك دائما غزاة ومغلو بون، وسادة وتابعون. لقد خفت من غير شك الحدود الفاصلة ولكنها ما زالت موجودة، وعندما ننظر في «سيكولوجية الشعب البريطاني » فلا بد أن تحدد : هل نحن أمام كلت أم أمام ساكسون أم نورمانديين.

فالكلتي الذي نعتبره غريب الأطوار متقلبا نوعا ما، يتمتع – كفرد – بذهن لامع، وبهذه المناسبة يحسن أن نفكر مثلا في : «برناردشو»، وفي « لويد جورج » أما الرجل الساكسوني العمود الفقري لانجلترا – فيبدو على العكس أكثر الانجليز قومية وأصالة إنه هو (جون بول » Jhon Ball مع ذلك الجانب الجرماني لخلق البريطاني الذي لا بد أن يلفت النظر. أما عن النورماندى هذا الاسكندينافي الذي اصطبغ بالصبغة الرومانية، فإنه يعتبر – بلا جدال – أعرق الأجناس وأكثرها أرستقراطية وأناقة. ومن المستحسن في انجلترا أن يسمى الشخص هار كورت Harcourtأو كورتينى Courtney أو تالبوت Talbot وقد أني وقت أدار فيه شئون انجلترا الساكسونيون و النورمانديون ولكن المد الديموقرطى قد نشر « الكاتية » حديثا في انجلترا : فهل كان هذا في صالحها، لأن المسألة لا تتوقف فقط على لمعان الذهن؟

و إذا حاولنا أن نلخص التعليق السابق فإننا نصل إلى هذه الخاتمة، وهي أن المصير البريطاني تحدده العزلة الناتجة عن طبيعة

الجزيرة. غير أن هذه العزلة لم تكن بحيث حمت الجزيرة من كل الغزوات، ولكن بحر الشمال وممر «كاليه » قد حفظها من الغزوات طيلة تسعة قرون. وفي الحقيقة أنه منذ عام ١٠٦٦ أي منذ معركة «هاستنجز» لم يحدث أي اتصال عنصري بين الشعب الانجليزي وأوروبا. و يمكن أن نسجل – دون شك – استيطان بعض اللاجئين الفرنسيين من البروتستانت في القرن السابع عشر ثم في القرن التاسع عشر، حين تسلل إلى حي المال خفية عناصر ألمانية أو يهودية، ولكن تلك الهجرات لا تعدو في مجموعها هجرات فردية، حيث أن انجلترا اليوم يصعب عليها أن تعتبر نفسها بلدا أوروبيا حقا.

وهناك وجه آخر لهذا التكوين وهو الفتوة العنصرية لهذا الشعب، ونحن الفرنسيين – بوصفنا لاتينيين أو من س كان البحر المتوسط – قد خلفنا وراءنا ماضيا يرجع إلى أكثر من ألفي سنة، أما الانجليزي فلا يستطيع مجاراتنا في هذا الميدان، ونتيجة لهذا فهو أقرب إلى الفطرة والبربرية الأولى منا، وإنه ليستمد من هذا تلقائية ونضارة لا نعرفهما نحن، ويستمد من ذلك أيضا طفولة لا نستطيع – نحن الفرنسيين – أن نألفها. وحين كنت أعمل مترجما في الجيش البريطاني إبان الحرب العالمية الأولى، أدهشني كثيرا ما في أخلاق الضباط وقوادهم من طفولة. فعلى حين كنت أقرأ كزملائي الفرنسيين – مؤلفات مختلفة بين فلسفية وتاريخية – كان قائدنا يطالع الروايات البوليسية. وإذ كنت أشغل أوقات فراغي في المطالعة أو المحادثة، كنت أراه ينصرف إلى مداعبة كلبه عندما يمل من اللعب بالكرة مع مر عوسيه، وهذا الولع بالكرات هو كما

ذكرت مارى بوردن Mary Borden خاصية بريطانية صرفة فهي تقول : « اللعب بالكرة على اختلاف أنواعها محفظ الصحة في حالة جيدة دائما، وفي الوقت الذي تشعرون فيه أن ليس لديك عمل، ادفعوا بالكرات، كرات الجولف أو التنس أو البولو. فدفع شيء ما أو ضربه بطريقة متقنة هو شيء من أعظم المتع ».

وتلك خصلة قومية عميقة تحاكي ما لدى الألماني من متعة السير بنظام تحت قيادة ضابط.

ولنمض الآن إلى دراسة البيئة الجغرافية لهذا البلد، وفي هذا نلاحظ أنه ما من بلد أثر فيه المناخ كما أثر في هذا البلد. والمناخ هنا هو نموذج المناخ البحري المحيطي غير المتقلب، غير البارد – وقد يكون مثلجا أحيانا – وهو بخاصة رطب. و مهب على هذه البلاد رياح غربية تسودها ثلاثة أرباع العام، وتسقط عليها الأمطار دائما وتتخللها فترات صحو قد تحيلها النسمات النقية للمحيط الأطلسي إلى فترات باهرة. وفي مثل هذا المناخ الذي لا يعد مؤلما – وإن كان لا يخلو من قسوة أحيانا لابد من بذل الجهد المتواصل. فالاستيقاظ يتطلب بعض النشاط وهذا يفسر استيقاظ الانجليز عادة متأخرين، كما يوضح لنا سر تناولهم إفطارا مغذيا مكونا من « البوريدج » ولحم الخنزير والبيض.. الخ وعادة تناول الخمور يرجع إلى ذلك أيضا. كان أبي يكاد لا يشرب الخمر، ولكن عندما زرنا معا مدينة « جلاسجو » في منتصف شهر يوليو طلب زجاجة من النبيذ الفرنسي.

ولقد ترددت كثيرا على جامعة أكسفورد، وكان يعتريني العجب وتتماكى الدهشة من بطء طلوع الشمس هذه البقعة من تلك البلاد.. فما أشد الفرق بينها وبين بلاد البحر المتوسط.

وينتج عن ذلك، أن الشعب الانجليزي سي التكيف مع مناخه. ومن هنا تجد في سلوكه ردود فعل خاصة جدا إزاء البيئة الطبيعية. فمن ناحية نرى مولا لدى العاديين فينامون، ولكن من جهة أخرى يقاوم الأقوياء ويتضاعف نشاطهم هذه المقاومة ذاتها. فالألعاب الرياضية منتشرة في انجلترا، وهذا يفسر انتشارها، فهي هنا ليست هواية بقدر ما هي ضرورة، وبهذا يحافظ الجنس على بقائه. وفي هذا تجد البروتستانتية الفرصة لتنمية إحدى فضائلها الأساسية ألا وهي العزيمة الواعية وثمة حكم شائعة تعبر أعظم تعبير عما في البروتستانتية من قوة معنوية وما في الانجليز من عناد، ونذكر من تلك الحكم هاتين الحكمتين :

« خلقت الحياة لنسلكها صاعدين لا هابطين ».. « خلق الإنسان ليسمو على ذاته»..

ولا يكفي المناخ لمعرفة انجلترا، بل يجب أن نضيف إلى هذا وضعها على الخريطة فقد عاشت دائما منفصلة. كانت في القرون الوسطى جزيرة صغيرة غريبة الأطوار، و إقليما من أقاليم أوروبا المتطرفة المنعزلة. وغدت منذ القرن الخامس عشر «سمسارا عالميا في التجارة عندما أصبح المحيط الأطلنطي بعد الاكتشافات الكبرى همزة وصل تربط بين القارات جميعا. وحدث من ذلك الحين نناقض بين جزريتها

التقليدية و بين هذه الدولية التجارية التي صارت طابع البلاد. وهذا التناقض هو التعبير عن الشخصية البريطانية ؛ لأنه إذا كانت انجلترا – حسب طبيعتها – قد ظلت أكثر البلدان «جزرية » في العالم، فإن مصالحها واتصالاتها وعلاقاتها العالمية قد اضطرتها إلى أن تعيش من التبادل التجاري أي من الاتصال الدولي. وفي الحقيقة تنطوي نفس كل انجليزي على هذا التناقض.

(٢)

وإذا ما تحدثنا عن الخلق الانجليزي فإن أول سؤال يتبادر إلى أذهاننا هو عن طبيعة الذكاء البريطاني. وتبدى فرنسا في هذا الموضوع رأيين متعارضين فبعض الفرنسيين – ونحن نذكر كتاب « ديمولين » Demolina. قد أكدوا حماس « تفوق الأنجلو – ساكسون » وقد سمعت في شبابى آيات المديح المتكررة والحماسية، والتي كانت تضايقنا تقريبا كأنها تقريع، عن طرائق سلوك البريطانيين، والعملية النشطة، وكانت تتعارض مع ذوقنا البالي والعقيم للأدب. وكان لا بد في ذلك العصر – من الاعتراف صراحة بنجاح هؤلاء الجيران السعداء الفعالين، ولكن الوسائل التي كانت تمتدح لا تتفق مع تربيتنا الكلاسيكية، وكان لا بد من حدوث رد فعل. فشاع، وأصبح «مودة » الادعاء بغباء الانجليز واشتهرت عبارة حمقاء تقول: «وماذا يهم أن أكون غبيا » ؟.. « يكفي أن لي أناقة انجليزية ». و إذا سمحت لنفسي بمناقشة هذه العبارة الوقحة، فذلك لأن الانجليز أنفسهم يشعرون بسرور غريب في

الادعاء بأنهم أغبياء. و إذا كان أصدقاؤنا فما وراء المانش أغبياء حقا كما يلذ لهم أن يصفوا أنفسهم، فلا بد أن تكون هذه الغباوة ذات طبيعة خاصة ؛ لأنه ليس هناك أي تواضع في هذا الاعتراف من جانبهم وقد عرفت السير «شارل دياك Sir Charles Dilke وهو من أشهر البريطانيين وأشدهم ذكاء وأكثرهم لمعانا، وقد سمع أحد محدثيه يسأله : « ما هي يا سيدي فكرتك العامة.. فقاطعه على الفور « سير ديلك » بطريقة متكلفة وبلهجة يشوبها التهكم « سيدي، أنا رجل انجليزي، وبهذه الصفة ليست لدى آراء عامة»، ولكي يفخر المرء بأنه ليس لديه آراء عامة، فيجب أن تعترف بأنه لا بد أن يكون على درجة كبيرة من الذكاء.

والحقيقة أن الذكاء الانجليزي من نوع خاص. فالانجليز يحتقرون ذكاءنا القائم على المنطق. ويحاولهم دائما أن يدعوا أنهم ليسوا من أنصار المنطق، وأنهم متمردون على المذهب العقلي « لديكارت » ذلك الذي يحلل، ويتبين ويبني بطريقة عقلية إلى أقصى درجة. وهم لا يرون أن المشاكل قابلة لأن تحل بطريقة هندسية مرضية. أما الفرنسي بسيكولوجية الرجل صاحب الدخل – فإنه يريد دائما أن يبحث لكل شيء عن حل، وبعد ذلك يستريح مع تقاضيه ما يعادل معاشا. أما أصدقاؤنا البريطانيون، فإنهم أكثر حكمة لأنهم يعرفون أن الطبيعة ليست قابلة لمثل هذه الادعاءات. وفي رأيهم أن الحلول الوحيدة التي يمكن الوصول إليها هي حلول مؤقتة هشة زائلة، وتحتاج إلى تعديلات دائمة. ففي زمن الملاحة بالشراع كانوا ينظمون القلاع وموضع السفينة واتجاهها

حسب الرياح والتيارات التي في تغير دام، كان عليهم أن يوجدوا تهيئة مستمرة. ويتصرف الرجل الانجليزي في الحياة، وبخاصة في الحياة السياسية، تصرف ربان السفينة الشراعية : فهو يتطور في جو عدم الاستقرار بقبوله هذه القلقلة على أنها حقيقة لا يمكنه تبديلها، ومن العبث الاحتجاج عليها وليس الانجليز فريدين في هذه النظرة فقد آمن ها الصينيون من قبلهم ومن بعدهم الإيطاليون أيضاً..

فهل أعترف بأني أشعر بنوع من الضجر عندما أجد نفسي أمام ذلك التصحيح الذي يجب دائما إدخاله مرارا وتكرارا. وأخشى أن نكون – نحن الفرنسيين – متمسكين دائما بأمل إنجاز شيء نهائي : فنحن نبى حواجز من الحجر تتحدى الزمن، ونبرم معاهدات مصوغة صياغة أصولية ورفعها في وجه عواطف التاريخ. وتحتفظ بإيماننا بالذكاء، وعندما نقول عن شخص ما : « إنه ذكي » نعتقد أننا قلنا كل شيء ولكن أسفا ! فالفرنسيون كلهم أذكياء تقريبا، ومع كل فلا يفيد هذا في إصلاح حالنا، والانجليزي يحترس- بلا حياء – من ذوى الذكاء اللامع. إنه يعجب بهم ولا شك، ولكنه إعجاب من يداخله القلق وعدم الارتياح على نقوده حين مجاور مشعوذاً ماهراً.

ورجل الفكر في نظره – لا يخرج عن أن يكون بهلوانا، وهو يعتبر أن في « الفكرية » شيئا من المرض وإنه ليضع أمام العينات اللامعة، صفات متينة خيرا « منها ألف مرة) على حد العبارة التقليدية، وهي صفات توحى – على الأقل – بالثقة، بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد من

ذلك، حين يفضل القادة المضجرين، ويقول عنهم : إنهم مأمونو الجانب. وهنالك تقليد يبعد عن الحكم من يمتازون بالفصاحة الزائدة أو من يتمتعون بمواهب بارزة. ولنقرأ تأييدا لهذا الرأي في كتاب « البارزون في عهد فيكتوريا » بقلم « ليتون ستراشى » Lytton Strachey الصورة الكلاسيكية لدوق ديفونشير (لورد هارتنحتون (Lord Hartington) الذي أرادت الملكة فيكتوريا أن تمنحه مقاليد السلطة مؤثرة إياه على جلادستون. ولنتذكر أنه لو لم تقع الحربان العالميتان لما وصل رجل مثل لويد جورج Liyod George أو رجل مثل ونستون تشرشل إلى رئاسة الحكومة.. ومنذ سنوات دعيت لإلقاء محاضرة في كلية « أيتون » فسألت من دعوني :

كيف يجب أن أتحدث إلى الشباب) ؟ فأجابوني بقولهم :، لا تكن لامع. وهي إجابة لا تحتاج إلى تعليق.

تلاك آراء يصعب على الفرنسيين وهم أتباع ديكارت أن يستسيغوها فهم مازالوا يؤمنون بالعقل وقدرته. أما الانجليزي فإنه يعلن إفلاس العقل، ويقول هذا بشيء من السخرية التي أعترف أمها تغضبني إلى حد ما – ولو كان في الانجليزي شيء غير سلمي لوصفت تلك السخرية « بالسادزم » وربما كان علينا أن نعتقد بأن ما ينكره الانجليزي ليس هو الذكاء ولا العقل، ولكنه ينكر صورة الذكاء لدينا وصورة العقل لدينا، وما من أحد عرض وجهة النظر هذه خيرا مما يفعل سير أوستن تشمبران الذي يمثل صفات بلاده خير تمثيل، قال في حطاب له

بمجلس العموم في الرابع والعشرين من مارس ١٩٢٥ : « إني إلا أثق أبدأ بالمنطق حين يطبق على السياسة، وتاريخ انجلترا جميعه يبرر قولي. هذا، فلماذا تم تطورنا في سلام لا في عنف على نقيض شعوب كثيرة غيرنا ؟ ولماذا لم نعان في بلادنا من الثورات أو ردود الفعل المفاجئة مثل ما عانته بلاد. أكثر تمتعا منا بروح المنطق، رغم عظم التغييرات التي تمت في بلادنا ؟ سبب ذلك هو أن الغريزة والتجربة علمتانا أن الطبيعة الإنسانية ليست منطقية، وأنه ليس من الحكمة أن نعالج المنظمات السياسية كما نعالج القضايا المنطقية، وأنه بالعكس عندما تمسك عن دفع الآراء إلى نتائجها المتطرفة فإننا نجد طريق التطور السامي والإصلاحات الحقة ».

وهذا التحلل المتعمد عن إتباع منهج هو ممنهج في حد ذاته. يقول الانجليز «I ' ll muddle through » وليس معنى ذلك ما يقوله الفرنسيون : سأتخلص من المأزق Je me debrouillerai » و إنما معناها « سأخوض في الأمر »... « وبهذا سأستطيع إيجاد مخرج ».

والنجاح الدائم الذي أحرزوه طيلة قرون قد جعلهم يعتقدون أنهم ينجون محاسنهم وعيوبهم على حد سواء، ومن هنا يرضون بألا يصلحوا أنفسهم. ولقد ظهر نجاح نظامهم طالما كان البلد ثريا وكان مستطيعة قبول الأخطاء. أما الآن وقد بدأت الحياة تضيق، أفلا يجب أن يفكروا « بطريقة ».

فما أفيد الدرس الذي نستخلصه من هذا في علاقاتنا مع أصدقائنا

الانجليز إذا أردنا أن ندخل في حسابنا أنهم يفكرون جميعا على طريقة السير أوستن تشمبرلين.. إننا حينما نريد مقارعتهم الحجة بالحجة ونبغي إقناعهم بأسانيد لا تقبل المناقشة، نشعر أن ليس ثمة أمامنا أحد، وتحس أنا نصطدم بنوع من الصمت المطبق؛ ذلك لأنهم يقفون في المناقشة في مستوى آخر. وأيا كانت طبيعة الحجج والأسانيد فإنها لن تخرجهم من مكانهم. أوضح لي بريطاني كبير، سبق أن تفاوض كثيرة مع الفرنسيين في المؤتمرات الدولية، أوضح لي خطة دفاعه إزاء الفرنسيين، قال: « يحدث دائما، وغالبا ما يكون ذلك بسرعة، أن يقول لي ممثل فرنسا : وأخيرا يا سيدي، هل توافق على أن ٢+٢= ٤؟

فأجيبه : كلا، وعندئذ فقط تبدأ المناقشة المثمرة بيننا.

وعلى ذلك حين نتفاوض مع الانجليز يجب علينا – على أية حال – ألا نساوم معهم، فهم يشمونا عند ذاك يتجار فقدوا كل معايير الحكم على محدثيهم. والاتجاه الطيب معهم هو : تحديد موقف ما من أية مشكلة، والتمسك بهذا الموقف دون أن تكون هناك حاجة لإبداء السبب. فعندما يقول الإنجليزي عن نفسه: إنه غبي فإنه يريح نفسه إذ يتحرر من المنطق و يسير بسهولة – أو بالأحرى بلا وعي – في التناقض. كان لورد كير زون Lord Curson نائب ملك انجلترا في الهند يقول في استعلاء : « نحن نحكم بشخصيتنا » والحق أنه بفضل قوة الخلق، يكون العناد البريطاني في الأغلب الكلمة الأخيرة.

وها نحن نصل إلى الجوهر، أي إلى قوة الخلق. وهنا يبدو

الانجليزى مطبوعا بطابع التربية البروتستانتية، أي أنه يبدو من الناحية الأخلاقية. فرديا. ولا أقول ذلك عن الناحية الفكرية والدين والسلوك في نظره مسألتان شخصيتان لا يستدعيان بالضرورة وساطة « الكنيسة » وهو يعتبر نفسه مسئولا عن أعماله وسلوكه. فالاهتمام « بالغفران أمر غريب عليه، لأن يعتقد أن المسألة ذاتية وأن عليه أن يطيع ضميره. وهذا الشعور الصامت بالواجب هو أحد الخصال المميزة للخلق البريطاني: فالانجليزي الذي يحسن عمله، لا يطلب تشجيعا ولا ثناء من رؤسائه. وقد يعتبر مثل تدخلهم – الذي قد يكون لا غبار عليه – نوع من التطفل في مجال من اختصاصه هو فحسب : «كان على أن أقوم بعمل شيء ما. وقد أديته وليس هنا شيء أكثر من هذا، فهي مسألة تتعلق بكرامتي والمدح الذي توجهه إلى أن « يضاعف من ارتياحي الخاص بأني أديت ما كان على أن أؤديه. وليس هذا من قبيل الإحساس بالكرامة ولكنه صورة قومية – صورة خاصة جدا – من الإحساس بالشرف.

ويجب أن نضيف : إن مما ييسر السبيل لهذا الضمير في العمل كون الانجليزي.. مطيعا برغبته. وإنه يجب أن يندمج في نظام يرسم له فيه عمل معين وليس في هذا أية ذلة أو أي شعور بالتبعية، ولكنه الفخر بتأدية واجب مقبول. منه. وثمة شيء من أعظم ما حققه الشعب البريطاني في حياته ألا وهو « النظام في حرية » وهذه الخصلة من وحي المذهب البروتستانتي، ومع ذلك فإن انجلترا" لم تقطع صلتها تماما بالمذهب الكاثوليكي ؛ ذلك لأنها حين انفصلت عن روما في الديانة فقد أعلنت أنها ستظل كاثوليكية بالمعنى الواسع للكلمة و «الانجليكانى

» يحب المراسم و يشعر بجاذبية حقيقية للاحتفالات الكنسية الكاثوليكية، وهذا هو سر الاتجاهات نحو الكاثوليكية في الكنيسة العليا الانجليزية. فهل معنى هذا الرغبة في العودة إلى الحظيرة البابوية ؟ كلا.. لأن البابا يبدو في نظر هذه الجزيرة – كأنه حاكم أجنبي بل وشر من ذلك : حاكم إيطالي. وبصفته جزريا، يريد الانجليزي أن يكون كاثوليكيا – بالمعنى العام للكلمة – ولكنه يرفض قبول حكم سلطة غير قومية ولو في المسائل الروحية.

وها نحن أولا نرجع – مرة أخرى – إلى فكرة « الجزرية » التي توضح أعظم توضيح رغبة الإنجليزي في التحرر الداخلي والخارجي. فالانجليزي هو « الليبرالي » (التحرري) بحق، إنه لا يفرض نفسه ولكن كل ما يبغي هو : أن يترك هاديا مطمئنا. يحب أن تحترم حياته الخاصة، وليس لكائن من كان أن يتدخل فيها. ومع ذلك فإن هذه (الليبرالية) (التحررية) مصطبغة بلون من اللامبالاة والأثرة، وقد يكون هذا أحسن ضمان للحفاظ عليها : سيحترمون حريتك إذن، ولكن ربما كان هذا أيضا لأنهم لا يبالون بك كثيرا ولكل أمريء حياته الخاصة. وفي هذا انتقاص من الحرية. ويمكننا أن نقول عن هذا الشعب إنه مليء بالإحسان والخير. ولكنه أقل إنسانية من شعبنا نحن، الفرنسيين. الشعب الانجليزي لا يشعر بوحدة البشر وتضامنهم. ويقول البعض : إنه شعب متغطرس ولست متأكدا من ذلك – ومع هذا فإلى أشعر بصعوبة في رسم حد بين الاحترام لحرية الغير و بين انعدام الاهتمام – الذي يوشك أن يكون احتقارا – لكل ما يراه الغير أو يفعله. وينسبون إلى الانجليزي

الأسطوري قوله : « يبدأ وجود الزنوج عند كاليه ». وكان ذلك الانجليزي بريد ولا شك أن يمزح، ولكني أعتقد مع هذا أن المسألة ليست كلها وراحة. وليس الفرد الانجليزي متكبرة، ولكن المواطن البريطاني متكبر قومية : فهو يعتقد أنه من جوهر آخر غير جوهر «للمواطنين الآخرين الذين يشكلون بقية بني الإنسان. وعندما نقول لهذا الشعب : إنه شعب الله، سرعان ما يؤمن بهذا القول.

ومن هذه الرغبة في التميز، ينشأ تحرز من كل ما هو خارج انجلترا، ومن الأجانب، ومن اللاتينيين بخاصة.

فالانجليزي يعجب بالفرنسي لذكائه وإحساسه المرهف بالفن والفكر، ولكنه لا يثق بالفرنسي أخلاقيا، ويتضح عند أهل الجزيرة خاصة – الذين لم تنضج عقليتهم ولم يكتمل تفكيرهم بعد، وكذلك عند هؤلاء الذين لم يغادروا جزيرتهم حتى الآن – وهم كثيرون – نوع من الابتعاد أو الانطواء في التعاون معنا. وعندما يتاح لهم أن يمارسوا التعاون معنا، نجد أنه تعاون قائم على الثقة والتشكك بين طرف وآخر على طريقة الاشتراك في جريمة ما. وقد استمعت بهذه المناسبة إلى قصة امرأة انجليزية دعيت إلى الإدلاء بشهادة في قضية جنائية، وطلب منها أن تدلى بأقوالها عن كل ما تعرفه عن سلوك المتهمة. وقد بادرها القاضي بهذا السؤال : «هل سمعت ما يثبت القول أن هذه المتهمة سيئة السلوك ؟. فأجابت «كلا » ثم بعد تردد قصير قالت : يجب أن أقر أنها تلقت تربيتها في باريس ». وهذه لم تكن ملاحظة طيبة من جانب السيدة بالطبع.

وهذا الانجليزي الذي يتحمل – شخصياً – كل ما يتعلق بالمسئولية الأخلاقية، لا يعتبر مع ذلك فردا يمثل جميع صور الفردية، فهو لا يمكن أن يكون فردا بالمعنى اللاتيني الذي ينطوي على « استقلال الروح الناقدة ». ورغبة كل فرد في أن يكون لنفسه رأيا خاصا باستخدام عقله. ونحن نشك كل الشك في أن يكون الرجل الانجليزي قادرة على أن يكون لنفسه رأيا عن حرية، وحسب ما يمليه عليه عقله، كالرجل الفرنسي. والواقع أنه يتبع – عن طيب خاطر – الرأي الذي أشار به القادة والرؤساء. وعندما يتحدث رئيس حزب من الأحزاب إلى الأعضاء فإن جميع الأعضاء – بقضهم وقضيضهم – لا يشعرون بأي ملل أو مضايقة في الإصغاء إليه وعدم معارضته. وربما يكون هذا هو سر النظام الجميل الذي يصنع قوة النظام البرلماني، كما أنه قد يكون أحد مصادر الحب الوطن والبذل والتضحية للصالح العام. وبمقتضى هذا يجب على كل فرد أن يقدر حتمية اندماجه في المجتمع واشتراكه في الحياة الاجتماعية مع عدم التخلي عما تتصف به طبيعته من غطرسة وما يتحلى به من سمو وتشامخ !

وتفسر هذه الحقيقة كيف يكون الإنجليزي ذا فعالية وأثر عندما يندمج في بنيان أية منظمة تؤدي وظيفتها على أحسن صورة وأتم وجه، وهو يخرج عن اتزانه إذا فرض عليه أن يتصرف بوسائله الخاصة تجاه موقف ما، لكنه « يعالج » هذا الموقف على طريقتنا الخاصة. وليس هناك من أحد غير « الرجل اللاتيني، ساكن البحر المتوسط » يسمو قدرة ويتعالى منزلة ساعة الأزمات. كما أنه ليس هناك من يستطيع أن

يسلك سبلا ثابتة وقواعد موضوعة لحل الأزمات سواها، فلكل وسيلته الخاصة التي تتفق وشخصيته. ومن هذا يتضح لنا مفهومان للحياة الاجتماعية وطريقتان يواجهان بهما العمل والمسئولية والفعالية. و نستطيع أن نحصل على كل شيء من الرجل الانجليزي، عن طريق شعوره نحو تأدية الواجب. كما نظفر بكل ما نرجو من الرجل اللاتيني، عن طريق اعتزازه بكرامته.

وقد قيل عن ساكن الشمال كثيرا أنه يبذ الاثنين معا ويتسامى عليهما وأنا لا أعتقد بصحة هذا في جميع الحالات.

(٣)

لقد ساهمت بريطانيا في تقدم الحضارة الغربية بنصيب وافر، فكانت لها في هذا الميدان قدم راسخة، وكان نصيبها لا يقل عن مساهمتنا في ذلك إن لم يكن مساويا له تماما و إن كان مدى المساهمة يختلف عن مبالغ نصيبنا حتى أنا – لأول وهلة – ندهش من وضعنا في هذا المقام على قدم المساواة مع العائلة الأوروبية.

على أننا نجد أن الرجل الإنجليزي أقرب الناس إلى طبيعته الفطرية بحساسيته ووسائله الخاصة بين جميع أفراد الشعوب المتمدينة. أما الفرنسي فإنه – عن طريق محاولاته المتعددة في تعريف هذه الطبيعة وتحليلها وتصنيفها – يخاطر بتشويهها وإخضاعها لحكم العقل، وهي أبعد ما تكون عن هذا. وعندما يزعم الأمريكي أنه يتغلب على طبيعته

وسائل صناعية، فإنه يجهل ماما بعض قوانين التقدم. وقد تذوى حضارته بسبب هذا الجيل. أما جون بول الذي يمثل شخصية الرجل الإنجليزي عامة، فإنه يتمتع بقوة الإحساس والشعور بما للطبيعة الفطرية من أثر على الإنسان وما لقوانينها من إدراك غريزي. فنراه يتطور معها و يستخدمها ويفكر بها و يعمل من أجلها.. كل ذلك عن طريق استمالتها إليه أنها شريكة له في الحياة دون أن يتجاهل أن قانون الحياة يشتمل كذلك على عدم الكمال ؛ فهدفه في هذا هو : وجوب التكيف معها وعدم الخروج عليها، أي ملاينتها.

ومن هذه النظرة إلى الطبيعة البشرية يعالج البريطانيون مشكلاتهم، وقد ذكر الفيلسوف الإنجليزى باكون « Bacon » أنه لا مفر من طاعة الطبيعة ويجب ألا نطالب الطبيعة بشيء غير الطاعة لقوانيها. فإخوانه في الوطن وتلاميذه مضافا إليهما – نحن تلاميذ ديكارت – لم نشمخ بأنوفنا على الطبيعة أو الأشياء. ولن أعيد مقالتي ثانية من أن الإنجليز قوم محترمون : فقد يكون من المناسب أن ننعهم بأنهم قوم طبيعيون، وهذه الخصلة تنطبق عليهم تمام الانطباق، لا سيما وأنهم يعدون في صف أولئك الذين تغلب عليهم سلامة النية أكثر من الخداع والمسكر، لأنه إذا وجد أن انجلترا قد مارست الخداع والمكر، فلا بد أن يكون هذا في ظروف خاصة جدا وفي صورة الدفاع عن كيانها ووجودها في الجزيرة !

وسأتحدث عن شباب هذه الجزيرة كما تحدثت توا عن الجزيرة ذاتها : فالإنجليزي يظل طيلة حياته أشبه ما يكون بشاب لا يتعدى سن

الخامسة عشرة من بعض النواحي، ككائن حي. وهو يظل شابا على طريقة الحيوانات الصغيرة: فهو يتصف – في مجال معاملاته اليومية –– بسلامة الطوية والبساطة التي الامثيل لها ؛ و بالقياس إلى ما نراه بأعيننا الفاحصة المدققة – تجاه هاتين الصفتين في الرجل الإنجليزي –– نتهى بعد إعمال النظر وإجالة الفكر إلى أن هذا خارج عن حدود المألوف. وصداقته للحيوانات تفسر لنا، لماذا يظل متمتعة بالشباب، كما تبين عدم تعرضه للذبول. وأعتقد أن الرجل الإنجليزي يفضل الحيوان على الإنسان، وقد قرأت منذ عدة سنوات في صحيفة « التايمز » هذا الخطاب الموجه إلى رئيس التحرير : « سيدي رئيس التحرير، لقد لاحظت في حديقتي أمس، حضور فراشتين، ويعني هذا، ظهور الفراش أسبوعين في هذا العام على خلاف العادة ». من هذا نرى كيف أن صحيفة انجليزية تعد من أوسع الصحف انتشارا في هذه المدينة، تسمح لنفسها أن تنشر في إحدى صفحاتها هذا الخطاب. وقد سبق لي أن أشرت إلى هذا في محاضرة لي في انجلترا، وفي اليوم التالي عرض على بعض من استمعوا إلى محاضرتي بالأمس خطابا آخر نشر حديثا في صحيفة التايمز كذلك وقد جاء فيه : « سيدي.. في أسبوع المرور، وقعت حادثة هم القراء أن يقفوا على تفاصيلها، فعندما كنت في طريقي إلى جامعة أكسفورد هذا المساء رأيت كلبا يعبر الطريق على مهل أمام سيارتي فأبطأت سيرى منها إياه بإطلاق « نفير » طويل من السيارة فتوقف الكلب عن المسير، ثم هز ذيله ورجع إلى الوراء، وفي الوقت الذي جاوزت فيه مكانه، رأيته يقفز على الرصيف معبرة لي عن ش كره

وامتنانه محركة لطيفة من ذيله ».. وقد كان توقيع هذا الخطاب من لدن بعض الشخصيات الهامة جدا لدى جامعة

اكسفورد ويتضمن « الكتاب الأبيض» الذي نشر بعد قطع العلاقات الدبلوماسية بين انجلترا وهتلر قصة مشابهة لها خطرها، لأنها وردت في وثيقة رسمية. ذلك أن سفير انجلترا في بيروت أخطر وزير خارجيته، أنه أمر موظفات السفارة اللائي يتكون من خمس نسوة وكلبين، بالعودة إلى الوطن وهن آمنات مطمئنات، فهل نقصد هذه « القصة » مجرد المزاح والفكاهة ؟ وهل من التعليمات أن تدخل روح الفكاهة وزارة الخارجية البريطانية ؟.. نحن لا نعتقد ذلك، بيد أن من المؤكد أن شعبا يعرف طريقة التحدث هذه الطبيعة الفطرية عن الحيوانات ؛ لا يمكن أن يكون ماكراً أو خبيثاً.

إن الوفاء والثقة والبساطة تكون في مجموعها الدعامة القوية لحل مشكلاتهم وهي التي صنعت حياتهم.. وهي توضح كذلك – الأصولية والتمييز اللذين لا مثيل لها في العلوم والآداب الفرنسية. وفيما أعتقد، ليس هناك من أحد بداني البريطانيين في التحدث عن الطبيعة ونقدها، فهم قوم يحسنون التأمل والتبصر في الأمور قبل أن ينتهوا بها إلى نتيجة معينة دون أن يكون لزاما علمهم أن يصلوا إلى نتيجة بالضرورة، ذلك أنهم يشتهرون بالحكمة والاتزان في الحكم على الأمور وتقديرها حق قدرها ؛ وفضلا عن ذلك فإنهم يعشقون مثاليتهم أكثر مما يحبون أنفسهم بحيث لا تذوب شخصيتهم في سبيل ذلك الحب. وهم لا

يقتصرون في حبهم على الحيوانات التي يراقبونها بروح تفيض بالرغبة العاطفية بل إن حبهم يتعدى هذا إلى الأشجار والأحجار، وكل هذه الطبيعة المعدنية التي نقول عنها أن لا حياة فيها وهي في نظر شعرائهم ليست كذلك بالتا كيد. وأدهم يحمل طابعا مشابها لهذا، عند ما يكون هدفه دراسة السيكولوجية : فهم ينظرون إلى الناس في أناة، ودقة، وثقة ؛ كما كانوا يدرسون. التاريخ الطبيعي دون أن تكون لديهم – على الطريقة الفرنسية – النية في وضع قصة على غرار مسرحية كلاسيكية. وعلى ذلك، فقد جمعوا ثروة لا نهاية لها من الشواهد كأنها دار محفوظات لحضارة. وفي هذه الشواهد، يجد الباحث الفرصة ليساهم فيها عن طريق الدعابة أو بالأحرى عن طريق النقد ؛ لكنه لا ينفك أن يقبل على تحقيق ما خافته الطبيعة قبل أن يخلق.

ولكن، لا ينفصل نصيبهم في الحضارة في جانب الأعمال المالية والسياسية – قطعا – عن تطور حضارتنا. فهم لم يخترعوا نظام الاقتراض المالي قبلنا، ولكنهم مارسوه بطريقة لم يسبقهم إليها شعب آخر غيرهم. فقد تصوروه على أنه استجابة الثقة التي يستحقها الرجل الأمين الذي يوثق في كلامه أكثر مما يوثق في توقيعاته، غير أن الثقة المتبادلة بين أناس يعيشون معا في جزيرة واحدة هي – دون شك – الرباط الاجتماعي الذي يقابله الأجنبي عن بلادهم بكل دهشة واستغراب، ذلك أن عدم الثقة لا وجود لها فيما بينهم – على عكس ما يحدث في أي بلد آخر حيث يتطلب الأمر نوعا من الضمان الإقامة التوازن بين الأفراد والجماعات ولتحل الثقة فيما بينهم ؛ وأعتقد أن انجلترا هي البلد الوحيد

في العالم الذي يرفض إعطاء تأمين عن أمتعة لأي شخص بالنسبة للسفر داخل البلاد، ولم أسمع قط أن هذه الطريقة أثمرت نتائج غير طيبة.

إن كلمة « الجنتلمان » التي يوصف بها الرجل الإنجليزي قائمة على هذا المبدأ :: « مبدأ الثقة » فهي ترادف كلمة الرجل الأمين النزيه « Honnete Homme» في لغتنا في الوسط الاجتماعي والدنيوي. فالكلمة الأولى : لا تعني كثيرا من « أدب الروح » ولكنها تعني « أدب السلوك »، والمقتضيات الأخلاقية على مستوى عال : « فالجنتلمان » في هذه البلاد يوصف بأنه الرجل الذي يعرف كيف يصمد في العالم كما يعرف كيف ينتقي ملابسه، في الوقت المناسب والظرف المناسب، والذي يستطيع أن يتقها إلى درجة الكمال، ولكنه يخشى أن يؤخذ.

مأخذ الرجل الذي اتخذها كهنة له، وقد نطق ملاك « المودة » جورج برميل Jeorges Brummel بقول مأثور حضرنا في هذه المناسبة حيث يقول : « احترس ولا تتطرف في الاحتراس ».. والجنتلمان كذلك – هو : الرجل الذي يعرف كيف يحافظ على كرامته الخلقية حتى لا تمس، وهذا ما يفخر به كل إنسان، ولا أظن أن انجلترا قد انتهت إلى مفهوم أكثر قومية وأعظم نبلا من هذا المفهوم، فهل لي أن أفصح عن أني – أحيانا – أضيق ذرعا بتعريفات هذه الكلمة التي تحتاج إلى تعريف والتي تكون مقبولة على سبيل المزاح والفكاهة؟

وفي السياسة، ولنفس الأسباب وضعت انجلترا حاولا لمشكلات كثيرة، اتخذتها جميع البلاد الأخرى سندا لها لحل مشكلاتها. وقد

عامتنا بل برهنت لنا فعلا على : أن « الحرية والسلطة » ليستا فكرتين متناقضتين، وأن الإنسان يستطيع أن يطيع القوانين دون أن ينال هذا من كرامته، وأن الحرية لا تعي أبدأ الفوضى وعدم النظام.. وهذا – على وجه التقريب – تفسير المفهوم «كالفن Calvin» للمجتمع الذي لا يربطه بالسلطة الحاكمة إلا علاقات ضئيلة وهذا ما أخذت به الدولة الرومانية وليست الحكومة سلطة ذات خطر عظيم بحيث تفرض أوامرها على رعاياها، لكنها – ببساطة – تعد تعبيرا عن الصالح المشترك، ونوعا من « النيابة عند المجتمع الذي عليه أن يدير شئونه بنفسه ولنفسه

كفرد أو مجموعة من الأفراد، وبذلك لا تنطوي إدارة الأعمال العامة على نوع من السرية أو الخطورة أو الخسارة. أما عندنا – نحن الفرنسيين – فإن إدارة الأعمال، ليست توكيلا من المحكومين للحاكمين، بل هي من صنع الدولة، أي مستمدة من إرشادها.

ولا يقتصر إرشاد الدولة على إدارة الأعمال، بل يتعداها إلى السياسة الخارجية، و بخاصة إذا كان الهدف هو المحافظة على المصلحة القومية العامة، ورغم

بعد الشقة بين الإنجليز و كالفن Calvin فإنهم يعتبرون حقا تلاميذ له ؛ لذلك فإنهم يقدرون – عن إ أن قوى – أن قوانين علم الأخلاق، يجب أن تمتد إلى السياسة، ومع ذلك فإن هذا الشعب يجب أن يعيش...، وللأسف – فإن قوانين الحياة لا تتفق دائما في مثالية واحدة، وقد وجد لوثر Luther حلا واقعية لهذه المشكلة ؛ لكن الإنجليز كانوا

أقل شجاعة من « لوتر » وقد اعتنقوا « مبدأ كازاميان » Cazamian الذي ينادي « بالتفويض الضمني)... فرجل الدولة البريطاني يحاول في ممارسته للسياسة أن يحترم قوانين علم الأخلاق » بيد أنه إذا لم تسعفه هذه القوانين أثناء ممارسته لحل مشكلة سياسية، وتعارض هذا الحل مع سلامة الشعب، فإن « مبدأ التفويض الضمي» يسمح له بخرق قوانين علم الأخلاق دون مبالاة، وسنلقي عليه ستارة من النسيان. فهل نسمي هذا نفاقا، بلا شك، أم نفضل إطلاق اسم « الوقاحة البسماركية »؟...

(٤)

وبفضل النظام الإنجليزي أخذ العالم بنظام التبادل الحر في التجارة في القرن التاسع عشر، وقد دبت فيه الحياة من جديد وانتعشت من آثار هذا النظام، وعن طريقه نشأت علاقات اقتصادية ثابتة مكملة بين مختلف القارات. وعندما اتجهنا إلى الخارج في تجارتنا قبل عام ١٩١٤، كان هذا بمثابة الاتجاه إلى تكوين « جمهورية تجارية » تعمل تحت الرعاة البريطانية، وقد كانت تتبع الوسائل البريطانية في تنظيم تجارتنا، وكانت النتيجة أن استفاد جميع الأجانب مع البريطانيين – على قدم المساواة – من هذه الطريقة النظيفة، كما استفادت كافة الشعوب البيض من هذا « المبدأ البريطاني ». بشرط بسيط : هو ألا يرفضوا النظم المعمول بها في انجلترا. و بذلك أصبحت انجلترا – والحالة هذه – تلقى على العالم دروسا في الحرية، ولكن.. لم يفهم العالم – مع الأسف – معنى هذه الدروس، ولم يحسن القرن العشرون الظن بمبدأ

القرن التاسع عشر في التجارة. ولم يئس الإنجليز من سيادة هذا المذهب قفلوا راجعين إلى حظيرة هذه المبادئ التي تنادى محاربة تجاربهم الوطنية بفرض ضرائب باهظة على البضائع الأجنبية، كما عادوا إلى الاقتصاد الموجه، ومع ذلك ظلوا مخلصين كل الإخلاص لمبدأ حرية الفرد في المجتمع» ؛ لأنهم – بطبيعتهم – أعداء ألداء الاضطهاد والاستبداد. ولم تنجح الحرب ذاتها في أن تثنيهم عن تقليد عاشوه قرونا طوالا.. فقد ظلوا مؤمنين بأن الحرية منبع حيوي لا ينضب معينه للثروة والقوة.

ويبدو أن جميع الاتجاهات العميقة في هذا العصر – مع الأسف – تسير في اتجاه آخر، ومع ذلك فإننا نشعر في أعماق أنفسنا، أنه كلما ابتعدت بنا الخطى عن ترسم « المثالية الإنجليزية » كلما بعدت الشقة بيننا وبين الحضارة. واليوم، وقد جاوز النظام البريطاني حدوده، حيت يقف من نفسه موقفا دفاعيا. ففي موقف الدفاع اضطرت انجلترا إلى الأخذ ببعض المقاييس والمذاهب التي تتعارض مع تقاليدها الحرة، فكيف ستكيف انجلترا نفسها، بل كيف تستطيع أن تكيف نفسها مع هذه المقاييس الجديدة للولايات المتحدة و إنتاجها الصناعي ونظام التبادل التجاري وسلوكها في هذا الميدان ؟.. ولقد سبق أن نجح الرجل الإنجليزي بخصائصه التي تميزه ومواهبه الفذة التي اشتهر بها والتي تقتصر عليه دون سواه. وقد تهيأت له سبل النجاح كذلك نظرا لأنه كان يستفيد – في أوسع نطاق وأبعد مدى — من شبه الاحتكارات للفحم والصناعة.. وقد كان يركز عمله كذلك على أساس الحصول على ثروة ضخمة في العصر الذي يعيش فيه، ولقد كان يعتقد أنه

يعمل في ميدان يعج بالمنافسة، حيث كان هذا هو « الطابع الدولي » المميز في ذلك العصر، على أن مبدأ : « شق طريقك »،... كان يكفي النجاح الرجل الإنجليزي في إطار هذه الشروط. والآن أضحي الوقت، وغدت الوسائل لديها أكثر ضيقا من ذي قبل، ولم تعد وسائلها الأولى تلائم أي موقف الآن !.. فيجب عليها – في إطار منافسة أصبحت تجرى على أرض مكشوفة – أن تتغلب بتفوقها العظمي عن طريق عمل أكثر قوة وانطلاقا.

ولكي تفسر مقدار هذا النجاح الذي بلغه هذا « النظام الديمقراطي » – عن حق – في مؤسساته ومنظماته، يجب التنويه بأنه ظل حتى وقت قريب أرستقراطيا حسب ما جرى عليه العرف ودرجت عليه التقاليد في هذه البلاد : فالناخب كان ملك نفسه و إن كان محاوله – في أغلب الأحيان – أن تمنح السلطة لممثلي طبقة النبلاء وأصحاب الثروة وممثلي التقاليد القديمة، بحيث تؤدي هذه الديمقراطية وظيفتها على طريقة أرستقراطية. ولم تسطع الحرب العالمية الأولى أن تغير الكثير من هذا الوضع. بيد أن الحرب العالمية الثانية قد أشعلت ثورة حقيقية ضده، وقد أصبح الشعب – عن بكرة أبيه متساويا في الحقوق السياسية والاجتماعية والمدنية، كما آمن بأنه طالما ساعد في النصر يصبح له الحق بالتالي في المساهمة في بناء صروح الموضة والمشاركة العملية في كل ما يعود على وطنه بأجل الفوائد. وقد تخلوا عن النهج القديم الذي لم يكن يصل فيه إلى مقاليد السلطة وتسلم زمام الحكم في البلاد، غير تلاميذ الكليات الأرستقراطية. على أن هناك رجالا خرجوا من بين صفوف الشعب ونبتوا في ترتبه، ثم أصبحوا قادة في الاتحادات التجارية وموظفين قدماء في الوزارات ؛ و إذن فالتغيير الذي حدث هو في حقيقته « جامع مانع ». وسنحاول فيما يلي أن نبحث عن جواب له ذا التساؤل وهو : هل

سيتشكل هؤلاء القادة الجدد بطابع النخبة الأرستقراطية القديمة، وهم الذين تثقفوا عليها وانصهروا فيها، أمثال أولئك الذين وصلوا إلى مناصب كبرى في الصناعة في القرن التاسع عشر، ثم اندمجوا في طبقة النبلاء الإقطاعيين ؟.

ورغم أننا قد طرحنا هذا السؤال فإنا لا نستطيع أن نجيب عليه، وكل ما نعامه هو : أن انجلترا قد عرفت – حسب تعبير التوراة – بأنها تصب النبيذ الطازج في أوان قديمة !

الفصل الخامس

النظام عن الشعب الألماني

تعتبر ألمانيا – أردنا أم لم نرد – منطقة رئيسية هامة في مجموعة الدول الأوروبية، وهي توضح لنا بجلاء طابع التطور الحديث الذي يتجلى بأبرز معانيه عن أي بلد آخر، وهي – أي ألمانيا – تجاور أوربا الشرقية فضلا عن أنها على صلة بها دائما، ولذلك فقد تسلل إليها بعض العناصر الصقلبية، فهل يسوغ لنا كونها أوروبية حقيقية أن نقول عنها إنها غربية قلبا وقالبا ؟

إن أية دراسة لألمانيا – رغم مظهر القوة التي تبدو عليه هي في حقيقة الأمر في غاية الصعوبة وتحتاج إلى كثير من الجهد والمشقة، فهي بحق بلد التردد والتطور الدائم، وهي بلد سلبي، وهي على استعداد دائب لتقبل أي تغير رغم حبه للنظام. وهي – والحالة هذه – تعد بلدا ثوريا، وقد جنحت هذه الصفات إلى التطرف في تاريخ ألمانيا الحديث نتيجة لبعض التقلبات التي أدت إلى كارثة أودت نهائيا بملامح البيئة السابقة.. فما الذي بقي من ألمانيا القديمة في النظام الحاصر، والذي لا ندري أي اسم نطلقه عليه؟، فهو ليس ببناء سياسي، أو إقليمي أو اقتصادى صناعى، كما أنه ليس مجموعة مترابطة من العلاقات الخارجية. بيد أن الذي صمد وظل شامخا كالطود هو الشعب الألماني نفسه الذي

تحالفه الملحن القاسية حكم وقوعه فيها وهي في ذلك تحيط به وتضرب من حوله نطاقا يحاصره ولا يكاد يفلت منها أبدا أو يجد منها فكاكا.

(١)

إذا قررنا بصفة مبدئية أن الأرض الألمانية تفتقر إلى شخصية جغرافية، ربما اعترانا كثير من الدهشة وحتى نبسط القول نضيف إلى هذا : أنه في ضوء هذا الافتقار لا توجد أرض ألمانية، ذلك أن الإطار الجغرافي ينقصها، والحدود. الطبيعية المتعارف عليها ليس لها وجود، فلا ندري من أين تبدأ هذه الحدود ولا إلى أين تذهبي ؟ وعوضا عن ذلك فإنه يوجد شعب ألماني في خضم هذه الظروف. لا يكاد يعرف بعضه بعضا، كما أنه لا يريد أن يتعرف بنفسه ولنفسه على حدود... إن وحدته لا تنحصر في الرباط الذي يشده إلى الأرض التي يعيش عليها – كما هو الحال في فرنسا – بل إن الرباط هو : ضميره وإرادته في أن يشكل جنسا متماسكا له لغته وثقافته و إحساسه بالوحدة. وقد خلقت منه غريزته الثابتة – الفياضة شعبا لا تغيب شمس خطره عن أفق جيرانه، ومن هنا نشأت قضية لم تحل حتى الآن في أوروبا طالما أنه يوجد في قلب أوروبا بلد ألماني إما «غاز » أو « مغزو » وتتصف في ذات الوقت بالمرونة والاعتداء، ولذلك، فن الاستحالة بمكان إقامة أي بناء سياسي إقليمى دائم.

وتنقسم ألمانيا إلى ثلاثة أقسام طبيعية محددة تبعا لجيولوجيتها،

ومناخها وانحرافها جغرافيا نحو الشرق. فهناك ألمانيا الراين، وألمانيا الجبلية أي وسط وجنوب ألمانيا، وأخيرا ألمانيا ذات السهول الشاسعة الثلاجية المترامية الأطراف في الشمال وفي الشرق.. ويتميز القسم الأول من ألمانيا عما عداه بالصبغة الغالية، على حين يغلب على القسم الثاني الصبغة النمساوية والسويسرية، أما القسم الثالث والأخير، فهو يقترب من الصبغة الروسية، وفضلا عن ذلك فإن التقسيم الأساسي المميز المتعارف عليه يقع معظمه بين شرق ألمانيا وغربها أكثر من القسم الذي يحتل ما بين شمالها وجنوبها، وهذا التقسيم المصطلح عليه، يعد الخط الكبير الفاصل بين اتجاهات متعارضة متباينة حتى إنه يفرق في الحقيقة بين حضارات مختلفة تمام الاختلاف عن بعضها البعض، لا يمثله نهر الراين بقدر ما تؤكده جبال الألب. وعلى ذلك فإننا نشاهد ونحن على انحدارنا في أرض ألمانيا وفي ظل نظام الرايخ، أن ألمانيا تمثل محورين : محور الراين مع ألمانيا الجنوبية الذي يمثل أوروبا الوسطى بكل ما تشتمل عليه من مفان ومباهج عظيمة تكاد تستهوي الألباب وتسحر العقول، والمحور البرليني أو السهول الشاسعة وهو يمثل أوربا الشرقية، بكل مشتملاتها من ألمعية وفراسة ملحة مخادعة، أكثر من تمثيله لأوروبا الوسطى، غير أن هذه الألمعية وتلك الفراسة ليستا مأخوذتين عن الشرق نفسه، ولاعن شرق البحر المتوسط، بل عن شرق ألمانيا الصقلبية أو الروسية.. وأعتقد أنه بهذا التقديم وفي ضوء هذا الاستعراض العام السريع لألمانيا، قد تسنى لنا أن نلمس الوضع العام لها مما سيهيئ لنا فيما بعد أن نحسن فهم السيكولوجية الألمانية.

ويمثل وادي الراين بالنسبة لنا نحن الفرنسيين جزءا حقيقيا من بيئتنا، ذلك أننا حين نكون فيه لا نشعر بالغربة تقطع أوصال قلوبنا ولا يكاد الحزن يهز أعماق مشاعرنا من الحنين إلى أهلنا ؛ لأن سكان الراين ليسوا غرباء عنا. وفي مدينة « كولونيا» و إقليم «البلاتينات» وسلسلة جبال الغابة السوداء لا تختلف الطبيعة أدنى اختلاف عنها في بلادنا : فأنواع الأشجار واحدة ومناخاها متشابهان ولون سكانهما متحد، و إزاء هذا فإن «ألمانيا الراين» تحاور إقليم «الألزاس» وسويسرا والنسا تجاور كذلك في اتجاه خاص كثيرا من أقاليم فرنسا من ناحية الشرق مثل: إقليم اللورين وفرانسن كونته و بورجوني و « سافوى » تقريبا. وأوروبا الوسطى لا تجاور أوروبا الغربية فحسب، بل تلامسها أيضا ويمر محورها بسويسرا والراين، ولكن شخصيتها تتضح في الشرق حتى مدينة فيينا وفي الغرب حتى داخل حدودنا، ويظهر ذلك في بعض آثار لها في إقليم « لومبارديا ». فالحدود السياسية لا تمنع وجود وحدة حضارية هنا بيننا وبين الألمان، تلك الوحدة الحضارية التي أشعر بحقيقتها وجوهرها طيلة طفولتي في إقليم الألزاس الذي ولدت فيه، وتثير كلمة أوروبا الوسطى، البيئة الجغرافية والاجتماعية وطرائق المعيشة والإحساس والتفكير التي تقتصر عليها، وهي لا تفترق في هذه المعانى بتاتا عن أوروبا الغربية.

وتعتبر « ألمانيا الراين » تبعا لحضارتها التقليدية إحدى الأقاليم الأوروبية الأكثر أهمية في القارة، كما تمثل و إقليمها الجنوبي جزءا كاملا متكاملا من الحضارة الغربية كفرنسا وانجلترا وإيطاليا. وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي، أن التأثير الروماني يبدو عاملا حاسما في الجنس،

فقد ترك تأثيره لأعلى الشاطئ الأيسر من الراين فحسب، بل على الشاطئ الأيمن من نهر الدانوب، وها حدود الإمبراطورية الرومانية، وفي منطقة الاحتلال العسكري بين الراين والدانوب التي يطلق عليها اسم « الحقول الجرمانية »، وقد تركت روما في كل مكان سيطرت فيه آثارا لا تمحى : فلم تكن العائلة أو الملكية أو الحكومة أو الفرد كما كانت عند الشعوب التي لم تعش أبدا في ظل نظام السلم الروماني.

وقد نلمس هذا في وادي الراين وفي « ورتمبورج » وفي « بادن»، على عكس ما نلمسه في أقاليم بروسيا الشرقية، وهذه الاعتبارات جابت الثورة الفرنسية تقريبا طابعا من الغرب، و إننا لنجد في هذا الطابع حتى اليوم مفهوما من الديمقراطية جد قريب من مفهومنا ومن الملكية التي هي بحق – من عدة وجوه – مفهوما غربيا. فأي ألماني من المغرب – وبخاصة من الجنوب الغربي – يفهم فرنسا والروح الفرنسية أكثر من أي ساكسوني أو بروسى... و إذا ما حاولت توضيح ما يميز هذه الروح الغالية « نسبة إلى الغال » يبدو لي أنها تفسر نفسها بنفسها في تنظيم وتفوق للترف، وفيما يسميه الألمان بالحضارة المادية بدلا من الثقافة ؛ وذلك أنه قبل الحرب العالمية الثانية، كانت الحضارة المادية أكثر تقدما في فرنسا أو أنجلترا عنها في ألمانيا، وقد كنا نشعر لدى هذه الحضارة بالعطف على هذه السعادة المادية وعلى هذا الجمود في الحياة الخاصة القائمة فقط على الترف العائلي.. وتعرف فرنسا بأدب الروح وصفاء الحياة الاجتماعية و إشراق جنباتها، بيد أننا حين نتجه صوب الغرب قديما وفي سويسرا اليوم تجد مستوى عاليا للحضارة المادية التي سبق

أن حققتها أوروبا القديمة.

ولهذا الموضوع وجه آخر حيث توجد بيئة ألمانيا الغربية التي تبدأ حدودها من نهر إلب، أو من سلسلة تلال « تيتبوجير فالد » Teutoburger Wald و التي فقد فيها القائد الجرماني « فاروس» « Varus » نياشينه. وفي طريق – باريس – برلين الذي يمر بكولونيا والروهر، يعبر طريق السكة الحديدية إقليم « ويستهاليا » الذي جمله الرايخ بتمثالين تذكاريين للإمبراطور « غليوم الأول» وبسمارك.. ويدخل المسافر عبر هذا الطريق في سهل في تكوين ثلجي شاسع، يمتد دفعة واحدة حتى روسيا وسيبيريا، ولم يكن الرومان مجال في السيطرة على هذه المنطقة الشمالية من ألمانيا.. ولنترك المنطقة الغربية المألوفة لدينا، لندخل منطقة جديدة، وهي التي يصدق عليها القول بأنها قارة جديدة، تلك هي منطقة أوروبا الوسطى، بيد أن الإنسان يشعر بعد تجاوز درجة واحدة في العرض، أنه قد اتجه محو آسيا بغاباتها وأشجارها الكثة المتكاثفة، وهذه المنطقة عبارة عن سهول شاسعة متشابهة بين بعضها البعض ومسطحة، فضلا عن أنها تبعث في النفس لواعج الحزن والكآبة ؛ وهي أراض فقيرة يشبه الرمل فيها لون رماد الحريق.. أي أنه بعد الأشجار الكثيفة ذات المساحات الواسعة من إقليم الراين ؛ نلتقي بالفراغ والسكون في بقعة من الأرض لم يفلح استعدادها الحضاري في تهذيب عوامل الطبيعة وتشذيبها، وما يزال في غاباتها جزء كبير لم تمتد إليه يد الحضارة، وكثيرا ما يتلاءم هذا الطابع مع الرومانتيكية الألمانية، فهو يقرب الإنسان من القوى البدائية التي تتشابه كثيرا مع بعض السهول

في أمريكا الشمالية.. والحق أن انتصار على الطبيعة يبدو انتصاراً سطحيا كما يحدث في جميع القارات الأخرى، وواجبنا أن نتابع هذا الانتصار كل يوم ونواصل الكفاح من أجل الحصول على مزيد منه، وينبغي أن نكون مع الطبيعة – كالجندي في ميدان المعركة. ولم يدر بخلدنا ونحن في أوروبا الغربية أن انتصار الإنسان على الطبيعة فيها موضع شك، بل قد يكون الأمر عكس ذلك على طول الخط من مميزاتها.

ومن المفيد أن نقرر هنا أن فرنسا حولت جزءا كبيرا من غاباتها إلى ما يشبه الحدائق والمتنزهات بفضل العمل الدائب المتواصل للإنسان.. وليست ألمانيا الشمالية الغربية – التي تعد من طبقة أخرى – إلا امتدادا للمغرب، وذلك من الناحية الجغرافية.

ومع ذلك فإن الغرب ما انفك موجودة في ألمانيا الشمالية الغربية بروحه – أو على الأقل – كان موجودة بهذه الروح قبل « مؤتمر بالتا » وقبل الستار الحديدي. ولقد كانت صورة هذه الروح تتمثل في المدن الفخمة الحديثة التي كان يبدو أنها قد أقيمت وأعدت من فراغ كان يحيط بها. وتتبدى هذه الروح في تكاثر الأبنية الشاهقة ذات النسق الواحد وعلى صف واحد، وهي تذكرنا بالمباني القوية في المدن الأمريكية، ولكنها تخلو من عنف سياسة التدخل البروسى الموجة الذي لا يستقر على حال. وفي برلين خاصة – التي تنتصب أنقاضها المؤثرة في صمت، تحوطها أكوام من الرمال وغابات – نلمس دون أي مكان آخر مغري الإنشاءات التي لا تمثل حال أصولية هذا الشعب في هذا

الميدان، بيد أنه قد قصد من ذلك على وجه الإجمال: إثبات وجود الغرب في هذه الأراضي التي ليست غربية من الوجهة الجغرافية، وهذا يوضح أحد الأسباب الاختلافات الضرورية بين ألمانيا البروسية وفرنسا. ونحن الفرنسيين لا نعرف إلى أي حد نحن متحضرون بل – أريد أن أقول إلى أي مدى فقدنا الاتصال بالطبيعة البدائية لنتكيف مع كل الظروف ؟... وقد حرص الألمان على نقيض ذلك.. على الاتصال بالطبيعة البدائية، وقد أثر ذلك على تفكيرهم وحفظ لهم مكانتهم ومنزلتهم.. فعلى بضع كيلو مترات من برلين تقوم غابات هي أقرب إلى الشبه بغابات روسيا من غاباتنا، ولا تبعد السهول الشاسعة الممتدة في الشرق كثيرة عن برلين ونحن نشعر – ونحن في هذا المكان – أنا على مقربة من أجواء الشرق، كما نشعر في بلادنا أننا على مقربة من أجواء المحيط الأطلسي حتى لو كان بعيدا عن أنظارنا، ويوحي هذا المكان بحرية التفكير التي تبحث مخيلتنا عنها حيث البحر والفضاء و بالأحرى، فإن الألمان قد دأبوا على البحث عنها في اللانهائية للفضاء الروسي من ناحية الشرق، حيث التوسع الاشتراكي القومي الذي كان يعتقد الروس أنهم سيجدون فيه موئلا للحرية، ولا نخدع أنفسنا حين نقول : إن الأطباء الألمانية لم تكن تجذبها نحو الغرب بل نحو الشرق، لأن التعبير المائل دائما في أذهان الأمريكيين لكلمة الحدود، قد صور لهم – لوقت طويل جدا – الاتجاه نحو المحيط الباسفيك مما دفع الألمان إلى أن يجدو في هذا التعبير أحقية لهم في هذا المحيط ذي الأرض البكر التي تبدأ من أبواب ألمانيا وقد كان برنامجهم : أن ينظموها ويستغلوها.

وحين نتحدث عن ألمانيا يجب أن نضع نصب أعيننا خريطة الفتوحات الرومانية، وهناك خريطة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها –، وخاصة إذا تحدثنا عن البلاد التي تقع في شرق نهر إلب – تلك هي خريطة تقدم المسيحية.. و يتضح من ذلك أن لا الفتح المسيحي» قد بلغ خط الراين في القرن الخامس، وخط نهر إلب في القرن التاسع. وأما الإقليم الذي يقع بين إلب وروسيا فقد اعتنق المسيحية فيما بين القرن التاسع والثاني عشر. ولكن روسيا الشرقية و بلاد البر البلطيق لم تؤمن بالمسيحية إلا فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، ولا يسعنا إزاء ذلك إلا أن نقدر التحول إلى اعتناق المسيحية الذي ما زال قائما حتى الآن في شرق نهر إلب وعلى الأخص في شرق « الأودر» ؛ ولدى أهل هذين الإقليمين – عن طريق الروح الجرمانية – منبع من شباب رومانى و مسيحي منذ ما يقرب من ألفي سنة لا تملكه فرنسا. ونحن نملك. فيما يتعلق بالماضي التاريخي – ألفين أو ثلاثة آلاف من الأمتار المائية في البحر، على حين لا تملك بروسيا الشرقية من هذا القدر إلا أربعمائة أو خمسمائة متر، وقد قص على وكهام ستيد Wickham steed أنه أثناء حديثه مع اثنين من أهالي كاليفورنيا، طلب منهما أن يحدثاه عن ذكرى أثر قديم محير لبلدها، فأجابوه بعد لأي إلى تعريفة رئيس الولايات المتحدة « ماك كينلي » الذي وضع نظام حماية التجارة الداخلية. وقد ذكرت هذه القصة كمثل نموذجي عن أمريكا في محاضرة ألقيتها في برلين عام ١٩٣٠، وقد أذهلت الحاضرين من الأوروبيين، ولكن حدث أن تقدم إلى أحد المستمعين وذكر أنني استخففت بنفسي حين قدرت

في جمهور المستمعين أنهم سيشعرون برد الفعل هذه القصة شعورى برد فعلها لدى. فقد شرح لي أن الماضي التاريخي لبرلين قصير جدا نسبيا، ومن أجل هذه المناسبة، بل أكثر منها يشعر سكان برلين إلى حد ما – أنهم كسكان كاليفورنيا في هذا المقام.

ومن وجهة النظر هذه، يبدو طابع الدولة الألمانية لنا الآن في غاية الوضوح، كما يبدو التأثير الذي مارسته أو حاولت أن تمارسه في كل من أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية. وفي هذه البلاد ذات الدعامة البربرية والجاذبية الشرقية، كان الدور التاريخي للجرمانية هو أن يقيم دعائم النظام الغربي. ولقد حققت الإمبراطورية النمساوية – الهنغارية منهاجا من هذا النظام في دول البلقان في ظل شروط مريحة ومعقولة في نفس الوقت. ولم تعترف ألمانيا من جانبها بحدود الغرب، بل أخذت تعمل على توسيع رقعة أراضيها، غير أنها لم تنجح أخيرا حين صورت عملها هذا بأنه نوع من الاستغلال موجه عن طريق قادتها باسم تفوقها وسموها على بقية الدول الأخرى.

وبقدر ما وجدت أوروبا الوسطى نفسها مدعمة في الشرق كما في الغرب بأقاليم تشاركها مصيرها وأهدافها، قامت بدور رئيسي قام عليه توازن القارة. كلها. ولكن تعرض المنطقة لبعض الحركات الثورية من جانب الشرق قد جعل منها منطقة لا حدود لها، و بتغيير وضعها هذا لم تعد تلعب في « أوروبا الحطمة » نفس الدور الذي لعبته في الماضي. غير أن ما يبعث على الدهشة هو : كيف يصبح موقف حديث جدا

قديما مغرقا في القدم في نفس الوقت : فحدود الاحتلال الأنجلو أمريكاني، كما اتفق عليها في « يالتا » هي – بالتقريب – حدود إمبراطورية شارلمان.

(٢)

إن الشعب الألماني هو من أكثر شعوب العالم تحدثا عن أصل الجنس الذي ينتمي إليه، بيد أن هذا الشعب ذا الجنس الأصيل لم يتوحد عنصريا، حيث يعيش في وطنه ثلاثة أجناس تختلف تمام الاختلاف وهم : الجرمانيون، الألبانيون « نسبة إلى جبال الألب » والصقالبة :

فالجنس الجرماني هو الذي يشكل الدعامة الأساسية للشعب بل جوهره. – إذا تجاوزنا في التعبير – فهو ينحدر من الجرمانيين أثناء الغزو الروماني، وقد اتخذ الفرنجة وقبائل من الجرمانيين من نهر الراين مقرا لهم « Helemano » ومن هذا اشتقت كلمة « ألماني » وقبائل البيرجوند «Burgondes» الذين أقاموا على شواطئ الراين في القرن الرابع، هم الذين يكونون الستار الأول للغرب، ثم أتي من بعدهم في شمال ألمانيا ووسطها قبائل الساكسونيين والقوط والقندال، ومن ورائهم تتابعت قبائل الصقالبة، ثم قبائل الهون في روسيا – وهي قبائل صينية قديمة – وقبائل أخرى من المغول. وحين نعود بذاكرتنا إلى عشية الحرب العالمية الثانية، نجد أننا نصادف في اتجاهنا صوب الشرق من

الغرب جرمانيين وألبانيين وصقالبة وشعبا من التتار. وعلى الأخص في الشمال الغربي بين نهر إلب و بلدة تورانج في بولندا وبحر الشمال فقد تجمعت شعوب جرمانية في هذه المنطقة في كتل متراصة متكاثفة. وفي هذه المنطقة بالذات يوجد المجال الحقيقي للجنس الجرماني الذي يشمل دول اسكندنافيا وخارج أوروبا، وأجزاء من انجلترا والولايات المتحدة، ولم تتغير الخصال التي يتميز بها هذا الشعب منذ الغزو الروماني إذا ما وضعنا في اعتبارنا وصف المؤرخ اللاتيني تاسيت (Tacite » حيث يقول: « الجرمانيون قوم مستطيلو الجهة طوال القامة، أقوياء البنية، شقر اللون، زرق العيون، يتمتعون ببشرة وضاءة ». وقد أبان الكاتب الفرنسي جوزيف أرتر دى جوبينو Goseph Arther de Gobineau مبدأ تفوقهم، و بذلك يكون قد أيد فكرة الألمان والأنجلو ساكسون في تفوق جنسهم على بقية الأجناس. وطبقا لهذه القضية لم يعد ساكن الشمال أكثر فهم وإدراكا من الصقلي أو اللاتيني، بل إنه يفوقهما خلقا وجدية، وبما يسميه الأمريكيون « الشعور بالقيادة » أي حسن الاستعداد للرياسة والسيطرة. ويعد الألماني نفسه – في إخلاص يشوبه شيء من السذاجة – أنه من جنس متسام عن بقية الأجناس فهو يقارن نفسه في خر إما بالجنس اللاتيني الفاسد الخلق وإما بالصقلي ذي الجنس الأدبي الذي يبدو أن زعامته عادية وكأنها قول لا فعل.

ومن الألمان طبقة ليست من الجرمانيين بل من الألبانيين، ويطلق عليهم الكلت وهم يقطنون إقليم « بافاريا » ومقاطعة « ورتمبرج » و بلدة « باد » و هم قوم سمر البشرة ذوو قامة متوسطة صغار الرءوس،

وكلما اتجهنا صوب الجنوب الشرق نجد قصر القامة واضحة لدى سكان هذه الجهات، حيث يقتربون في قصر القامة من المساويين والسويسريين وسكان إقليم «أوفيربي »، في بلادنا Auvergne. وحين نتجول في ألمانيا لشد ما تعترينا الدهشة من عدد كبير من الناس ليسوا في خلق أهل الشمال. فهم لا يشعرون كثيرا « بالنعرة » الجرمانية ولا حتى بالعنصرية. فليس هناك من شيء يدعوهم إلى ذلك.

وهناك ملاحظة جديرة بالاعتبار، وهي أن ألمانيا، في الواقع – وعلى خلاف اعتقادنا السائد – يغلب عليها العنصر الصقلي عن أي عنصر آخر، فقد وصل الصقالبة في غزواتهم فيما بين عامي ٤٠٠ – ٧٠٠ بعد الميلاد حتى نهر إلب وألمانيا الشرقية كلها، و بذلك امتزج الدم الصقلبي في الأراضي الحالية لبروسيا الوسطى والشرقية «وسيليزيا » و « ساكس » بدم مواطني هذه البلاد الأصليين وهم « البوروس » « بوروسيا الشرقية » واللاك (بولونيا) والفاند (غرب برلين) والسوراب (ساكس). وقد غزا الجرمانيون في القرون الوسطى هذه البلاد التي ليست مجرمانية أصلا، كما كان فرسان التوتانيك الذين شيدوا هذه الولايات من أكبر عملاء الاستعمار وعلى نطاق واسع، وقد أصبح « البوروس » الذين اعتنقوا المسيحية بعد الوثنية هم البروسيين – وقد تحدثنا آنفا عن روح هذه السياسة ومسلكها : ألمانيا قد تغيرت الآن في حقيقة مظهرها، نفسه، وعن طريق أثر لطابع قوى. وعند ما كنا نعبر بالأمس حدود المنطقة – لأن تيارا مضادا هو في طريقه لحو هـ ذه الآثار الزمنية – التي تطالب الإدارة البروسية. باستردادها، كنا نشعر بأننا قد

انتقلنا من قرن إلى قرن ومن حضارة إلى أخرى بعد مجاوزتنا بضعة أمتار من هذه المنطقة، وعند هذه النقطة كان ينتهي الغرب، وهناك علامة نستطيع أن نوضح بها حدود هذا الخط الذي أنشئ بواسطة الرومانيين على طول حدود إمبراطوريتهم. ومع ذلك فإن وجود الصقالبة في هذه البلاد يظل أمرا مجهولا، وقد تسلل الغزاة إلى « سيليزيا » « و بروسيا » حتى « ساكس ». وإنما نؤكد وجود الصقالبة في هذه البلاد نظرا لأن الكلمات كثيرا ما تنتهي بالمقطع « از » itz أو « إنزا » itza وفي أسماء الأشخاص بالمقطع « ٠ ». وفي ضوء التأمل في هذه الملاحظة نستطيع أن نلمس سيكولوجية هذا الشعب. ويتظاهر أهل برلين بالمرونة التي يستتر وراءها العنف، وكم نلاحظ الفرق البين بين لهجة البروسى حين يتحدث الفرنسية ولهجة البولوني أو الروسي، وخلف ستار من الصلابة الخادعة يطل التردد برأسه، ونحن نشعر أن ألمانيا الشرقية عبارة عن بنيان جرماني يفوق أي بنيان آخر يغطى بوساطة عمد قوية تخفي تحتها مستنقعا صقلبيا.

ولا يكاد يخرج التأثير الشرقي في هذه المنطقة عما ذكرنا آنفا. والآن نرى إلزاما علينا أن نتحدث عن اليهود رغم هذا السيل العارم من الاضطهاد الهتلري. ونستطيع أن نميز بسهولة بين هؤلاء الحركتين: الأولى حركة اليهود الذين اتخذوا الروح الغربية ديدنا لهم في القرن التاسع عشر، ويمثل هذا النوع يهود « فرانكفورت » وهم رجال ماليون من أعلى طبقة، و يتبعون الاقتصاد الأوربي في معاملاتهم : و يهود برلين الذين قبلوا في الوظائف الرسمية للإمبراطورية وهم الذين تكاثر عددهم

بعد عام ١٨٧١، وقد رمز إلى تكاثر عدد اليهود بإطلاق البرلينيين على شارع المنظر الجميل (اسم شارع ليفي الجميل » في عام ١٨٩٥، ولا يفوتنا أن ننوه بالدور الكبير الذي لعبه اليهود في العمليات المالية في ظل حكم « بسمارك». وقد انتشرت جماعة أخرى من اليهود على طول حدود ألمانيا عامة وفي برلين خاصة وذلك نتيجة الحرب العالمية الأولى. وقد كان هذا النفر من اليهود أشبه بقوم رحل أقل احتكاكا بالغرب، وكانوا يشبهون تمام الشبه اليهود المغيرين على نيويورك.

غير أن ما يثير في هذا بحق هو قوة تأثير هؤلاء اليهود في ظل جمهورية « فايمار » Weimar. ولم يقتصر هذا التأثير على المال، بل تعداه إلى جميع الأعمال الأدبية والفكرية وغيرها، فقد امتلكوا عدد وفير من دور السينما والمسارح والصحف والمتاحف حتى أصبح معظم من يزاول مهنة الطب من اليهود، وشمل هذا التدخل المتشابك قضية التدخل في الفن والإعلانات المالية والدعاية للشيوعية. وقد ألقي بعدد لا بأس به من السوفييت في العاصمة الألمانية، وكانت تظهر أعمال هؤلاء بطريقة روسية قائمة على الخداع، ولم تكن قائمة على طريقة غربية. وحين نقارن برلين بنيويورك قبل الحرب تجد أن نيويورك قد اتجهت في إحدى مراحلها نحو الروسية البلشفية. وتلك حقيقة لا تحتاج إلى برهان، وهناك إحدى العواصم القديمة التي تمثل هذه الحقيقة التي لا جدال فيها وهي « برسلاو» في بولندا، وقد مارس اليهود فيها الحياة الألمانية عن طريق منهاج خاص تدربوا عليه. وهذه العاصمة القديمة المتعصبة لغربيتها في إطارها الخارجي، كانت تخفي في نفسها بذور

خداعة من الشرق بسبب وجود اليهود فيها.

وقد أدت كل هذه الظروف مجتمعة إلى الاضطهاد المعروف الذي حدث في ألمانيا والذي لم يخف أمره على أحد : فوجهتا النظر الألمانية واليهودية كانتا مهيأتين لوقوع مثل هذا الاضطهاد الذي ليس له نظير، ومع ذلك فليس في إمكان الباحث أو المؤرخ – حتى يومنا هذا – أن يتجاهل الأثر اليهودي في تكوين ألمانيا، وقد أشار بسمارك في غير أسف إلى هذا حيث يقول: «لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نقلل من أهمية اندماج اليهود مع بعض الأجناس الألمانية رغم ما فيهم من انحطاط خلقي». ولا يقوى الفرنسي من الناحية الغريزية على فهم اليهودي لأنه تنقصه القدرة على اكتساب مودته والظفر محبته عند الاتصال به، ولذلك فإنه غالبا ما يخطئ في التمييز بين خصال اليهودي الألماني والألماني الجرماني. والواقع أن اليهودي الألماني يختلف تمام الاختلاف عن أي ألماني غير يهودي حتى لو أصبح مهيئا أو معدة لكي يكون فوق مستوى الألماني الجرماني نفسه لأنه لا يتخلى عن التفكير والتعبير بعقليته اليهودية الأصلية. ويتضح هذا الاختلاف في أسلوبه وطريقة تعبيره وطريقة مناقشة القضايا والبرهنة عليها، ويصحب ذلك كله وضوح الفكرة وضوحا تاما مما لا يتفق مع طبيعة الألماني الجرماني، و يبدو لي أننا نلمس هذا – مثلا – في مؤلفات الشاعر الألماني اليهودى هنرى هين Henri Heine، والكاتب اميل لودويج Emile Lowdwig. وقد نما العنصر الإسرائيلي بحيث أصبح جزءا لا يتجزأ من « البنيان » الجرماني، بالإضافة إلى أنه قد غدا من العسير على أي إنسان أن يفرق

بين الألماني اليهودي والألماني الجرماني، وعلى ذلك فمن اليسير علينا أن نشاهد انحصار « مر كز الجاذبية » السيكولوجية هذا الشعب الألماني في ظل كل من الإمبراطورية والجمهورية، وهي سيكولوجية موزعة بين سيكولوجية الشرق والغرب. والحق أنه يوجد الآن بلدتان ألمانيتان بأجناسها المتشابكة المتداخلة بعضها في البعض الآخر بشكل لا يوصف ولا يغير من وضع المشكلة.

وتتمخض عن هذه الملاحظات ذات الطابع العنصري نتيجتان هامتان : النتيجة الأولى هي أهمية الجنس في المفهوم الذي صنعه الشعب لنفسه و بنفسه. فبالنسبة لنا نحن الفرنسيين نجد أن الإطار العام لمفهوم شعبنا عبارة عن حضارة وأرض لا غير. أما ألمانيا فمفهومها ينحصر في الجنس أكثر ما ينحصر في الأرض، فالمصير الألماني هو نفسه مصير الجرمانيين على عكسنا، فلا نقول : إن مصير فرنسا يتلخص في ذات مصير اللاتينيين والكلت والجرمانيين، وقد نجد شيئا من السلطان في هذه الإرادة لجنس مهيأ لسيطرة وتنظيم أجناس أخرى تعتبر نفسها أقل منه جنسا. والشعور بالمساواة بين الأجناس وهو شعور طبيعي في نظر الفرنسيين يظل أمرا شاذا لدى الروح الجرمانية. وربما تكون هذه هي العقبة الأكثر خطورة التي تتعارض مع استتباب السلام الدائم في أوروبا، وبخاصة في أوروبا الوسطى : فلو كان الجرمانى اعتبر الصقلي متكافئا في الجنسية معه في سلك الدرجات الجنسية للقارة، لاتخذت المشكلة في أوروبا وجها آخر.

والنتيجة الثانية، هي أن الألماني الذي ليس بغربي أو شمالي على وجه الإطلاق تصبح له القدرة على الاتصال والتعامل مع روسيا، تلك القدرة التي لا يملكها بأي وضع من الأوضاع. و بفضل احتكاكه بالعالم الروسي قديما ورغم وجود بولندا كمنطقة فاصلة بينهما، نلاحظ أنه على مقربة من الجو الروسي ماديا ؛ وهذا ليس بغريب عليه حتى لو شعر بتهديد وطغيان هذا الجار البربرى، و إذن.. فهذا يفسر التأثير الألماني في بطرسبورج أيام حكم القياصرة، وفي موسكو من بعدهم. وقد كان من نتيجة هذا الاحتكاك الطويل المدى أن أصبح الألماني على معرفة جيدة ودراية فائقة بأساليب و كيفية التعامل مع سكان شرقي أوروبا وغربي آسيا، و إذن فقد كانوا يتعاملون معه بالطبع؛ لأنه كان في بسطة من الرزق ولأنه يتمتع بخبرة فنية بل على أنه وسيط أعمال وعميل وموظف كذلك على وجه التقريب. وقد كان لدى حكومة القياصرة مناصب كثيرة للضباط العظام والسفراء والوزراء الذين كانوا ألمانيين قلبا وقالبا، وحين تحدث بسمارك عن سفارته في مذكراته، ذكر أن هؤلاء الألمان — أعضاء السفارة – كانوا أكثر نفوذا وأعظم من الروس أنفسهم، و إني لأقرر أن الروس والألمان لا يحبون بعضهم بعضا، فما هي الأسباب التي تؤدي إلى هذه الكراهية لدى كل مهما؟.. ومع ذلك فإن البلدين يشتركان في هذه الكراهية الناتجة عن نوع من القرابة البعيدة ذات الجذور المتداخلة تداخلا غير واضح وليس هناك من تفسير لهذا الاشتراك.

ولكن كيف منيت ألمانيا بهذا الفشل الذريع مع ما تملك من ثروة في عناصرها الجنسية ؟ ذلك أن اندماج هذه العناصر في بعضها البعض

أو تشكيلها، لم يثمر النتيجة المرجوة. ولأن كل جنس من هذه الأجناس يعمل حسب ما يهوى أو ضد ما يهوى، وقد أصبح عاملا من عوامل بث الفوضى والتحريض على التخريب، وقد نشأ عن اتصال اللاتينيين بالجرمانيين ظهور قوة خارقة في التحليل عند الألمان. وقد لعب العنصر البروسى دورا كبيرا في قدرة التنظيم لدى هذا الشعب، كما غرس فيهم « العنصر الصقلبي » نوعا من التصوف ؛ ولكنه تصوف يخلو من الاتزان والاعتدال، وقد كان كل عنصر من هذه العناصر يسمو بنفسه و يغزو مكانا غير مكانه حيث كنا لا ننتظر ظهوره فيه، وعليه فلم يكن هناك اندماج سليم بين هذه العناصر، بل تراكم قابل للانفجار.

(٣)

كلنا يعرف مسرحية پيرانديلاو (Pirandello » التي عنوانها «ست شخصيات تبحث عن مؤلف».. وتعبر هذه الشخصيات عن وجودها، غير أنه ينقصها الشكل الذي يستند وجودها إليه، ولا يمنحها هذا الشكل غير التدخل الخارجي، وهذه هي حالة الروح الألمانية الغنية بطاقاتها وإمكانياتها والتي لا تتطلب غير التعبير عن نفسها، وإن كانت مع ذلك جادة في البحث عن شكل تتخذه في الخارج؛ لأنها لا تملك القدرة على أن تستمد شكلها هذا من داخل نفسها، وعلى حين تتضح روح الفرنسي في حضارته، نجد أن الألماني لا تتبدى روحه في سلسلة التغييرات التي لم تكشف أية واحدة منها أخيرا، أن لها خاصية البقاء، وتظل روحه على الدوام في حالة تغير، وهو لا يقوى على معرفة أسباب

الأمور.وشواهدها. ولكني أعتقد أن الألمانيين يشعرون – في الأصل – بميل خفي نحو التردد في البت في الأمور مما يدع لهم أبواب المستقبل مفتوحة – كما يعتقدون حتى لو كانت هذه الأبواب داخل متاهة لا قرار لها !...

وللشعب الألماني مفهوم فلسفي وطريقة خاصة يختلفان كل الاختلاف عن مفهوم وطريقة الشعب الفرنسي فالمفهوم الأول يمثل وجهة النظر الديناميكية. « النشاط المتدفق »، والثاني يمثل وجهة نظر الاعتدال أو التوازن. والاعتدال أو التوازن في نظر الفرنسي هو : تحقيق الأمر والانتهاء منه على أحسن صورة من الصور بحيث يكون ذلك في درجة الكمال، أما الألماني فيري في الانتهاء من تحقيق الشيء أن يكون على أية صورة ولو لم تراع فيه الدقة أو الإتقان، وقد يكون هذا أمرا لا غبار عليه، ومثل هذا الرجل قد يصبح غير قابل للتطور، وعلى ذلك ينحصر كل همه في الانتهاء من تحقيق الشيء دون النظر إلى الفائدة المرجوة منه. وعلى العكس كذلك، يتمثل جوهر الحياة للرجل «الديناميكي» في أنه حركة، فهو عبارة عن تيار جارف لا يعرف له اتجاه بيد أن القوى الروحية الكامنة فيه تؤدى إلى نوع من التحمس للعمل يصل إلى درجة التصوف. ونحن تعارض في أن هذا التغير المستمر يظل إلى الأبد ذا قوة.

وتصور الألماني للفكرة عن الفرد يختلف عن تصور الفرنسي. ونحن نعترف أن الألماني يحيا حياة روحية جادة وعميقة و إن كانت

مضطربة كامنة في أغوار نفسه، حتى إنه لا يستطيع التعبير عنها، والمقصود بهذه الحياة الروحية « تقوى» لا تتحدث عن نفسها، متحررة من كل تجاوب مع الحركة والنشاط (ماعدا السياسة) و بإحساس شبه تصوف وباعتقاد راسخ وفي إيمان بأن الله هو كل شيء في الوجود وأن كل شيء في الوجود هو الله، وباتصال روحي مع الطبيعة ومع القوى الأولية للهواء والشمس ؛ ويعجز التحليل والتعبير عن تصوير حالة نفسية مشابهة كهذه، فإذا ما أراد الألماني أن يتجاوب مع حالته النفسية هذه ؛ فإنما يكون ذلك عن طريق وسائل أخرى غير التحدث عنها بالكلام الموسيقى والغناء مثلا، وأحيانا أخرى يكون بالصياح واللعنات، وهذا يفسر التأثير العجيب على نفوس المستمعين من بلاغة الخطب الهتلرية التي كان يصعب على المرء فهمها و إن كانت ذات سحر قوى. ويعتبر النثر الألماني – كوسيلة للتعبير – أداة عارية عن القوة والجاذبية، فهو نثر ثقيل يتميز بالشطط ويخلو من الحركة والحياة. ويعتبر الشعر الألماني رائعا عظيما وإن كان صعب الترجمة إلى لغات أخرى، وهو يتجاوب مع الإنسان نفسه مباشرة، وحين يكون لزاما على الفرنسي أن يجد في البحث عن حالات نفسية تشبه ما لدي الألماني – من خلال تجربته الشخصية – فإنه قد لا يجدها إلا في فترة طفولته الأولى، قبل أن ينضج إدراكه وفهمه ويكتمل.

وتتضح الحالة النفسية لدى الألماني في القليل النادر – وكل ما نستطيع أن نلمسه فيه ويثير دهشتنا هو : فراغ نفسه وخلوه من الشخصية، وقد كتب الكاتب الفرنسي جاك ريفيير « Jacqals Riviere

» يقول : لندرسهم من أول نشأتهم قبل أن تصبح الإرادة الحديدية التي اكتسبوها جزء من حياتهم، فقد كانوا «نكرات » وكانت رغباتهم لا تهدف إلى شيء كما كانوا لا يتعجلون أمرا ولا يأملون في شيء»! ومن هنا كانت هذه النتيجة التي جعلتهم قوة ليس لها فعالية، و إن كان لديهم طاقات وإمكانيات وفيرة. و إذن فهم على استعداد أكل احتيال وخاصة أنهم لا تنقصهم المرونة. ولذلك فإن أية حكومة تستطيع أن تصنع من الألماني ما تريد، وهو الذي لا يعرف إلى المقاومة سبيلا، غير أنه يكمن فيهم استعداد فطري لكبح جماح الحكم حين تستبد بهم الدولة أو يستبد بهم الحكام، كما ينطوون على روح داخلية قوية. وفضلا عن ذلك فإن الألماني إذا لم يعرف ماذا يريد، فإنه يريده – بقوة في اللحظة التي يريدها شخص ماله.. ويقول جاك ريفيير في مكان آخر من كتابه : « إن الإرادة تحتل كل شيء فيه وهي إلا تفارق بقعة ما من بقاء ألمانيا، ويترتب على هذه الإرادة متاعب جمة قد تكون هي الخاصية الوحيدة التي ترشده وتلهمه في حياته » وفي كل مرة تثار فيها مثل هذه الإرادة، تجمح ولا يعرف لها حدود، لأنها تستخدم بأسلوب أكثر فعالية من ناحية صاحبها، ويفخر الألماني بصفات فريدة في نوعها: صفات تلميذ مجد، ومن هذه الصفات : الإرادة القوية على عكس الإرادة النفسية الضعيفة..

إن هذه الإرادة ترفع من شأن صاحبها لأنها إرادة نشطة مثابرة تسبر غور الأشياء وقد يتملكنا في بعض الأحيان الشعور بأن حب العمل، والعمل غير المعقد، وحب العمل لذاته، له دوافعه وأسبابه إلى حد ما، وهم يلجئون إليه لملء فراغ متأصل فيهم أكثر من الرغبة في الإنتاج. وعندما

يسيطر أسلوب العمل على روح جرمانية فإنه يستغرقه جميعه، ولهذا فإن الألماني يعد فدائيا لهدفه، إيجابيا في عمله، لدرجة أنه إذا أطلق له العنان مرة، فإنه يمضي في طريقه لا يلوى على شيء غير معتمد إلا على طريقته الخاصة، وبهذا يصبح وكأنه ممتزج بالعمل الذي يجد في متابعته، متحررا من كل قيد، ومن كل مأخذ يؤخذ عليه، وهو منطق مع نفسه في ذلك. وهذا يفسر لنا لماذا يبدو كرجل ثورى منطلق في بعض أعماله، وإذا عددناه رجلا محافظا فإننا نغالط أنفسنا، فنحن نراه مثلا ينادى بإتباع الكوبيزم (الرسم الجسم) و بتأييد تحديد النسل، وهو يعتبر من رجال الطليعة فضلا عن أنه على استعداد لأن يدمج كل الانقلابات وجميع ما ينتاب الشعب من فترات شاذة في إطار من النظام.

وإني لأضع في المقام الأول من صفات الرجل الألماني الإيجابية، وقد كتب مفكر الزاسى (نسبة إلى مقاطعة الألزاس) نافذ البصيرة وعلى علم تام بأوربا الوسطى في رسالة خاصة تفسير المادية الجرمانية حيث يقول : « إن مفتاح هذا في كلمة واحدة ذات قوة سحرية هي : الاقتصاد، وإذا كان الكاتب. الفرنسي : شارل مورا Charles Maurras يقول : «السياسة لبلاد أوربا الوسطى أولا »، فإنني أقول بالنسبة للألماني : « الاقتصاد أولا ». في السياسة الداخلية كان الحل الموفق لقضاياها في عام ١٩٣٤ هو حل « فون شليخر» أي التعاون المباشر مع عظاء القوم والنقابات. ولكي نفهم الخلق الألماني الذي ألا يمثل الفردية المطلقة أو الجماعية المطلقة بل هو قسيم لها، يجب أن ترى العمال حين يجتمعون للتشاور في نقاباتهم ورجال الأعمال حين يجتمعون

للتشاور في اتحاداتهم. وإذا كانت النظر الاقتصادية – التي تتعارض مع طبيعة ألمانيا : كأنظمة غليوم الثاني وأنظمة النازيين – قد قبلتها ألمانيا حيث كانت في بعض الفترات سدا منيعا لانتشارها، فيجب ألا نخدع أنفسنا بالمظاهر ؛ ذلك أن ألمانيا كانت لا تني عن التفكير – عبر قواها الشعبية في الوصول إلى سياسة الاقتصاد التي رسمتها لنفسها بحيث تتمشى مع طبيعة بلدها، ولا نقصد بالاقتصاد هنا الملكية على طريقة الملكية اللاتينية أو الفرنسية أو الفينيسية (نسبة إلى فينيسيا، ولكنها المادية في أبشع صورها.. هذا هو قانونهم الذي يذهب بهم في أغلب الأحيان إلى أبعد مما نتصور إلى القسوة والانحطاط إذا تطلبت الأمور ذلك !..

إن ما ينقص هذا المفهوم هو روح الحكم على الأمور حكما سليمة، ومن الخطر أن نشير هذا الإنسان الذي ليست لديه عاطفة، لأن معنى إثارته أننا نخلق فيه معاني العاطفة، وقد قيل : إن الألماني تنقصه الفطنة وحسن المعاملة والعاطفة، وقد تخرجه ماديته عن الطريق المستقيم و بذلك يفشل في الأمور الصغرى والكبرى على السواء وينهار توازنه كما ينهار إحساسه العام و إحساسه الخلقي في الوقت نفسه. وقد رسم بول موراند « Paul Morand » في أحد مؤلفاته صورة حية للروح الألمانية فقال : « للألمانيين ولع شديد بالاستخبارات والحاجة إلى التحليل ولكن استخباراتهم خاطئة جدا لأنهم يلجئون فيها إلى كثرة التفاصيل ونتائجها المضطربة المبللة رغم كفالة الوسائل، وينتابهم توتر الأعصاب كثيرة كل المسوا الضوء في استخباراتهم كما يعتريهم عمى البصيرة كلا

اقتربوا وهم في حالة سيئة جديدة من الحقائق الأولى ».

وتنطوي عدم قدرتهم على الاختبار وانعدام الرقابة الداخلية على أخطر عيوب الألماني، وقد قال موريس برس Mourice Barres عن نابليون : « إن منهاجه كان في خدمة شغفه بالحكم» وقد نقول مثل هذا القول عن الألماني الذي لم يرث كما ورثنا نحن النظام الكلاسيكي، وقد وصف رجل سويسرى كبير عاش في ألمانيا طيلة حياته الألماني بقوله : « إنه رجل صلب المراس مخادع متمرس على الأعمال غير أنه في نهاية الأمر رجل غي، ومع ذلك فإننا نتساءل: لماذا تقود دولة – من أكثر الدول فعالية وجيش هو من أقوى الجيوش – البلاد إلى الهاوية ؟!»

(٤)

وقد التقينا في بحثنا الممتع هذا على صفات طبية وخلال عظمي طالعتنا من خلال هذه السطور التي استعرضنا فيها ما استعرضنا عن الشعب الألماني، وهذه الصفات هي : الضمير والجد والمثابرة على العمل. ولكن إذا راعينا في اعتبارنا المفاهيم الأخلاقية لألمانيا، فإنا نرجع القهقرى مشدوهين كأننا في مواجهة هاوية.. غير أن ما يميزه عن بقية الشعوب الغربية هو النظرة التشاؤمية للعالم والمتأصلة فيهم.

ولا أحد في ألمانيا استطاع أن يرسم طابع التشاؤم عند الألماني غير لوثر حيث يقول : إن قوانين العالم سيئة في مصدرها، وإن الطبيعة قد أصبحت ملكا للظلم والشر، وفي عالمنا الأرضي التي تقام فيه الدولة لا يوجد قانون غير القوة، ولا يمكن في حال كهذه، تطبيق شهارات

الإنجيل كما هي في هذا العالم، و يمكن تطبيق شعاراته في مجتمع روحي يعيش فيه قديسيون فيما بينهم مطالبين بالاستقلال التصوفي للروح ؛ لكن في مجتمعنا هذا نرى أن الحاكم أخذ عن الله حق استعمال السيف والتعهد بالمحافظة على حياة الدولة طبقا لقواعد لم يعترف بها علم الأخلاق، ومع ذلك فقد أرادت العناية الإلهية أن تكون كذلك. و إذن فسيكون الرجل المسيحي خادما للدولة في أمورها الزمنية دون أن يأمل في تهذيب أخلاق مجتمع خارجي، جوهره وكيانه كله الشر. فهذا المفهوم الذي يعتبر مفهوم تصوفية من الناحية الدينية وبذيئا من الناحية السياسية يخلق من الرجل المؤمن فردية روحية مستقلة تحيله أخيرة إلى إنسان سلبي متواضع ".

وتعتقد ألمانيا إذن أن السياسة يجب ألا تسير وفق طريقة تشبع رغبة واضع على الأخلاق : فهدفها الخاص هو حياة الجماعة. والقوة – في نظرها – لاهي خلقية، ولا هي منافية للأخلاق، إنها كل شيء، ويبدو – حسب المفهوم الجرماني – أن إقحام الأخلاق في مجال السياسة شيء. لا معنى له، وقد لمست من خلال تجاربى في محادثاتي الخاصة أن أي ألماني. أيا كان، لا يعتقد أن القوة لن تتوقف عن أن تكون العامل الحاسم في تنظيم الأعمال الإنسانية أبدا، وهو يتقبل الواقع دون مناقشة وفي بساطة. أفليست هذه قاعدة اللعب ؟ وهو يخضع أمام الظواهر الحقيقية القوة المادية، مثله في ذلك مثل الشرقيين. ومن ذلك تتبدى له المثالية الإنسانية للحق أو السلام على أنها نفاق أو سذاجة.

ولا تقتصر وجهة النظر الألمانية هذه على العلاقات الخارجية فحسب، بل تتعداها إلى السياسة الداخلية. وليس هناك فيما وراء الراين، قوم لهم حقوق حقوقنا التي درجنا عليها ولا تنطوي أنفسهم على روح السيادة، اللهم إلا بعض أقاليم الجنوب الغربي من ألمانيا التي تأثرت بروح الثورة الفرنسية. وإذا كان هناك من ديمقراطية هذه القوة التي لا يمكن تجاهلها، فإنها لا توجد إلا في مجتمع المدنية أو المجتمع التعاوني على طريقة « ديمقراطية العصور الوسطى » وتكون هذه الديمقراطية صادرة عن تلقائية وعن معنى الحرية الجماعية. أما عن الدولة، فإنها من جوهر آخر، ويكفيها كي تظل دولة أن تعلن عن قوتها، وهذا هو أسلوبها الحقيقي في تبرير موقفها. حين تضع نفسها على رأس شعب مشوه التشكيل، هذا الشعب الذي يقبل هذه القوة و يرتضيها أكثر مما يخضع لها أو بالأحرى يعترف لها بالجميل خضوعه لها، لأنها توافق هواه وترفعه إلى منزلة عزيزة سواء منحته خيرا أم شرة. ومن وجهة نظر كانت Kant فيلسوف ألمانيا العظيم فإن الدولة رفيعة القدر في ذاتها وهو لا يعني بذلك أن تكون على مثال النظام المتبع في الديمقراطيات الأنجلو ساكسونية لكن يعني بذلك نظاما قوي البنيان يجرى تطبيقه عن طريق خبراء يوثق فيهم لكفاءتهم الممتازة، وعلى الشعب أن يؤمن بكل ما يقومون به من أعمال دون أن يلقى إليها بالا.

وإذن فالألماني سواء أكان مواطنا خارج بلاده أم داخلها حيا حياة ينطوي فيها على نفسه، وقد يخلق لنفسه حياة أخرى غير هذه إذا اندمج في مجموعة، فهذه الشخصية غير المتكاملة، تشعر بالحاجة إلى دعم

شخصيتها، فهو كفرد غير متكامل يجب عليه أن يرسم لنفسه إطار معينا، ليحدد تردده وارتباكه، وهو أن يعرف نفسه بنفسه إلا في مجموعة من الناس : فالفرنسي في المجتمع لا يغيب عنه الشعور بأنه يعطى مجتمعه أكثر مما يأخذ. أما الألماني فإنه يأخذ بل يصر على أن يأخذ أكثر مما يعطي من مجتمعه. و هذا يقبل كل الظروف التي تفرض عليه – بناء على ما تقدم في شكر وامتنان وعلى جناح السرعة؛ فلا يضايقه النظام الذي لا غنى عنه في عمل جماعي، بل يبدو له على العكس ضرورة واجبة خفف عنه بعض أنانيته الفردية. و بالاختصار، لا يحس الألماني بالراحة ولا يشعر بالحناء والسعادة إلا حين يكون بين مجموعة من الناس كواحد من أفرادها، فتراه يعمل و يمزح ويأخذه الحماس في مزاولة عمله. ولقد شاهدت بنفسي منظر يمثل هذه الروح النموذجية ذات يوم في ألمانيا حيث رأيت عند الصباح الباكر مجموعة من الألمانيين أطفالا وشيبا وشبانا يسيرون في رحلة وكأنهم مقبلون على غزوة من الغزوات، وهم يخطون خطوات استعراضية وأعلامهم مبسوطة، في حين أنهم منتشرون على هيئة قوافل من الفرسان وفرق صغرى وجماعات كبرى يسيرون و خطوات يشع منها المرح والبشر، وتؤكد أغانيهم وتشكيلاتهم طاقة هذا الشوب، وهم بهذا لا يحتاجون إلا إلى نقطة البدء، فينطلقون حينما يريدون. ولقد كان ينتابني القلق والغموض تجاه شعب متحرك لا يعترف بالجود والتوقف ؛ كما شاهدت كذلك في نفس اليوم وفي الريف استعراضات لقوافل من الألمان في الحقول حاملين معاولهم وفئوسهم على أكتافهم كما يحمل الجنود بنادقهم ؛ وقد بدا لي من خلال هذا أنه

ليس في ألمانيا رغبة جامحة غير رغبة الاستعراض في جماعات.

وبعد، فإن من واجبنا ألا تزدري هذه الاستعراضات البشرية التي هي في مستوى الألعاب الرياضية أو تدريب الجنود كما لا ينبغي أن نقلل من خطرها، ويشعر الفرنسيون منا ممن يشتركون في هذه الاستعراضات إزاء اشتراكهم هذا بفيض من الحماس والحرية، وتؤثر الطبيعة البدائية في هذا الشعب روحيا وجسمانيا وهم في هذا المعنى يودون أن لو ظلوا بعيدين عن أضواء المدنية، فما أحب إلى نفوسهم أن يقال عنهم : إنهم قوم غير متمدينين !

وتتسم طريقة التعبير لديهم بالتشوه وعدم الوضوح، وهي فوق ذلك غير متكاملة دائمة التغير، وهي بهذا الوضع لا توافق الروح الفرنسية أبدا. ورغم عنف وصرامة النظام الذي تعيش في ظله ألمانيا، فإنها لا تشتم أبد من وقوع بعض القلاقل والاضطرابات. أما عندنا فإن القلاقل والاضطرابات تقع في الخارج وتكون على صورة حوادث متقطعة لا خطورة فيها، فضلا عن أنه يمكن معالجتها بشيء من المرونة والمداعبة... وفي ألمانيا تنشب القلاقل والاضطرابات في الداخل، ولذلك فإنا نقدر لهذا الجار الكف عن إحياء مشاريعه القديمة – : « خط هند نبورج » في بسط نفوذه على جيرانه. و يرى كبار المؤرخين أن الصفة الوحيدة التي تميز الشعب الألماني عما عداه هي – التردد. وقد كان من رأيهم الذي يشاركهم فيه المؤرخ الفرنسي « بيير فيينو Pierre Vienot أن حرب الثلاثين عاما، قد تمثل أعظم فترة تاريخية مثالية

للشعب الألماني. ولقد سحر فلاسفة فرنسا المثاليون قديما في عام ١٩٤٨ بما لدي ألمانيا من فلسفات وموسيقى، ودماثة الخلق وطيبتها، غير أن إنتاجها لم يستقر على قرار، ولم تكن له فعالية ملموسة. وقد حدث مثل ذلك حينما كانت في ظل الحكم الإمبراطوري، وقد استمدت ألمانيا من روسيا تنظيماتها الإدارية والعسكرية بما تملك من طاقات الرغبة وعن طواعية واختيار. وفي ظل هذا النظام، كانت ألمانيا – كما نعلم جميعا – أشبه ما تكون بفصل مدرسي يتحكم فيه معلموه أو مصنع يرأسه مديروه، كما نستطيع تشبهها بثكنة تأتمر بأمر صف ضباطها ؛ وقد ساد تأثير هذا النظام الشعب الألماني كله، وقد كانت الطاعة – حسب الأمر المعطى – تشبه الفعل المنعكس والآلة التي لا تنفك عن الدوران ! وعلى نفس الرغبة وذات الطواعية أسلمت ألمانيا قيادها إلى هتلر بعد جمهورية فايمار (Veimar) التي كانت تسكن لها حبا. وقد وجدت في الدولة ذات الحزب الواحد كل ما ترغب، وهو أن يكون أسلوب الحكم في خدمة نزوة أو شهوة » أي الرغبة في الحكم الذات الحكم.. بيد أن ألمانيا قلب، ما. تفتأ تستقر وتهدأ، حتى تبدأ سياسة الانقضاض والغزو من جديد !

(٥)

وتفسر «السيكولوجية الألمانية» في عشرين كلة تقريبا تتسم بالعمق و يتوجها إطار المعني و يجمعها رباط واحد مشترك ؛ لأن الروح الجرمانية تتعلق « بواقعية » القرون الوسطى أكثر من تعلقها بمذهب

الفلاسفة القائلين بانعدام حقيقة أو وجود الأجناس أو الأنواع في حد ذاتها ». ولا يفهم الفرنسي العادي، ككائن موجود، إلا الأفراد، أما الجماعة فليست في نظره إلا تصورة. ومن جهة أخرى يوجد معنى مباشر للوجود، وهو الاتحاد المادي مع الأشياء تقريبا. وهي بالطبع تؤدى إلى الفكرة القائلة بأن الإحساس يغزو العقل من كل جانب، ولنحاول أن نستعيد هذه المجموعات من الكلمات معا لنعرف كنهها وننظر ماذا نرى

المصدر العميق للأشياء..

الإحساس بالقوة المرتبطة بفكرة الشباب والمرح والقسوة..

المعنى التصوفي التطور..

الفراغ والغموض والحيرة للروح الأنانية.

رقة العواطف.

صفات المثابرة والجدية.

الإيجابية ومعنى الأشياء في حد ذاتها.

روح الأشياء والتكاتف.

الضمير الجماعي.

ويوجد في رأس المال القوى الألماني ثروة لا يستهان بها ؛ و «التكتيك» الأكثر فعالية الذي يرتبط بحياة عاطفية قوية جدا والتعميم الذي يترك شعورا عاما بحياة، ولكن بحياة بدائية، وقد ساهم هذا الشعب بنصيب كبير في الحضارة الأوربية، كما جمع كثيرا من الاستخبارات و

إبداء الملاحظات عليها وتصنيفها. وأنتج الموسيقى والشعر والفلسفة، و يعد هذا الشعب الرائد الحقيقي للعقلية الصناعية، ولكنه جمع كل ذلك على شاكلة من يكتنز المال دون أن يكون قادرة على أن يعطى إطارا لمنجزاته هذه، و بذلك، فهذا البربري رغم نفره بربريته، وهذا الإبن الذي يعيش بعيدا عن أمه « آسيا »، لا يملك مشاعر بنوته القديمة لليونان، ولا يستطيع أن يعتبر نفسه كرجل غربى مائة في المائة، ولم يستطع أن يؤلف بين متناقضاته كما هو شأن المحدثين في حضارتهم، فهذا الألماني العاطفي هو فظ قاس فاسد، فهو يطرب لنزول المصائب والكوارث، و يبكي على الحريق الذي أشعله بنفسه، و يداعب الطفل الذي قتل أبواه على يده، وطاعته لعمل الشر لا تفترق أبدا عن طاعته في عمل الخير. ومن الصعب أن توفق بين هذه المتناقضات جميعا، وقد حاول الكاتب الألماني « جوته » أن يدعو في مؤلفاته إلى نبذ هذه المتناقضات والتوفيق بينها، ولكن الألمان فضلوا عليه كتابا آخرين تنقصهم ملكة الحكم الصحيح أمثال الموسيقار فاجنر « Wagner » والفيلسوف نيتشه Nietszche ومن يدري؟ فقد يكون أمثال هؤلاء من دم صقلى. وأخيرا فإن ألمانيا تعتبر بلدا مدمرة هدامة للثروات ساحقة للجنس البشري قاضية على الإمبراطوريات!

وقد قمت بهذا التحليل السيكولوجية هذا الشعب مستندا في ذلك إلى الماضي،- وليس هناك من سبيل غير ذلك.. و بعد فها نحن أولاء في هـ ذا البلد المتغير مرة أخرى بين أكوام الخراب والدمار نتيجة للحرب العالمية الثانية، و يجدر بنا أن نقول : إن ألمانيا لا تفيق ولا تصحو وسط

الكوارث، وربما لا تقاسي من ذلك الكثير – على عكس ما نعتقد – وذلك بفضل قدرتها على النهوض من أية كبوة تتردى فيها وتؤدي بها إلى أسفل سافلين، ثم إنها تجد نفسها فيا بعد، وكأن هذا الماضي المليء بالكوارث لم يكن شيئا مذكورا، ورغم أنها تعرضت لكثير من الغزوات المتعاقبة وديست أرضها ذهابا وجيئة في مختلف العصور، بالإضافة إلى أنها خليط من شعوب شرقية وغربية،.. فإن ألمانيا الغربية أضحت كاثوليكية أكثر – في وقتنا الحاضر – مما مضى، وقد اضمحل نفوذ البروتستانتية اللوثرية نسبة إلى « لوثر »، وأصبح اسم ألمانيا قديما : « بروسيا » في زوايا النسيان.. ومضى إلى غير رجعة، و بذلك تخلت ألمانيا الشمالية عن طبيعتها التي تتسم بالزهد والتنسك، حيث كانت الديانة البروتستانتية تسودها وقتذاك، وفضلت التعامل بلغة المدافع، ولم تعتبر الديانة الكاثوليكية – على العكس – إلى حد ما قومية، وقد بدت أقل عنفا وأخف ثورة وأعظم إنسانية، و يتمثل ذلك كله في ألمانيا الغربية. ورغم هذا وذاك، فإن ألمانيا قد ظلت وستظل تؤمن بمبدأي « الإيجابية والاقتصاد» اللذين تحدثنا عنهما سابقا، وسيبقيان دائما هدفها الدائم في الحياة، على أن سبر غور الأمور عند الألمان صفة من صفات البروتستانتية، وقد يجتاز فترات يفقد فيها سداد الرأي والحكم على الأمور، وليست هذه الخرائب إلا دليلا ماديا وشاهد صدق على ذلك.. والحق أن حيويته لا تنفصل عنه فضلا عن أنه أكثر شعوب أوربا سكانا فيما عدا روسيا.

وبعد هذه الدراسة الشيقة عن سيكولوجية الشعب الألماني يخالجني شعور بالاضطراب.. فعبر الراين أي : خارج ألمانيا، لا زي غير النظام والفعالية والوصول إلى الهدف.. أما في داخل ألمانيا فلا نرى إلا اضطرابا

دلهما للأمور التي تتردى في مستنقع ويعتبر الألماني « الحقيقة » ظلاما يتطلب الوصول إليها السير في ظلمات بعضها فوق بعض، أما بالنسبة لنا، فإننا نعتقد أن الحقيقة نور فوق نور وفي ألمانيا نشعر بأننا على حافة بحر من المياه السوداء لإقرار له... وعندما نتطلع إلى هذه المساحات الواسعة من المياه يتملكنا الشعور بأننا نتطلع إلى هاوية !

الفصل السادس

"الصوف" عن الشعب الروسي

تلقي جغرافية روسيا أضواء كاشفة على سيكولوجية شعبها: وتمتاز روسيا بثلاث ميزات: اتساع أراضيها، ووحدة تكوينها، وخلوها من خطوط دفاع طبيعية تحميها ضد الغزوات، وهي مع ذلك غامضة مبهمة في نفس الوقت، ومساحتها شاسعة جدة : وتبلغ مساحة روسيا الأوروبية خمسة ملايين ونصف المليون من الكيلو مترات المربعة كما تبلغ مساحة كل من روسيا الأوروبية والآسيوية معا (٢٢) مليونا من الكيلومترات المربعة، وتبلغ المسافة بين ميناء « ليبايا » على بحر البلطيق ومدينة « فلاديفستوك » ثمانية آلاف كيلو متر، وبذلك تعتبر روسيا من أكبر بلاد العالم. ولا يمكن أن تقارن هذه المساحات الشاسعة بمساحة فرنسا مثلا ؛ ذلك أن مساحة فرنسا التي تبلغ ٥٧٥,٠٠٠ من الكيلو مترات المربعة تقارب ١٠/١ مساحة روسيا الأوروبية فقط، وتبلغ المسافة بين باريس وفيتنا ألف كيلو متر مربع.. فماذا بعد هذه الأرقام الخيالية للمساحات الشاسعة في روسيا التي تكاد تقارب بها أوروبا : تلك الرقعة الصغيرة من الأرض ؛ ذلك أن كل تقديراتنا العادية تذوب وتتلاشى في هذا الفضاء الواسع المترامي الأطراف، على أن وحدة تشابه تكوين أجزائها تضاعف من صعوبة تقدير مساحتها أيضا، وهي على النقيض من أور و با المتنوعة شكلا حيث تنقسم أجزاؤها وتتبعثر أراضيها... أما في

روسيا فإن مساحتها تتكون من آلاف آلاف الكيلو مترات.. كما أن روسيا أرض لا حدود لها.. فراغ من ورائه فراغ وتشابه ممل، وليس بها أية علامات مميزة هدى المسافر في مسالك الطريق، وفي اختصار.. تعد روسيا قارة غنية بعناصرها بنسب كبيرة.

ولا تمنح الطبيعة في هذا الفضاء الشاسع – الذي لم يتبلور بعد بالإضافة إلى أنه ليس له حدود أو حواجز – أية حماية : حيث إنه على مدى التاريخ وفيها قبل التاريخ تعاقبت الغزوات على سكان هذه البلاد الواحدة تلو الأخرى كأمواج البحر الهادر ؛ وقد خلفت كل منها رواسب بشرية كما تتخلف رواسب الطمي عن الفيضانات ؛ ولهذا كان في روسيا نوع من مخلفات الأجناس البشرية، فهناك رواسب من شعوب تدافعت وتراكمت وتداخلت في بعضها البعض... وقد أحدث هذا نوع من الشعور المتسلط علينا بتشعب أطراف مشكلة الأجناس.

ومع ذلك فإن وحدة روسيا ليست موضع جدل أو نقاش : جغرافيتها ومناخها و بيتها، تفرض نوعا خاصة من الحياة والإحساس والعمل، و يكاد جميع سكان روسيا يتشابهون في أنماط هذه الحياة ولا يختلفون أبدأ.. و بعد فها نحن أولاء أمام مجموعة بشرية مميزة – في الأخص – جو اجتماعى مشترك، ولا يغيب عن الأجنبي بحال ملاحظة هذه الشخصية القوية لروسيا نتيجة لهذا الجو الاجتماعي المشترك : وقد فر بعض هؤلاء الأجانب من العيش فيها على حين طاب للبعض الآخر وهم كثيرون – العيش بها، ومجمل القول : أنه بالرغم من بعض

الاختلافات الجغرافية أو العنصرية، فإن روسيا هي هي : بلد له سلوكه، ولشعبه طريقته الخاصة في أساليب الحياة كما له جوه الروسي الخالص.

ويطيب لي أن أتساءل : أروسيا أوروبية أم آسيوية ؟ والجواب : أنها وسط بين هاتين بمعنى أنها ليست بالأوروبية الخالصة ولا بالآسيوية الصرفة.

من أجل هذا أطلقت على روسيا بعض التعبيرات التي لم يراع فيها قليل من الدقة مثل : « أوراسيا » و « القارة السادسة » وقد تعود علماء الإحصاء أن يفردوا لروسيا في أرشيفهم، صفحة خاصة في سجل العالم، كما أنهم ينظرون إليها على أنها قارة منفصلة. و إذن فما هي حدودها عندئذ ؟ فنحن عندما نترك الغرب وراءنا، ونعقد العزم على الدخول في هذا العالم الذي لم يعد أوروبيا خالصا بل آسيويا، أرى – في تصوري – أن أضع حدودها في نهاية أوربا الوسطى والسهل الثلجي، الذي يمتد في ألمانيا الشرقية و بولونيا. وقد أحسن الكاتب العظيم « لوك دورتان Lac Dortain » صنعا حين وصف هذا الجو الآسيوي – الذي يبدأ من مدينة « لودز » تقريبا في وسط بولونيا – في عبارات بلغت من الدقة وحسن التصوير وروعة التعبير آماداً بعيدة حيث يقول : –

« في سماء مدينة «لودر » التي تبهر الأبصار، ترتفع عدة مداخن، يتصاعد منها دخان مصانع النسيج الشهيرة، ويبدو – في نظر الغربي – أن شعب هذا البلد غريب عليه : فالرجال ينتعلون أحذية ذات عنق طويل، على حين يبدو اليهود في أردية كهنوتية قذرة واضعين على

رءوسهم غطاء مسطحة ذا حافة تشبه الأظافر السوداء. أما النساء فيضعن على رءوسهن أغطية مزركشة ذوات ألوان زاهية » ورغم اختلاف هذه الأزياء، الذي يضاعفه تكوين وجوههم وطريقة سلوكهم، نقول :

« إنه رغم اختلاف هذه الأزياء عن مثيلاتها الأوروبية فإننا نجد في هؤلاء الناس ملامح غريبة يصعب علينا أن نتعرف عليها، فهم لا يغيرون من طبيعتهم حيث كانوا، على أنه ليست لديهم الطاعة الألمانية، بل يتصفون بشيء من الاستسلام والسلبية، فوجوههم جامدة لا تنم عن أي تعبير، وتدل نظراتهم على عدم الاكتراث بشيء ما.

وتحمل ملاحظات هذا الكاتب أكثر من معنى، وهي جديرة بالتأمل وخاصة أنها تعني حدوداً، لا بين بلد وآخر، بل بين قارة وأخرى

ولم يغير التصنيع – الذي تقدم بخطوات مذهلة في روسيا – من واقع الأمور عندهم شيئا، وها هي ذي رياح من الشرق تهب علينا في ظل نظام الستار الحديدي.. وقد كتب الماركيز دى كوستين في مؤلفه « رسائل من روسيا » يقول : –

« يوجد بين فرنسا وروسيا سور من التنافر أشبه بسور الصين العظيم، و بالرغم مما قام به إمبراطور روسيا الأكبر Pierre Le Grand من إصلاحات حديثة وما أدخله في بلاده من نظم أوروبية، وبخاصة في العلوم والفنون، فإن هذه النظر لم تقو على إحداث تحول كبير، كما لم يكن لها أثر عظيم، وما زالت حدود سيبر يا تبدأ من نهر الفيستولا في

بولندا تقريباً.

فهلا يتملكنا الشعور عندما نغادر الإمبراطورية الرومانية، وإمبراطورية شارلمان بأن أوربا الحقيقية قد انتهت فعلا عند هذا الحد ؟..

ويؤثر مناخ روسيا تأثيرا هاما وحاسما في طبيعة شعبها، فهو قارى معى أنه : « حار جاف صيفا، بارد مطر شتاء » وربما لا تتأثر روسيا كثيرا بمناخ محيطاتها الشمالية، كما أنه قد لا يشعر بتأثيرها إلا شواطئ بحر البلطيق، وتبدو صورة القارة بوجه عام من الغرب إلى الشرق أكثر وضوحا عنها من الجنوب إلى الشمال، وحينما تنقل المرء من مكان إلى آخر، فإن برودة الجو القارص تلاحقه معظم أيام السنة، وفي الشمال تتجمد المياه وتتحول إلى ثلوج، وتستمر ما بين ثمانية وعشرة شهور، وكذلك الحال في الشرق والجنوب الشرق. أما في الجنوب فتتراوح فترة تجمد المياه بين ثلاثة وخمسة شهور، وليس لهذا المناخ مثيل في أية بقعة من بقاع العالم.. فهو لا يشبه مناخ أوروبا الجنوبية « مناخ البحر المتوسط » (فيما عدا شبه جزيرة القرم الواقعة على البحر الأسود) بل يتشابه إلى حد كبير مع مناخ الصين والتبت وآسيا الصغرى، ونعني بذلك : أن روسيا بلد العنف والآلام – نظرا لطبيعة مناخها – وقد ضنت عليها الطبيعة بمعاني الرحمة وطيبة القلب، وهذه الحقيقة أهميتها في مجال التحدث من روسيا.

(٢)

وقد ارتكز التشكيل العنصري – إلى جانب الجنس الأصلي – على غزوتين متعاقبتين، وتشمل الأجناس الأصلية سواء ما كان منها في الشمال أو سكان الغابة : « الفينوازيين » الرحل : وهم يشتغلون بصيد الحيوانات والأسماك كما ينتمون إلى قبائل المغول في آسيا بوشائج اللهجة واللون والتكوين الشكلي. ويعيش على حياة الرعي في الجنوب قوم رحل، حيث الأرض الجدباء، وهي شعوب تنتمي إلى الجنس المغولي أيضا، كما أنهم ذوو سلوك آسيوي. وقد كان شعب روسيا يتكون أصلا، عند بدء ظهور المسيحية من الصقالبة. وقد وفد هؤلاء الآريون البيض – من الهنود أو الأوربيين – من إيران، وألقوا عصا التسيار في الأراضي الجدباء، واشتغلوا بالزراعة بعد أن استقر بهم المقام هناك ومن هؤلاء ثلاث مجموعات :

(١) الروس.

(ب) البولنديون.

(ج) الليتوانيون : جمع المنسوب إلى « ليتوانيا ».

ومع ذلك فإن المجموعة الأولى تنقسم إلى مجموعات ثلاث صغيرة فيما بينها :

١– الروس الكبار : ويقطنون في وسط البلاد أي في إقليم موسكو.

٢- الروس الصغار : ويقيمون في الأراضي السوداء من إقليم أوكرانيا.

٣- الروس البيض : ويستقرون في الغرب في محاذاة بولندا وتحتل هذه المجموعات الصغيرة أهمية كبرى في عالم اليوم، وقد وفدت من آسيا جميع الغزوات التي تواترت على روسيا قبل ظهور المسيحية، ولا نعني بذلك الصقالبة بل قبائل المغول، الوثنيين منهم أولا والمسامين ثانيا : وهم « قبائل الهون » الذين كانوا تحت إمرة الملك « أتيلا » وجنكيز خان في القرن الثالث. عشر، والقبائل التي كانت تحت حكم الملك « دجودجي » بن جنكيزخان،. وهي التي استقرت في جنوب سيبريا وخضعت لها روسيا في القرن الخامس عشر،. وقد كان أول عمل للقياصرة بعد ذلك هو : إيقاف تدفق هذا السيل الجارف من الغزو الذي اكتسح البلاد من الشرق إلى الغرب، فقد استردوا روسيا سياسيا،. وأغاروا على المغول، ثم من بعدهم الصقالبة، ووصلوا في غاراتهم حتى آسيا نفسها.

ويتضح من هذا أن الصقالبة ومعهم بقية لا يستهان بها من التتار يشكلون نواة هذا الشعب، على أن هذا لا يمنع وجود أجناس عديدة أخرى إلى جانب ذلك : فهناك اليهود والبلطيقيون الألمان واللوثريون وسكان شواطئ بحر البلطيق الآن، ومجموعات ألمانية في الجنوب الغربي من روسيا، وأتراك وأجناس أخرى من القوقاز. و إذا أردنا أن نتعرف على نسبة هذه العناصر المختلفة، اتضحت لنا حقيقة مذهلة : ذلك أن « العنصر الصقلبي » هو أهم هذه العناصر جميعا، ويلي ذلك «

التتار » حيث يعد وجوده عاملا هاما في شرق نهر الفولجان ثم إنه لا بد أن ندخل في اعتبارنا خضوع شعوب شاذة غريبة السلوك والأطوار، وقد خضعت هذه الشعوب تحت ضغط الجاذبية الروسية، على أنها كانت شديدة الحساسية، فوقعت تحت تأثير السيكولوجية الوطنية، وقد كان من نتيجة ذلك أن أحيطت روسية بسلسلة من الاتجاهات والسلوك لا تسمح بتحديد معالم الحضارة الروسية وحدودها.

وفي هذا الفضاء المكفهر ذاك البلد، نجد شعبا روسيا خالصا عظيما في حد ذاته وآسيويا في أصوليته وجغرافيته وجيرانه، ومع ذلك يرتبط بالتاريخ الأوربي أوثق الارتباط وأمتنه. وقد اقتبس هذا الشعب تذوقه للمناقشات الهادئة الهادفة ورقته التي تصل أحيانا إلى درجة الخبث والمكر من القسطنطينية، وإلى الأعجب – بل لا أفهم – كيف لا يتم هذا التطور السريع لديهم، عن حيويتهم الرائعة، وبهذا يتعارض مع ما فيهم من بربرية وبدائية.

وقد كتب كوستين Custine يقول : –

" لقد اقتبس الروس من المسلمين الحيوية الدافقة، كما استمدوا من الإمبراطورية الإغريقية فنونها وعاداتها وعلومها ودينها و سياستها وتقاليدها في الدهاء، بالإضافة إلى الخداع وكراهيتهم لكل ما هو لاتيني » وقد استمدت روسيا من أوروبا – بل أوروبا الشرقية – تقاليدها المسيحية في مذهبها الأرثوذكسي المطابق لتعاليم الإنجيل، وعلى حين وهبت المسيحية الغرب معنى النظام والقانون، نجد أن التعاليم الإنجيلية

الشرقية التي لم تتبلور بعد، مع قربها إلى البساطة البدائية، قد غرست في الروس خصالا حسنة من الطيبة والرحمة التي لا تتفق مع العدالة أبدا، هذا إلى جانب الاستقامة الخلقية.

ولكن الذي يحضرنا الآن ونشعر به في روسيا بشكل أوضح عنه في ألمانيا. هذه العبارة التي تحدث عنها شكسبير وهي : « النزعة الإنسانية إلى حب الخير » وقد أخذت روسيا من أوربا جميع طرائقها الفنية الحديثة، أي أنها بدأت من الملك «بيبر الأكبر» إلى لينين وأخيرا ستالين. وقد اندمجت روسيا في اقتباسها هذا بكل ما تملك من طاقات القوة وروح أكثر تصوفية منها ميكانيكية، وبالرغم من كل هذا القدر الذي سمح به هؤلاء الثلاثة، فإن البربرية مازال باقية بشكل يسير في روسيا ! ولقد كتب كوستين Custine في أواخر القرن التاسع عشر يقول :

« لقد مضى بالكاد على روسيا أربعمائة عام حتى اليوم، منذ تعرضت لغزوات البربر، بينما تعرض الغرب المثل هذه الغزوات منذ ألف وأربعمائة عام. على أن أية حضارة يبلغ عمرها ألف عام، لابد أن تحدث تفاوتا لا حدود له بين أخلاق وعادات مختلف الشعوب ».

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الشعب حريص على شخصيته ووحدته غير القائمة على الجنس، لأنه ليست له ذات الأصولية في الجنس بيد أنها وحدة قائمة على مفهوم مشترك معين للحياة وعلى بيئة عضوية وأخلاقية مشتركة كذلك.. وقد يقال : إن هناك شيئا ما ذا تصوف في الفكرة التي خلقها لنفسه وفي هدفه للحياة.

وقد وصف الكاتب الروسي مكسيم جوركى Macsime Gorki هذا الشعب حيث يقول : «لن يختفي الشعب الروسي من على وجه البسيطة... إن هذا هو المكتوب في التوراة !.. فهل تعرفون هذا الشعب حق المعرفة ؟! إنه شعب كثير العدد : فكم نشاهد عدد لا يحصى من القرى مقامة على الأرض الروسية !؟ وفي كل بقعة من بقاع هذه الأرض تلتقون بهذا الشعب.. هذا الشعب العظيم، وإنه سينمو ثم ينمو ولن يفني أبدا ؛ وكل إنسان سيفنى، لكن.. الله « في حاجة إلى شعب خالد كهذا الشعب ».

وإذا ترجمنا عبارات هـ ذا الكاتب إلى معان جديدة اتضحت لنا الثقة المتناهية للشعب الروسي بنفسه والتي يعبر بها عن مستقبله.

(٣)

وعندما نتحدث عن «سيكولوجية الشعب الروسي » يصعب علينا أن استبين منها الخصال الأصلية فيه. وقد اتضح لنا في ضوء دراستنا هذه، أن هناك أساسا مبدئيا يرجع إلى ماض آسيوي يضرب بجذوره في أعماق القدم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب ألا نتجاهل محاولة الإمبراطور الأكبر « بيير الأكبر » الخاصة بإدخال النظم الحديثة في روسيا، كما يجب ألا نضرب صفحا عن التنظيمات العميقة التي أقيمت تحت رواء الفن الغربي و باسم الثورة السوفيتية.

ومن الصعب أن نميز في ظل هذه الظروف، الخصال الروسية التي

يتميز بها الشعب الروسي عن أي شعب آخر؛لأن هناك خصائص يتميز بها الشعب الروسي قبل ثورة عام ١٩١٧ وتسمى بالخصائص الروسية، وخصائص ما بعد ثورة عام ١٩١٧ وتسمى بالخصائص السوفيتية.

ومن الصعب علينا أن نعرف ما إذا كانت بعض الإصلاحات الحديثة التي تعزى إلى ثورة عام ١٩١٧ مسألة عابرة لم تترك وراءها أثرا أم كان الهدف منها البقاء والاستمرار، وليس من شك في أن الثورة البلشفية قد تجدد قيامها من قبل الشعب الروسي، ولكن إلى أي حد ؟... والواقع أن الشعب الروسي قد دبت فيه الحياة من جديد. ونستطيع أن نذكر إلى جانب ذلك بعض الإصلاحات الشرقية التي قامت على أساس آسيوي قديم، يبدو واضحة جلية اليوم عما كان عليه قبلا !

فلنسائل أنفسنا إذن، حتى نتبين ما هو شرق أو آسيوي لدى الشعب الروسي، وقد نشعر بسيكولوجية هذا الشعب من تأثيره واتصاله وقربه من آسيا، ولا يكفي هذا التدليل على تأثر روسيا بآسيا، بل يجب أن نتحدث عن الوجود الآسيوي الملموس فعلا في كل مكان من هذا البلد. ومع ذلك يجب أن نوضح أن آسيا التي نعنيها ليست هي آسيا التي تحاذي شواطئ البحر المتوسط من لبنان حتى الريفيرا، بل هي قارة آسيا نفسها وآسيا المغولية. ويقال – أحيانا – إن الرجل الروسي هو في الأصل غربي ارتدي زيا شرقيا. وقد يكون من الحقيقة أيضا أن نقول: إنه شرقي متأثر بالغرب وأن « غربيته » قد أفسدت شرقيته.

وقد قال بسمارك في هذا المقام : «إن روسيا لا تقوى على أن

تؤثر في الغرب وإن كانت لا تأخذ منه غير مساوئه وأمراضه ».

ومن الخصال التي اقتبستها روسيا عن آسيا : الصبر والجلد والقدرة على تحمل الآلام. وقد اعتاد الرجل الروسي على احتيال أضنى الآلام وأقسى ضروب العذاب، وهو لا يرضى إلا إذا وجد الحياة – في مفهومه – جافة قاسية. وهذا السلوك الروسي هو انعكاس لتعوده من قديم الزمان وأنه قد روض نفسه على تلقي المحن التي تنشأ عن تقلبات الجو والغزوات والمألوف من جراء قسوة التاريخ في هذا الجزء من العالم. وتبدو هذه المحن جميعا – في نظره – شيئا طبيعيا لأنها قد مست حياته عبر تاريخه الطويل.. ولهذا يتقبلها كأمر واقعي دون مقاومة، كما تقبل مظاهر القوة والأوامر المفروضة من الدولة. وربما لا يفكر الرجل الروسي في هذا الأمر كثيرة بل إنه خضع وينحني دون أن يبدي أي تفكير في هذا؛ كأنه أمام قوى الطبيعة التي تخضع لها رقاب البشر أنها قدر محتوم.

والطابع المميز لهذا الاعتقاد أن يقول الرجل الروسي: إن هذا الأمر لن يأتي جديد وليس لهذا أهمية تذكر وهو يحدث نفسه قائلا : إنه بالرغم من كل شيء فسيبقي ككائن حي، وتلك فلسفة شرقية : فلسفة الشرقيين المتعلمين.

ونلمس في روسيا شدة تحفظهم تجاه الحياة السياسية اليوم كما كان بالأمس، حيث لا فارق بينهما. و يمسك بعنان كافة الأمور في روسيا : القادة، ولا حق لأي فرد في الجهر برأيه إلا بموافقة هؤلاء القادة.

وقد ذكر المؤرخ الفرنسي شارل سينيوبوس Charles Seignobosفي كتابه بعنوان « تاريخ أوربا المعاصر » و بالتحديد في الفصل الخاص بروسيا، التفسير التالي :

« وقد يكون من الصعب أن نفسح للتاريخ السياسي للإمبراطورية الروسية مجالا مناسبا لمكانة روسيا، فالإمبراطورية الروسية بتكوينها الاستبدادى كانت بعيدة كل البعد عن الاضطرابات السياسية التي تشكل أسس الحياة المعاصرة؛ فهي – على نمط الحكومات الملكية في القرن الثامن عشر – لا تملك تاريخا ما غير تاريخ الملوك وحاشيتهم، والتي لا تعرف إلا عن طريق المعارضة بحيث لا يسمح لها بالنشر إلا في الخارج. و إنه لمن المستحيل علينا أن نتعرف على حقيقة أوضاع هذا البلد من الصحف الرسمية التي تصدرها الدولة، وهي لا تعطي الحقيقة الواقعية عن الحياة.

وها نحن نرى، لماذا يحتل التاريخ الداخلي لروسيا – فيما عدا محاولات الكسندر الثاني الإصلاحية – مكانا في الأهمية أقل من مكانة احتياطيات القمح التي اتخذتها الحكومة ضد أعدائها البولنديين المنشقين أو الثوريين ».

وهذه العبارات التي خطها هذا المؤلف منذ ربع قرن مضى – مع ارتباطها بنظام قديم مضى عليه قرن من الزمان يمكن أن تنطبق تمام الانطباق على روسيا اليوم.

وهذه الطاقة القوية التي يمتحن بها مجموع الشعب الروسي كله لا تعني بالذات أنه شعب متشائم أو متعصب. ويجب أن نقرر أن هذا الشعب يتسم بالتفاؤل والنشاط الدافق والثقة بالنفس. وكل هذه الصفات هي طابع روسيا السوفيتية التي تخلو من كل مركبات النقص.

وهناك أقلية مؤثرة تقوم بدور التفرقة والانقسام في صفوف الشعب الروسي، ومع ذلك فإن هذا الشعب يظهر في المدن الكبرى بمظهر السلبية، غير أن هذه السلبية توجد على نطاق ضيق كما في الهند، وتكاد تكون معدومة في الصين.

وقد أدى هذا الخليط من المؤثرات الشرقية والغربية إلى نوع من عدم التوازن الواضح الملموس، ويوجد لدى الرجل الروسي شيء من عدم المبالاة دائما، كما أنه ينطوي على التهور. وهذا ناتج عن وجود نقص في الجمع بين قوى متعارضة. وكل ما ذكرناه آنفا بصدد ألمانيا هو كذلك في روسيا على نطاق أوسع. وفي هذا المعنى فإن الرجل الروسي ليس على ما نحن عليه من تمدين وتطور.

ونلاحظ أن الفرد الروسي الواحد يجمع بين التواضع والكبرياء والمثالية وعدم الحياء والفضيلة والرذيلة، والانتقال من صفة إلى أخرى في الفرد نفسه تحدث بسهولة تامة لا تتطلب جهد يبذل. و إذا تصفحنا القصة الروسية وخاصة القصص التي كتبها دستويفسكي Dostoievski فإنا نجد في شخصياتها هـ ذا التناقض العجيب في الخصال، كما نلمس هذا التناقض أيضا في الممثل الدبلوماسي لروسيا في المؤتمرات الدولية.

فهو يجيد الجمع بين الرقة والخشونة والظرف والغلظة والمرونة والعنف.

والتعامل مع الرجل الروسي ليس له اتجاه محدد : فهو تارة دبلوماسي ذو سلوك مهذب وتارة أخرى على غرار ملك من ملوك الفرنجة ضل سبيله في القرن العشرين ويبدو أن هذا الشعب الروسي لم يمر بفترة انتقال بين ما كان عليه في العصور الوسطى وما هو عليه الآن في عصره الحديث أي : بين عصور البربرية وعصر تأليه قادته، وقد سبق لكوستين Custine أن كتب بهذه المناسبة يقول :

« يقضي المناخ – من الوجهة الطبيعية – كما تقضي الحكومة من الوجهة الأدبية والمعنوية – على كل ما يمثل الضعف والخور في هذا البلد.. إن روسيا بلد العواطف الجامحة والأخلاق الضعيفة وشعبها إما ثائر أو مستكين. وليس هناك وسط بين الحاكم والعبيد كما أنه ليس هناك وسط بين الأبله والحيوان.. إن حالة الوسط ليست معروفة لدى هذا الشعب ».

وقد تكونت الشخصية الروسية من هذه العناصر المتفككة المتناقضة التي لا يمكن القول بأنها عناصر تتلاءم مع هذا العصر. ومنذ عهد القياصرة أقامت روسيا صناعة ميكانيكية أقيمت على دعائم فنية، بيد أن اليد العاملة التي اختيرت لهذه الصناعة كانت تعمل بعقلية القرون الوسطى، واليوم فقد أصبح الشعار الرسمي للدولة هو المادية في أوضح صورها ومن أجل هذا الشعار أله الشعب الروسي ستالين، كما أله الشعب الروماني الإمبراطور « أوكتافيوس »

والبلشفية مذهب من مذاهب أنصار التوسع وهي تهدف إلى أن تخلق من نفسها صاحبة مذهب اجتماعى جديد، لكن هذه البلشفية محاطة بسور منيع كسور الصين العظيم غير قابل للاختراق. وقد كنا نعرف بالأمس نبلاء من الروس عرفوا بسعة الرزق بشكل ليس له نظير في العالم ؛ لكنهم كانوا ينامون في فراشهم بأحذيتهم.

وقد كتب كوستين يقول :

« تعتبر روسيا جميع الممثلين الدبلوماسيين و بخاصة الغربيين منهم جواسيس تمتلئ صدورهم بسوء النية، ويغمر الحقد قلوبهم ». وفي أيام حكم الإمبراطور نيقولا الثاني Nicolas II وفي ظل حكم ستالين كان كل فرد يشعر لأول وهلة بأنه موضع شك وريبة وكأنه بالفعل « جاسوس حاقد » ولقد حدث لأحد سفرائنا عشية قيام الحرب العالمية الأولى، أن أراد زيارة بعض المصانع الروسية ولكن الحكومة قد اعتبرت وراء هذه الرغبة من جانب السفير ما وراءها من سوء النية.

وأعتقد أن مثلينا الدبلوماسيين في موسكو لا تراودهم مثل هذه الرغبة بتاتا الآن بعد هذا الحادث.

والواقع أن السوفيت – وهم تلاميذ فنيون للغرب – لا يثقون فيه و يكرهونه كراهية عميقة ؛ ولنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إن الرجل الروسي سواء أكان حاكما مستبدا أم ثوريا اعتبر أسس الحضارة الغربية – من وجهة نظره – غير سليمة خلقية، وأنها تترك في نفسه أثرا يحطم بقايا

آماله، بل إنه عندما تند عليه هذه الحضارة الغربية، نجده يرفض مبادئها و يشعر أنها لا تقومه خير تقويم.

ولا تختلف فكرة « الملكية الخاصة » التي هي إحدى الدعائم الفردية في روسيا عنها في أي بلد آخر، بيد أنها لم تتخذ عند الرجل الروسي يوما ما كعقيدة و إيمان، ذلك أنه عند قيام « الثورة البلشفية» أضحت الملكية الخاصة موضع ريبة ووسوسة وتبكيت لضمير الرجل الروسي وكان مما يعيبه أن يكون مالك، وقد عد الرجل الذي يقتني الأموال والعقار بينهم غير أمين، وقد عبر برديائيف Berliaeff عن هذه الفكرة في أحد مؤلفاته حيث يقول :

« مما يميز الشعب الروسي في جميع الأزمنة، تحرره من الارتباط بالأرض، على أن هذا التحرر غير معروف لدى شعوب الغرب، ولم يحدث أن أحس في يوم ما بارتباطه أو بتشبثه بالمالكية وما يتعلق بها و بالأسرة والدولة و بحقوقه وعقاره. وطريقة معيشته. وإذا كان الشعب قديما مرتبطا بأرضه فإن ذلك يعد ارتكابا الإثم لا يغتفر له، ور ما يكون الشعب على قدر ضئيل من الأمانة وحسن التقدير كالشعوب الغربية، وهؤلاء متعلقون – بطبيعتهم – بالأرض وما عليها وما في هذا العالم من خيرات ومنافع.

وتعد « الملكية الخاصة » بالنسبة لأي رجل في أوربا الغربية شيئا مقدسا وحرصا مصونا يحرص عليه أشد الحرص وهو لا يفرط فيها دون أن يستميت في الدفاع عنها، وهو مرتبط أشد الارتباط بإيديولوجية تقوم

على حب الفرد لخيرات هذه الدنيا، ولا تعتبر ملكية الرجل الروسي الخاصة – وهو الذي تستبد به – غريزة الطمع والبخل – شيئا مقدس) وهو لا يملك تبريرا أيديولوجيا معينا لملكية العقار فترة محدودة.. وهو يفضل أن يحيا حياة الرحالة، وليس لدى المالك الروسي أي اعتقاد بأن هذه الأرض أرضه بمعنى التملك، حتى أن الرجل الروسي الذي جمع ثروته يتوقع العقاب إن آجلا أو عاجلا لأنه يعتقد أنه جمعها بطريق غير مشروع وخلاصة القول : إن كل روسي يعتقد أن النظام البرجوازى ليس إلا إثماً كبيراً »

وهذه الخصال التي يتحلى بها الشعب الروسي لا تنقصها القوة أو العظمة، وقد تصل إلى مستوى المبادئ الأخلاقية البناءة للشعب الأنجلو ساكسوني و إلى مستوى العمل الذي أقام مجد أوروبا منذ القرون الوسطى وعصر النهضة، وحين أخذ الروس عن الغرب أساليبه الفنية لم يستطع أن يمحو هذه الروح من أصولها في حياته وهو يعتبر الغربيين أناسا مفسدين في الأرض. والشعور الديني عند تولستوى « Tolstoi » هو الطابع المميز للشعور الديني عند الشعب الروسي، وهو ليس على غرار الشعور الديني لدى الألمان كما تحدثنا آنفا ؛ بل هو عبارة عن مثالية تصوفية تنطوي على روح البذل والفداء والتضحية والعمل الدائب من أجل انتشار مذهبهم الاجتماعي وهو ينشد دائما في أسلوبه في العمل، الروح التصوفية التي فطر عليها، وهو يبني فلسفته في الحياة على « مذهب المادية » التي اشتق منها (كارل ماركس) فلسفته الاجتماعية، فكيف لا تتعارض لغة هذا الشعب وسلوكه وعاطفته مع القوة العملية

ذات الأفكار المتطورة للشعب الأمريكي والتي تقوم على قاعدة الإنتاج بثمن التكلفة.

(٤)

وهذا الشعب الذي يتمتع بموهبة كبرى هي أوسع نطاقا وأكثر ألمعية وأبعد مدى من الشعب الألماني ؛ هذا الشعب ذو الضمير والإرادة الفولاذية قد جرى في دمه حب النظام. وترى في هذا البلد – في كل خطوة تخطوها –، الحيوية المتجددة والذاتية وعدم المبالاة والروح المبدعة، وأما من ناحية آرائه الفنية والدينية فإن الروسي يعتبر مبتدعة ولكن من وجهة نظر مقاييسنا الغربية يعتبر كائنا ذا كفاية متوسطة،- وتتضح أمور هذا الشعب تحت منظار الحقيقة، حين نعرف جيدا، عدم الانتظام الدائم الذي لا يرتجى إصلاحه في حياته اليومية.

إن الروسي البوهيمى لا يفهم للوقت معنى ولا يتناول وجباته الغذائية في مواعيد محددة، وعندما نتصور احترام الفرنسي المواعيد وجباته المقدسة يتضح الفارق البين بين باريس وموسكو في هذا الشأن.

ويبدو لنا أن الحياة المنظمة المحددة تخالف طبيعة هذا المجتمع الروسي الذي- لا يعترف بالتوقيت قطعة، ولا يميل الرجال هناك إلى الارتباط بالأرض كلية،- ويلاحظ الإنسان هناك، تغلب الحياة البدوية المتصلة التي أخذوها عن أسلوب حياة أجدادهم القدماء.

ونشاهد الناس ينتقلون من مكان إلى آخر على شكل قوافل الحج،

ولقد مات تولستوي ذلك الكاتب العظيم بعيدا عن منزله في محطة صغيرة لقرية من القرى الروسية، و بالأمس... كان الفلاح الروسي يحيا حياة فلاح القرون الوسطى، مستخدمة في عمله آلات القرن الثامن عشر، وهو لا يجيد معرفة الحساب و يجهل المقاييس الأرضية.

ومثل هذا النقص في الكفاية يسير جنبا إلى جنب مع نقص موروث في حضارته ورثوها، ويتأخر الروس بقرن من الزمان عن الحضارة الأوربية، ويحتاج إلى وقت طويل التعويض ذلك، على أن لدى الروس بعض العادات التي اقتبسوها عن عادات المبدأ الجماعي الآسيوي، بيد أن الظروف التي يعيشها الشعب الروسي منذ الثورة وبخاصة في المدن المزدحمة بالسكان تخيفنا، مع مراعاة أن هذا الشعب لا يقاسي من اشتراك شخصين في غرفة واحدة. وقد تعود أن يعيش الواحد فوق الآخر، وأن ينام في أي مكان ويستوي لديه سقف محطة السكة الحديدية وحجرتا الانتظار والاستقبال مثلا.

ويتذوق الروس معنى العلاقات الإنسانية فهم يقبلون – في شغف كبير – على العلاقات الطويلة التي ليس لها نهاية ولا تنتهي إلى نتائج ؛ لأن هذا – في نظرهم – أليس من الأهمية بمكان، ولهذا نصفهم بأنهم قوم ثرثارون، وقد اضطرت الحكومة إلى فرض أوامر مشددة ووضع نظام قاس للحد من هذه الثرثرة التي لا ترجى منها فائدة. وهذا من ألزم الواجبات الشعب يطيب له دائما أن يعرض المشكلات في غ ير تعقيد، مصحوبة بفيض وافر من البراهين الفنية – وإن كانت غير واضحة غالبا –

دون أن يحدد لها وقت معين للانتهاء من وضع حلول لها.

وقد تفسر هذه الطريقة – إلى حد ما – روح النظام الحاضر وأساليبه، ونحن نجد في انجازاته بذلا هائلا لقضيته وعاطفة تصوفية و إن كانت هذه الإنجازات العظيمة لا تخلو في نفس الوقت من جمع مستفيض لتأشيرات فنية وعددية ومرونة دبلوماسية وصبر عجيب كصبر أيوب.

وأخيرا إذا أردنا أن نقيس نتائج هذا المجهود الضخم التي أمكن استخلاصها والذي روعيت فيه طاقات من البذل والتضحية لا يستهان بها، فإن الإنتاج يكون مقدار ضعيف جدا.

وربما يرجع التناقض الذي نراه في شتى خصال هذا الشعب إلى تطورهم المتأخر نحو سلم الحضارة. ويجب أن يكون ماثلا في أذهاننا أن روسيا هي عبارة عن تمثال بدأ ينفصل عن قطعة ضخمة من الصخر الخام مشوهة التركيب والتشذيب معاً.

إن الروسي. إنسان بحق، وهو يستطيع أن يسيطر على مشاعر الإحساس بالتسامح والخير والتقوى، ويبدو في حياته بسيطة غاية البساطة، مشرق الوجه طلق الأسارير، وليس الشعب في مجموعه عدائيا أو مكروها ؛ ذلك أنه يوحى بروح الشعور بالرقة تجاه الأجنبي، ورغم ذلك فنحن مضطرون إلى أن تقرر صراحة : أنه شعب يتسم بالقسوة والوحشية وعدم الاتزان مع قليل من عدم الاهتمام بالحياة الإنسانية،

وهو بذلك يمنحنا الشعور بأنه شعب من التتار : فدخول القوات السوفيتية فيينا و برلين، يذكرنا بالغزوات البربرية التي قام بها ملك « الهون آتيلا » Attila وجنجيز خان Gengis khan مؤسس إمبراطورية المغول.

ويتشابه الروسي والألماني كثيرة في صفة التردد التي هي قاسم مشترك بينهما فالرجل الألماني يميل إلى السلبية والنظام والانخراط في مجتمع قوى البنيان راسخ الدعائم.. أما الروسي فإنه يجنح إلى السلبية بفطرته، وهو يعيش في ظل مجتمع قادته ذوو سلطة مطلقة كما أنه لا يستبد به الملل من هذا الوضع ؛ لأنه يعتقد أن الأمور لا بد أن تأخذ مجراها على مثل هذا النهج، وهو يؤمن إيمانا قويا بالطريقة الفنية. أما الألماني فإنه يعتبرها طبيعة من طبائع الإنسان.

وقد خدع الغرب بروسيا و بخاصة الفرنسيون في عهد قياصرتها، كما خدع الفرنسيون في ظل التحالف الروسي – الفرنسي بالمظهر الخادع لهذه الأمة، ولقد كنا نعجب أيما إعجاب بأية سلطة تبغي إثبات وجودها كما نعجب بالأزياء لرسمية الفاخرة التي يرتديها حكام موجهون على الطريقة الألمانية.

وقد كنا نعتقد أننا نجد في هؤلاء البروسيين الأقوياء الأشداء ردوداً حاسمة في كل ما يعرض عليهم من مشكلات حسب ما تمليه عليهم طبيعتهم.. على أن هؤلاء البروسيين الذين قهرونا عام ١٨٧٠ ولم نلمس فيهم حين اتصالهم في ذلك العام، النظام أو العمل أو الجدية كالألمان

مثلا، بل كان هناك استبداد الشرقيين وظلمهم عندما يبدأ في الزوال والانهيار، بالرغم من جمال مظهره، وعندما شاهدنا انهيار هذا النظام الإمبراطوري عام ١٩١٧ لم نعجب قط، واليوم تطالعنا روسيا في إطار جديد نفض عنه فساد النظم القديمة، وقد اتخذت روسيا لنفسها نظاما يختلف تمام الاختلاف عن النظام السابق في جميع طرائقه ومظاهره، ونحن نخطئ إذا اعتقدنا أن هـ ذا التغيير كان جذريا ؛ لأن الخصال المميزة للشعب الروسي – التي تحدثنا عنها بالتفصيل آنفا – باقية كما هي لم تشملها رياح التغير، ورغم أن الشباب الروسي – الذي يدين لهذا النظام الروسي الحديث – ينطوي على بعض الأخطاء فإنه يتحلى بعض الصفات التي لم يكن لها وجود في حقيقة تكوين النظام القديم، فهل هو قادر على إصلاح بعض أخطائه في عصره الحديث ؟..

ولم أرد في بحثي هذا إبداء آراء تخالف الواقع الملموس، على أنني قد استخدمت الكتب التي ألفها «أناتول ليروي بولييه Anatole leroy Beaulieu » أو المركيز «كوستين » إلى جانب الكتب التي استقيت منها كل آرائي. وقد يكون مما يعاب علينا أننا قد أهملنا بعض المؤلفات التي تناولت الكتابة عن روسيا، لا لأنها مؤلفات مجهولة، بل لأنها مؤلفات لم تأخذ الموضوع مأخذ الجد، بيد أن مؤلف « ستر وجوف » ليست له أهمية تذكر من هذه الناحية، أما مؤلفات الكونتيسة دى سيجور Segur الكاتبة الفرنسية، فهى – أي المؤلفات – من الأهمية بمكان حيث تتحدث الكاتبة في مؤلفاتها عن الخصال الأسيوية وهي عبارة عن قصص على شكل رسائل يلذ للأطفال قراءتها، وهي

تحلق بك في روسيا كأنك موجود في وسطها، تحيا حياة أهلها وتتعرف على كل ما يتصف به الشعب من خصال وعادات، ولا ننسى أن الدعاية للنظام الستاليني تشعرك بأن هذا النظام لا ينتمي أبدا إلى « روسيا البورجوازية » في عهد « نيقولا الثاني » بل إلى روسيا العظيمة في عهد « بيير » الأكبر.

الفصل السابع

الديناميكية عن الشعب الأمريكى

يعد الشعب الأمريكي من أهم شعوب العالم « الأنجلو – ساكسون » وقد غدا شعبها أحد العناصر السائدة للجنس الأبيض، و يعتبر – من وجهة أخرى – من الشعوب الموجهة في العالم، وكأنه أحد الضمانات الكافية لحماية حضارتنا الغربية المهددة، بالضعف ثم بالزوال. وليس هذا مبعث دهشة لنا، لأن هذه الشعوب قد ضربت بسهم وافر في تقدم الإنسانية منذ ثلاثة قرون مضت، وإذا كانت الولايات المتحدة في التعبير الحقيقي الواقعي للعصر الميكانيكي، فإن الديمقراطية الحديثة لا تفهم ولا تحس إلا بالشكل الذي اتخذته الولايات المتحدة منارة لها، غير أن التهيؤ للحياة المادية في العالم، في طريقه لأن ينظم نفسه حسب الطريقة الأمريكية.

وقد كان تطور هذه الحضارة في أمريكا نتيجة لعدة عوامل متداخلة متشابكة أولها العامل الجغرافي في قارة متميزة تختلف الطبيعة فيها كثيرا عن أوروبا، ويليه العامل الجنسي، ففيها الآن وحدة إنسانية جديدة تمخضت عن انصهار جميع الأجناس التي وفد عليها من أوروبا في هذا الجزء من العالم. وأخيرا – وهو الأهم أن الولايات المتحدة قد أضحت أخيرة قوة عالمية يحسب لها ألف حساب وحساب.

(١)

إن أول ما يبهر أبصارنا و يهز مشاعرنا في هذه البلاد، هو : عظمة الطبيعة وتنوعها، فشلالات نياجرا ومهر الميسيسبي والسهول الشاسعة في الغرب وسلاسل الجبال الممتدة في الغرب من ألاسكا شمالا حتى المكسيك جنوبا، لا يمكن أن تقارن بمثيلاتها في أوروبا من ناحية ثروتها الطبيعية ومختلف مناظرها، بل لا ينبغي أن نقارنها بما في أفريقيا وآسيا وروسيا من ثروة طبيعية، ويجب أن نضع في الحسبان أمريكا تلك القارة الضخمة المتهمة كوحدة واحدة على نقيض أوروبا المقسمة إلى أجزاء، وليس بالقارة الأمريكية رءوس أو خلجان، و بذلك لا يتسلل البحر إلى داخلها، فكأنها تشبه قطعة من الأثاث مربعة الشكل صلبة النوع. أما أوربا فهي قارة مفتتة إلى أجزاء دقيقة ونحن نشعر في قلب القارة وفي رؤوسها الكثيرة وخلجانها العديدة بجو بحرى ساحر.

ومن هنا ينشأ في أمريكا نوع من العلاقات الخاصة بين الإنسان والطبيعة. والواقع أن الإنسان في أمريكا قد انتصر على الطبيعة انتصارا عظيما ساحقا.. ولكن لا نستطيع أن نقول : إنه قد تكيف معها. وتفاخر الولايات المتحدة بأنه ليس لديها فلاحون، وهي لا تعرف، بل لا تريد أن تعمل حسابا لحدود مفروضة عن طريق اختلاف المناخ وعن طريق سوء استخدام الأراضي وهي مقتنعة بأنه يمكن التغلب على الطبيعة واستغلال ما فيها بالقوة، وهذه الطبيعة التي استعصت على الاستغلال بادئ ذي بدء، قد منحت كل ما تتمتع به من ثروات ومصادر للرجل الأمريكي،

ورغم أنه قد تم نضج بعضها قبل الأوان، فإنه ما يزال هناك كثير من ثرواتها بكرا لم تستغل بعد، وفيها من الثروات ما لا يعد ولا تحصى. وإلى جانب ذلك نجد الكثير من الأراضي في خدمة الإنسان دون تعب أو مشقة. و يترتب على ذلك أن مفهومهم بالنسبة لاستيلاء الدولة على أرض غير أراضيها يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم بعض الدول الأوربية. وتبعا لذلك يختلف مفهوم السياسة بينها و بين أوربا. ونلاحظ أن سوء الفهم بين المفهومين ثابت على الدوام. فلنأخذ مثلا كندا والمكسيك أو أية مستعمرة أخرى فمفهوم البلاد الأوربية يناقض مفهوم الولايات المتحدة في هذا الشأن، لأن الأخيرة لا ترغب في ضم أراض إلى أراضيها أو العمل على إلغاء بعض الحدود بينها وبين بلدان.

مجاورة لها، بل إن همها كله ينصب على الاستعمار الاقتصادي والصناعي والتجاري،. فالتبعية الكاملة لا تهمهم في شيء على الإطلاق.

وتختلف ظروف الإنتاج في أمريكا عنها في البلاد الأوربية ففي أمريكا – وهي البلد الذي ما يزال غنيا باقتصادياته – والذي ما انفكت الطبيعة فيه. طيعة على سهولتها في خدمة الإنسان هناك، يكون من السهولة بمكان أن تبتكر في أمريكا ثروات جديدة عن أن تقتسم فيها الثروات الموجودة، وهذا على عكس ما يجري في البلاد الأوربية التي دب فيها دبيب الضعف، حيث تقل فيها الثروات الطبيعية كثيرا عن مثيلاتها في أمريكا التي أضحى فيها وجوب المشاركة في الثروات والإنتاج غير أن نتيجة هذا أن أصبح الأوربي يطالب – في ثورة –

بالمشاركة. في الإنتاج على حين لا يفكر الأمريكي إلا في الإنتاج أولا وأخيرا، فالمقارنة هنا هي بين قارتين، وقد يكون من الأفضل أن نقول : إنه بين عصر ين : عصر الشباب وتمثله أمريكا، وعصر النضج والتكامل – ولا نقول الشيخوخة ومثله أوربا.

وتثير الخصال التي اقتبسها الأمريكي عن عالمه الجديد الذي يعيش فيه،. شيئا من الاهتمام، وأهمها تفاؤله الدايم الذي تزعزعت أركانه إلى حد ما باشتراك الولايات المتحدة في مشاكل العالم القديم، ولكل أمريكي ثقة تامة في المستقبل بعامة ومستقبله بخاصة ومستقبل بلاده كذلك. أما الأوربي فلديه نفس الثقة. التامة في حطنا في الحياة منذ مائة عام تقريبا، أي في أواسط القرن التاسع عشر، لكننا فقدنا هذا الإيمان وقد فقدناه بثمن بخس. وعندما كنا نذهب إلى الولايات المتحدة – على الأقل في أوقات الأزمات إن لم يكن في سنوات الرخاء،. (١٩٢٥ – ١٩٤٠) – كنا نلمس في هذا الجو المليء بالنشاط المتدفق في هذه. البلاد، إيمان الرجل الأمريكي بأنه يستطيع كل شيء، ولا شيء مستحيل على نشاطه وإرادته كما نام س كبرياء العامل الأمريكي الذي صنع لبلاده مكانة كبرى، يضاف إلى ذلك حرية الفكر لدى الرجل الأمريكي والتي جعلته يثق في المستقبل ولا يشعر بأنه سجين الماضي.

وقد تكون أمريكا في وضع تتلاقى فيه تيارات مختلفة، وقد أجبر الجهل ببعض القوانين الطبيعية – مثل ما يختص منها بتآكل الأراضي – الأمريكي على تصحيح بعض طرائقه، وقد يكون بالإمكان في وقت ما،

إجبار الطبيعة على أن تغير من نمطها، فهل نستطيع داما تغيير المط الذي تسير عليه الطبيعة، و إذا كان الأمر كذلك، فلابد أن فيه « مغامرة كبرى» كما يقول الكاتب الفرنسي بول فاليري Paul Valéry وتثير هذه المغامرة مشكلة ما إذا كان في،. مقدور الإنسان التغلب على الطبيعة أم لا؟

وقد يشق على الأوربي معرفة الشروط اللازمة لفهم هذه البلاد فهما جيدا، وكل ما يجب عليه أن يقوله لنفسه هو: أن الأمريكي لا يقف تطوره عند حد، وأنه لم يحدد نفسه بعد، خصوصا من الناحية العضوية، لأن مشكلة الجنس في أمريكا لم تتبلور بعد لاختلاط عناصر متعددة، ومن الناحية الجغرافية، يبدو أنه ما يزال في أمريكا اتجاه غريب نحو حياة البدو الرحل من أثر الهجرة، ومن الناحية الاجتماعية فهو كثير الملل غير مستقر، ويجب أن نتعرف عن صدق على حقيقة القارة الأمريكية، وعلى أن مقاسها لا تتشابه مع مقاييس القارة الأوربية. ومناخها بالنسبة لمناخ أو ريا غريب عليها، وأن ألوانها وعطورها وسلوكها يختلف تمام الاختلاف عن مثيلاتها في أوربا، كما يجب أن نلاحظ أن نمط الحياة سريع جدا عند شعب ذي مزاج بطيء ينفرد به عن الشعوب الأخرى.

وحين نعبر المحيط الأطلسي يكاد يمزقنا الحنين لا إلى قوميتنا فحسب، بل إلى القارة نفسها، وحين نتحدث عن هذا العالم الجديد يجب أن نترك تعبيراتنا الخاصة جانبا، لأن هذه التعبيرات تلبس لباسا آخر في هذه البلاد، قد يتسبب عنه سوء فهم كبير، وعلى العكس من

ذلك نشعر إذا وجدنا في روسيا بأننا لم نعد في الغرب بل على الأقل في أوربا أما هنا في أمريكا، فنحن نشعر أننا في الغرب، ولم نعد في أوربا بالذات، وهذا ما لا يجب أن يغيب أبدا عن تفكيرنا.

(٢)

ومن الحوادث الهامة في تاريخ هذه البلاد، هجرة أعداد كبرى من الأوربيين إلى الولايات المتحدة. وهذه الحركة الإنسانية الضخمة أكثر أهمية من غزوات البربر في القرن الخامس الميلادي فهلا نعمل حسابا لأربعين مليون من الأوربيين تركوا العالم القديم إلى الولايات المتحدة فيما بين عامي ١٨١٥ و ١٩١٤، ومن هؤلاء الأربعين مليونا ما يزيد على ثلاثين مليونا قصدوا أمريكا الشمالية مباشرة. وتنحصر أهمية هذه الهجرة في أنها أنبتت فرعا جديدا للجنس البشري في قارة أخرى، وقد صنعت هذه الهجرة من هذا الشعب شعبا جديدا، ولا يجب أن يفوتنا أن هذه الهجرات من الجنس الأبيض وقد حملت معها أجناس شتى من الجنس الأسود والأصفر. وقد كان يوجد قبل هؤلاء وأولئك شعب هندي ومن هنا كثرت في أمريكا مشاكل تكيف هذه العناصر الأجنبية مع بعضها البعض ومثل هذه المشكلات لا نظير لها في أوربا و إن كان لها نظير في مستعمراتها.

وقد تعرضت أمريكا لثلاث مراحل رئيسية من الهجرة. فالمرحلة الأولى التي كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان هدفها

الاستعمار الانجليزي والبروتستانتي ومنها طائفة البوريتانيين (المتطهرين) Les Puritains وطائفة الكواكرز المشعوذين les guakers من البروتستانت والتي أسفرت في فيلادلفيا وطائفة المزارعين في الجنوب والطبقة الأرستقراطية التي كانت تزاول. مهنة الرق، و بذلك كان قوام المجتمع الأمريكي هذه العناصر الأولى بالإضافة إلى. بعض العناصر الهولندية والألمانية. وهذا التشكيل الأول للمجتمع لم يطرأ عليه أي تغيير، بل المهم أن نذكر، أن هؤلاء الأجداد لم يكونوا رجال صناعة ولكنهم جلبوا معهم جميع الصفات الفردية للنشاط والتفاني في العمل. وقد بدأت المرحلة الثانية في القرن التاسع عشر من بداية عام ١٨١٥ ولكن في الفترة ما بين عامي ١٨٦٠٠ و ١٨٨٠ حظيت الولايات المتحدة بعشرة ملايين من المهاجرين تقريبا،. وقد هاجر هذا العدد الضخم من أوربا هر بأمن المجاعات والثورات والاضطهادات التي حلت بالبلاد في تلك الفترة. وقد كانت وطأتها على الناس هناك شديدة الا تحتمل، وقد رحل هؤلاء عن بلادهم وهم مقتنعون اقتناعا تاما بأنهم سيجدون في هذا العالم الجديد حياة طابعها المميز الحرية.. حرية السلوك والعمل والمعتقدات السياسية. وقد كان أغلب المهاجرين في هذه الفترة من الانجليز والاسكتلنديين. وقد تبعهم بعد ذلك قوم من الألمان والأيرلنديين والإسكندنافيين واليهود و بذلك اتجهت الولايات المتحدة إلى التخلص من طابعها الإنجليزي الأصلي، وبدأت تتخذ لنفسها طابعة ألمانيا جديا في جهازها وتنظيمها. وقد ظهر من هذه العناصر المهاجرة جميعها عنصران بدأ العمل بمجرد أن وطأت أقدامهما

أرض البلاد، فالأيرلنديون قد استولوا على إدارة البلديات في المدن الكبرى، وكانوا يدينون بالمذهب الكاثوليكي، وقد طبعوا أهالي المدن التي استقروا فيها بطابع المسكر والظرف وعدم المبالاة والمرح والفوضى. أما العنصر الثاني وهو اليهود، فقد جلب معه القلق والتطفل وحبه الجم للمال، وسرقة آراء الغير والتغير الدايم في نمط حياتهم نتيجة لما يكمن فيهم من اضطراب نفساني، وقد خلق تأثير هذين العنصرين من الولايات المتحدة، بلدة أقل بروتستانتية من غيرها كما خلق تأثير العنصر الألماني فيها بلدة أقل انجليزية، ولذلك نرى الآن أن الولايات المتحدة قد بدأت ترسم لنفسها شخصية مستقلة وتحدد لنفسها طابعا خاصا، وقد تحدث الكاتب الفرنسي بول بورجيه Paul Bourget في مؤلفه « فيما وراء البحار » كما تحدث الكاتب إبل هيرمانت Abel Hermant في مؤلفه « فيما وراء المحيط الأطلنطي » عن هذه المرحلة من تاريخ الولايات المتحدة.

وتبدأ المرحلة الثالثة من عام ١٨٨٢ – ١٩١٤ وهي مرحلة أهم بكثير من المرحلة الثانية، كما تشير إلى هجرة (٢٢) مليونا من الأنفس يمثلون عنصرا آخر غير العنصر الأنجلو ساكسوني ألا وهو العنصر الصقلي اللاتيني. فتحتل عناصر البحر المتوسط وأوربا الشرقية ٧٧% من مجموع العناصر الأخرى المشكلة المجموعة سكان الولايات المتحدة. وهؤلاء يختلفون عمن سبقهم من المهاجرين في أهداف هجرتهم، فمن أهدافهم ارتفاع الأجور والرغبة في التخلص من حياة مستواها أدني في العالم القديم وهي فوق ذلك أقل تطورا، ويجب أن

نضيف : أنه فيما بعد قد رسمت خطة تنظيمية للهجرة إلى أمريكا عن طريق شركات الملاحه أو جمعيات الهجرة، وهؤلاء المهاجرون الجدد قوم فقراء يدين معظمهم بالمذهب الكاثوليكي، وهم يقطنون الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى، وقد تزود الشعب الأمريكي القديم بعناصر مختلفة في الجنس والطباع دون أن يتخلى عن طابعه القديم.

وعلى ذلك تبدو هنا مشكلة على جانب عظيم من الأهمية والخطورة قد عاشتها أمريكا، وهي : كيف تسني لهذه الأعداد الضخمة المختلفة الأجناس، المتضادة الطباع أن تتعايش معا. ولكي تكمل الصورة نذكر : أن الولايات المتحدة قد مرت بثلاثة أجيال : الجيل الأول هم المهاجرون الذين حافظوا على أسلوب حياة بلادهم الأصلية وإن كانوا قد تعاموا الحديث باللغة الإنجليزية، رغم أنهم كانوا ينطقونها بلهجة تخالف لهجتها الأصلية، كما تعلموا ارتداء الملابس على الطريقة الأمريكية.

أما الجيل الثاني : فهم أبناء هؤلاء المهاجرين الذين نسوا لغتهم الأصلية وأصبحوا يتحدثون الإنجليزية بطلاقة، وقد تكيفوا تقريبا بهذا الوسط الأمريكي ولم يرجعوا إلى المفاخرة بأصلهم القديم.

والجيل الثالث : هو نتاج الجيلين الأول والثاني، وهو الجيل الذي أصبح أمريكيا خالصا، فلم يعد هناك أي ذكرى لأصوليتهم الأوربية. وسموا أنفسهم بأسماء إنجليزية كما انعدمت بل زالت الأسماه الكاثوليكية واليهودية. و إذا كان هذا الجيل الثالث لم يستطع التخلي عن طبيعة الأنجلو – ساكسونيين فإن ساو كه فيا بعد قد أصبح أمريكيا

قلبا وقالباً.

فهل نستطيع أن نقول : إنه في هذه الظروف تيسر لأمريكا أن تبلور كل هذه الهجرات في بيتها، فإلى أي حد استطاعت أن تجعل من المهاجرين الإيطاليين والروس والبلقانيين والألمان أمريكيين خلصا ؟ و إذا كنا في هذا المقام نقصد السلوك في حد ذاته – فقد نجحت أمريكا فعلا في أن تجعلهم يتخذون مسلكا أمريكيا فهناك طريقة أمريكية – خاصة في الكلام والإحساس والفعل والمناقشة والاستقرار، وكل هذه الصفات نجدها عند الجيل الثالث، كما نراها تماما عند الشعب الأمريكي الأصيل وبرغم هذا فإن العناصر الأجنبية تكون ملحوظة في المدن الكبرى التي تقع على المحيط الأطلنطي. ففي نيويورك مثلا : لا نشعر بأننا أمام شعب متجانس الطباع والخصال والسلوك : ففي شوارع مدينة «برودواى» نشاهد خليطا من الناس مهم : الأبيض والأسود والأصفر و بعض الأجانب الذين لا يعرف لهم أصل ولا فصل، ومن المعروف أن هؤلاء تختلف ألوان بشرتهم. و إذا أدخلنا في اعتبارنا كذلك «لافتات» المحلات التجارية – بخلاف «اللافتات» التي هي بأسماء انجليزية – فإننا نشاهد لافتات بأسماء إيطالية ونمساوية وباقانية وروسية لا تعد ولا تحصى، وتتساوى مدن فيلادلفيا وبالتيمور وشيكاغو وسان فرانسيسكو مع مدينة نيويورك في إعطائنا صورة واضحة عن هذا الخليط من الأجناس الذي يتضح كالشمس في وضح النهار، ولا تمثل هذه البلاد التي تعتبر وطنا لكل وافد علينا بأي حال من الأحوال أمريكا جميعها كما لا تمثل كذلك المحور الأصلي لأصولية هذا البلد.

وهذا المحور يبقى (أنجلو – ساكسونى) ولكن، إذا كانت هناك أغلبية

من الأنجلو ساكسونين فإنها قد أصبحت ضعيفة نظرا لتشتت أفرادها وتفككهم. فقد أصبح مهم قوم شقر وسمر و كستنائيو اللون، وسواهم من ذوي العيون الزرقاء والسوداء والبشرة البيضاء والسوداء، ومهم قوم مستطيلو الوجه صغار الرأس ومهم قوم فارعو القامة وقصار القامة. وملخص القول إذا أردنا أن نقول، وهذا قد لا يكون موضع نقاش : « إنه ليس هناك ما يسمى بالجنس الأمريكي، فهل يوجد – على الأقل – شعب أمريكي ؟!

(٣)

وبعد. أفترانا نستطيع أن نقول – إزاء هذه المشكلة انه يوجد شعب أمريكي كما يوجد شعب فرنسي وانجليزي وألماني و بعبارة أخرى : هل نستطيع أن نعثر على تعريف للسيكولوجية الأمريكية ؟.

وبعد أن استعرضنا جميع العناصر المختلفة الطباع والأجناس يحدونا هذا إلى التساؤل : هل تستطيع هذه العناصر المفككة أن تخلق شخصية أمريكية خالصة في هذا الوعاء غير الحدود ؟. وقد صور الكاتب الانجليزي الروائي إسرائيل زانجويل Israel Zanguill عملية تمثل هذه الأجناس مع بعضها البعض في عبارات تم عن الفهم العميق حيث يقول :

« إن أمريكا» بوتقة «الأجناس وهي أكبر بوتقة لجميع أجناس أوروبا. وفي هذه البوتقة تنصهر الأجناس وتتبلور. أما الأمريكي الخالص؛ فلم يخلق بعد». فهل خلق حقا؟ وإذا كان كذلك فهل خلق حسب المفهوم الضيق للقومية البروتستانتية. وقد نوقش هذا السؤال من وجهة نظر أخرى في نهاية القرن التاسع عشر لأنه منذ نهاية هذا القرن، حدث تحول تام في المجتمع الأمريكي لا ينطوي على تشكيل هذا الشعب وطبيعته فقط، بل على الظروف الاقتصادية والفنية التي يعيش فيها الرجل الأمريكي كذاك.

أن الثورة الصناعية الميكانيكية التي أنشأت الآلة البخارية لم تتسع آثارها،. وتنتشر نتائجها إلا منذ خمسين عاما ولم تظهر هذه الآثار والنتائج على نطاق واسع وملموس إلا في الولايات المتحدة بصفة خاصة وقد كانت أولى علاماتها : الحرب العالمية الأولى.

ومن الغريب أن أبعاد خطوات تكوين الشعب الأمريكي في أواخر القرن الماضي كانت أوسع مدى مما هي عليه اليوم، وقد خرجت من دراسات التي قمت بها لهذا الشعب في أواخر القرن الماضي بأنه فضلا عن تطوره، قد خلق له حضارة جديدة، لم تكن ناشئة عن حضارته القديمة بل عن حضارات أخرى، وفي ظل هذا التصوير يجب أن تكون دراستنا لسيكولوجية هذا الشعب، إذا أردنا أن نتفهمها اليوم.

وحين تدفقت جموع المهاجرين من الصقالبة اللاتينيين – في المرحلة الثالثة – في شمال أمريكا، نشأت حضارة مبتكرة جليلة الشأن

وقد نمت وترعرعت في هذا الجزء من أمريكا حسب المبادئ الحضارية القرنين السابع عشر والثامن عشر. وفي ظل شروط وأهداف حضارة القرن التاسع عشر، و إذا كان الأساس الأصلي لحضارة هذه البلاد انجليزيا، فإنه قد أضيفت إليه حضارة المانية و أيرلندية، كما أضيفت إلى الحضارة الكاثوليكية حضارة بروتستانتية.

وقد كانت هناك بعض الشخصيات الخرافية التي تمثل إلى حد ما سيكولوجية الشعب في القرن الماضي. فالشخصية الشعبية الكاريكاتورية «للعم سام » كانت ترمز إلى الشخصية الأمريكية حيث كان الرسامون يصورونه بذقن طويلة بيضاء و سروال ذي خطوط طويلة، وسترة زرقاء مزركشة بنجوم، كما أن شخصية « عم من أمريكا » تدور حول قصة مفادها أن أمريكيا رحل عن بلاده وفي جيبه أربعون فلسا تاركا وراءه ثروة لا تقدر لوارثيه وهكذا !

وهناك.. في أمريكا مفهوم آخر للحياة قائم على المبادأة الفردية دون تدخل الدولة إلا في حالة وقوع جريمة أو سرقة وبذلك يقع اضطراب خاص يتعلق بعمليات تجارية ليس لها من حدود ما يتعلق بعهد المغامرات الذي كانت الحدود فيه مفتوحة من غير قيد أو شرط تجاه الغرب. وقد كان الأمريكي يتجه نحو الغرب تاركا وراءه كل إمكانياته لمن يرغب، على أنه كان يقال للشاب الذي نفذ صبره من المضايقات الاجتماعية : « اذهب إلى الغرب أيها الرجل الشاب. » ففي ذلك العصر كان الرجل الأمريكي شاذا في تصرفاته، أما اليوم في يعد كذلك.

ونستبين حضارة هذا الشعب. قبل ظهور مبدأ الإرتياح على نمط واحد في سلسلة من الثقافات الحلية الخاصة وكذلك تبعا لجغرافية كل إقليم، أو «بلد»، ذلك أن « بوسطن » تقوم حضارتها على عوامل فكرية ودينية، كما ترتكز حضارة « بلتيمور » على الصفاء الذهني الحساس رغم ما علق به من بعض الشوائب بسبب تأثير أهل الجنوب قبل الحرب الأهلية التي بدأت في عام ١٨٦٠ نتيجة لإلغاء تجارة الرق.

أما مدينة فيلادلفيا فتقوم حضارتها على شعوذة بعض المنشقين على المذهب البروتستانتي وسان فرانسيسكو متأثرة كثيرا بحضارة البحر الأبيض المتوسط والحضارة الفرنسية بل إنه من أنواع الأطعمة ما هو قوى خالص وما هو مستمد من الأطعمة الفرنسية والإيطالية، كذلك الأدب منه ما هو قومى أدب مارك توين MarkTwain وادجار بو Edgar Poe كذلك أدب أميرسون Emerson ووليم جيمس William Jamesوتور وThorealونعتقد أن هؤلاء جميعا ينتمون إلى أصل بريطاني. ولم ينقطع الرباط الأدبي بعد بين أمريكا وأوربا، فالأفكار الإنسانية لأبراهام لنكولن رغم

أنها تختص كلها ببلده و بقارته فإنها تقترب من أفكارنا وهي لا تتطلب منا مجهودا يبذل لفهمها.

على أن ما يميز أمريكا الأمس تمييزا واضحا عن أمريكا اليوم فيما بعد المرحلة الثالثة من المهاجرين هو أن الأخيرة قد تخلصت نهائيا من طبيعتها وتقاليدها الأنجلو – ساكسونية و بذلك نستطيع أن نتصور بعد

هذه المرحلة الثالثة أن هناك بلدا أمريكيا حقيقة لم تمسها قطعا شائبة (انجلو – ساكسونية) أوبروتستانتية، فتغير مركز الجاذبية الجغرافية لأقاليم عاشت بطابع الأنجلو ساكسونين، لم يعد له وجود، وقد كانت في الماضي ولايات انجلترا الجديدة،- كما كانت بوسطن ذات طابع انجليزي بحت.

أما اليوم فإن هذا البلد الذي كان يعد أشبه ما يكون بجنيف أخرى في العالم الجديد، قد أصبح مدينة كاثوليكية وأيرلندية.

وفي إقليم بوسطن تتحكم العائلات البروتستانتية في المجتمع وشئون العال،- وفي مدينة بوسطن نفسها المطران كاثوليكي، والعمدة أيرلندي، وهما يعدان من أهم شخصيات المجتمع، أفبهذا يصح القول بأن الروح الأنجلو ساكسونية في مجتمع هذه المدينة قد توقفت عن الظهور في الولايات المتحدة جميعها ؟ بيد أنه ما تزال لها آثار في بعض المدن الحديثة التي خلقت منذ قرن في وسط البلاد وغربها و إذا عبرنا ما وراء إقليم بنسلفانيا وما وراء شيكاغو، نلاحظ دون جهد أو عناء، في هذه المدن الحديثة، أن النخبة الموجهة فيها، إما رجال من المهاجرين الجدد،. أو ممن كان آباؤهم قد أتوا من الشرق واستقروا في هذه المدن، أو أنهم من إحدى ولايتي « ماساشيست » و « فرجينيا » : وهؤلاء قد جلبوا معهم كل الصفات التي خلقت عظمة الولايات المتحدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر..

وإذن، فإعلاء شأن الولايات المتحدة يتصل بسبب وارتباط لا

ينقطع تأثيره أبدا، رغم تغير الشخصيات الموجهة، ومن هنا نلاحظ أن الشخصيات الموجية تنبع دائما من الغرب والوسط وهي شخصيات مطبوعة على الثقة بالنفس والتغطرس والكبرياء إلى حد ما، وهم يتشابهون مع الألمان في الجدية ومواهبهم التنظيمية وقد ظلت نسبة البريطانيين البورتيانيين ج د مرتفعة بين الرجال المعدودين من الشخصيات المحصورة في « النخبة الممتازة »، و إلى جانب هؤلاء بضع أفراد من أصل يهودي أو لاتيني أو صقلبى، على أن الأدب الأمريكي يعكس لنا صورة واضحة عن التيارات الأدبية الأجنبية التي اصطبغ بها والتي لم تقتصر على الأدب البريطاني والبروتستانتي حسب : فقد مرت أمريكا بفترة بلغت فيها آدابها أوج الرفعة، كما أصبحت مصدر إشعاع فكرى رائع.

ولم يكن أبرز ما يستدعي الاهتمام، هو التغير الناتج عن تغيير الأشخاص بل الثورة المترتبة على الظروف الجديدة من الإنتاج والطريقة الفنية : فمنذ الحرب العالمية الأولى ظهرت حياة مادية جديدة كانت الولايات المتحدة من روادها الأول : فالاستعداد الميكانيكي الجماعي للإنتاج القائم على العمل بالآلة، والإنتاج على نمط واحد وبكميات وفيرة تسللا إلى كل شيء واقتحما كل شيء وغيرا كل شيء، وقد كان لهذا تأثير جارف لا يكاد يقاوم، كما كان له تأثيره على الآلات البدائية الصناعية و الحياة اليومية، وفي المنزل فضلا عن الصحف والمجلات والكتب والدين والفراغ والدعاية والسياسة نفسها ! وقد مست يد التغير كل شيء ولم تدع شاردة ولا واردة إلا وتناولتها ونفذت إليها كما تتسرب

المياه خفية من وراء حاجز، وعلى ضوء هذه الحقيقة نقول : إن الحضارة الأمريكية لم تغير الفكر والخلق فحسب، بل غيرت كذلك من العصر، فقد حل عصر الآلة محل عصر العامل.

ولقد كان عمر العامل يستوحي مثله العليا من المبادئ الفردية وهي : المبادأة ومسئولية الضمير الشخصي، وتحمل حياة قاسية و إنكار الذات والتقشف أما بعد ظهور الآلة، فقد اكتمل استثمار القارة بأجمعها، ولم يعد هناك حدود بين ولاية وأخرى، بل أصبحت أراض حرة مفتوحة للاستثمار والاستغلال : فالعصر الجديد هو عصر الآلة القائم على التنظيم الجماعي، وقد تركت الحياة الأمريكية في القرن العشرين شعورا عاما هو : الشعور بعمل بناء في هذه الدولة، بحيث. يشترك فيه كل الناس على اختلاف مستوياتهم في الدولة، والشخصية العامة في هذه الدولة هي : شخصية الموظف. والاصطلاح عندهم لكلمة الموظف هو : الشخص الذي يقوم بمهمة « Job » أعني الذي يشغل وظيفته : فمنذ أزمة عام ١٩٢٩، خشي كل شخص أن يفقد وظيفته التي يشغلها، ومهما يكن من أمر فقد كان هناك تقدم محسوس في مستوى الحياة دون شك، وقد استدعى هذا اللون من مستوى الحياة فيها بعد تمثيل العمل الجماعي والنظام والتنظيم البيروقراطي الذي أصبحت فيه المبادأة وعدم المبالاة في الزمن القديم أمورا لا وجود لها تقريبا : فأيديولوجية توماس جيفرسون Thomas Jefferson الرئيس الثالث للولايات المتحدة لم يقدر لها النجاح ؛ لأنها لم تساير – حين تطبيقها – الوسط المشبع بالحرية، ناهيك بالأفكار الإنسانية لأبراهام لنكولن التي لقيت نجاحا

كبيرا، وذلك بسبب ظهور الآلة وما أحدثته من انقلاب وثورة في هذا البلد وفي كل مكان وقد اجتازت أمريكا فترة انتقال واضحة بين إيديولوجية الآباء وما فيها من روح شابة لم تخب أبدا وبين إيديولوجية الآلة.

(٤)

ويشق علينا – والحالة هذه – أن نتحدث عن السيكولوجية الأمريكية : فعلى حين كانت للولايات المتحدة شخصية، نجد أنها قد فقدتها سريعا وحاولت أن تشكل لها بعد ذلك شخصية، وفي خضم الأزمة الناشبة بين الروح الأمريكية التي كانت عليها بالأمس والطريقة التي تسير عليها اليوم، يصعب على المرء أن يحدد تمام مركز الجاذبية الأخلاقية والأدبية لهذا الشعب، فما هو النموذج المثالي الذي نعتبره ممثلا للسيكولوجية الأمريكية بين الأمريكيين خير تمثيل ؟ وما هي المدينة التي نتخذها كمقياس عام لهذه السيكولوجية ؟ وهل نعتبرها نيويورك أو بوسطن أو شيكاغو ؟ هل تكون هوستون أو لوس أنجيلوس بسكانها البالغين تسعين ألف نسمة ؟.. لقد شاهدت في نيويورك مسرحية مؤلفها يهودي ومحرجها أرمني، والذي يقوم بالدور الأول فيها اسود، وواضع موسيقاها ألماني.. ومع ذلك فقد كانت مسرحية «أمريكية الروح» لاقت نجاحا رائعا منقطع النظير.

إن سيكولوجية شعب كذا، ينبغي دراستها من زاوية خاصة، وقد

أوضحنا أن هذه الأجناس المختلفة، قد اكتسبت وحدة في السلوك والتهيؤ للعمل؛ ورغم هذا الفارق البين في الجنس بين صفوف الأمريكيين، فإننا نجد تشابها كبيرة في مختلف المدن في مجال الطريقة التي أقيمت بها: فالقطارات والفنادق والمطاعم ومحطات البنزين والصحف والمجلات والأفكار والإعلانات متشابهة في جميع أنحاء أمريكا، وهذا التناسق والتشابه قد أصبحا من دعائم الوحدة الوطنية ودلالة من دلالات التقدم.

وهذه الأنماط المتشابهة التي يشاهدها الزائر الأمريكي في حله وترحاله من مدينة إلى أخرى، تعد الطابع المميز للمجتمع الأمريكي، ومع ذلك، يجب ألا نتجاهل أن هذا الشعب الذي أنعشته هذه الروح ما يزال يستمد حيويته من مصادره القديمة، ولذلك نرى أنفسنا منساقين بل مدفوعين إلى بيان أن هناك نخبة موجهة على الطريقة الأخلاقية والأدبية الموروثة من ناحية، ومن ناحية أخرى نخبة أكثر سلبية من الأولى، وهي تفضل الخيرات المادية الأمريكية على الروح في توجيهها، وقد يجدر بنا أن نتحدث عن الطوائف في أمريكا، لا عن الطبقات، لأنه ليس فيها طبقات.. وكل أفراد الشعب الأمريكي متساوون من الناحية الاجتماعية، أما من الناحية العنصرية، فإن هناك حاجزا دقيقا : فهناك – مثلا – فرق بين كل من الأمريكي الذي هو من أنجلو ساكسوني، وكل من أخويه اللذين ها من أصل صقلبي لاتيني أو إيرلندى كاثوليكي، وقد سقط محافظ نيويورك آل سميث Al Smith حين رشح لانتخابه رئيسا للولايات المتحدة في عام ١٩٢٨ ؛ لأنه كان إيرلنديا و إيرلنديا كاثوليكيا،

ولم يكن من أسباب سقوطه كونه من وسط متواضع بل انتماؤه إلى طائفة الإيرلنديين، وهناك أمر آخر يميز أمريكا هو : ديمقراطيتها المطلقة ؛ ونحن نستطيع – في ضوء وجهة النظر هذه – أن نتبين سيكولوجيتين تتصلان بمرحلتين في الولايات المتحدة.

فالخصال التي تميز الدولة الموجهة هي خصال نشطة، ويبدو أنها ترجع في الأصل إلى الأنجلو – ساكسوني والتشكيل البروتستانتي. وتنسب هذه الخصال إلى البوريتاني الأمريكي والعامل الأمريكي أيضا ؛ ومن المعلوم أن من خصالهما : المبادأة والفعالية اللتين تنشان عن الضمير وتقدير الجهود وعدم التمسك بالروتين»، كما يمتازون بالثقة في الإنسان بعامة والرجل الأمريكي بخاصة، في حين أنهم يثقون في القارة الأمريكية عامة والولايات المتحدة خاصة ويولون ثقتهم للدستور الموروث عن أجدادهم كأنه وديعة مقدسة، ولقد كان البوريتاني في القرن السابع عشر يؤمن بالخطيئة الأصلية، و إن كان قد استمد قوة نشاطه من هذا الإيمان المتشائم، وهو بذلك يعتنق مذهب « روسو» الذي ينادي بأن الإنسان خير بطبعه وأنه يجب أن نمنحه الثقة : حسن النية إذن من خصائص الرجل الأمريكي، وهي بمثابة دعامة من دعامات حبه لوطنه، كما أنها قبل كل شيء إحساس بروتستانتي بالخدمة الاجتماعية، وطبقا لما اصطلح عليه في المذهب البروتستانتي فإن الخدمة الاجتماعية، تتضمن القيام بالواجب وتذوق التبشير بالإنجيل والرغبة في الحكم على الأمور وعدم الاعتراف بأن هناك خيرين وأشراراً.

ويصعب علينا – إلى حد ما – تحديد تسلسل القيم : فالأمريكي رسول، بيد أنه رسول يتحدث عن أمور الفكر بالدولار. وهو مؤمن بأن كل شيء ينظم نفسه بنفسه بما في ذلك الفكر، كما يؤمن كذلك بأن كرامته شيء ومستوى حياته شيء آخر، فإنجيل أمريكا إنجيل اجتماعى، ولا يفهم إلا على وجه الارتقاء بحالة الإنسان الاجتماعية ورسالة الرجل الأمريكي في الحياة : أن يقوم بتعميم هذا الإنجيل في العالم كافة، ذلك أن لديه رغبة خالصة وإيمانا مطلقا بهذا المبدأ، ومن الخطأ أن نقول عنه : إنه مثالي أو مادي، فهو في الواقع ها معا، وهما يبدوان لنا شيئين متناقضين متنافرين أما من وجهة نظره فهما شيء واحد لا يفصلهما فاصلة وقد كتبت صحيفة نيويورك الاقتصادية في مقال لها في الرابع من اكتور عام ١٩٣٠ تقول:« لقد حققنا الكثير في الميدان الروحي ؛ ففي الإحصاء الذي أجرى في عام ١٩٣٣ وهو عام أزمة اقتصادية عنيفة أنفقنا ثلاثة مليار من الدولارات المستثمرة في معاهد التعليم والتربية الخاصة والعامة، وقد جاوزت استماراتنا في الكنائس أربعة مليار من الدولارات، وربما عدت هذه الخدمات الاجتماعية في مجال الإنجازات المادية مثلا يحتذي به البروتستانتية الأمريكية حسب مبادئ هذا المذهب، وليس هناك في المجتمع مكان للرجل الذي يعيش في الخيال أو الرجل المتصوف، فكرسى الأستاذ في الجامعة يتضاءل أمام كرسي الرئيس الذي يجمع الأموال لتدعيم الجامعة.

وقد تكونت أمريكا من قادة تنطبق سيكولوجيتهم على كل ما ذكرناه آنفا. أما سيكولوجية الشعب في مجموعه، فتختلف تمام

الاختلاف عن سيكولوجية القادة؛ والسبب في ذلك ظروف تشكيل هذا البلد : فالقادمون الجدد من المهاجرين قد انخرطوا في نسيج بنيان اجتماعي لم يصنعوا لأنفسهم ولم يصنع لهم، وقد كان إلزاما عليهم أن ينخرطوا في هذا المجتمع الجديد بالنسبة لهم، حيث لم يكن لهم مفر من ذلك ؛ وقد قبلوا هذا الوضع عن طيب خاطر، ويعد هذا برهانا على مدى تكيفهم السريع مع مجتمعهم الجديد، ولا يدور بحثنا الآن حول صفات العامل أو الفرد الأمريكي، بل يجب أن يشمل المجتمع الذي يمثل حياة المدن الا الريف منذ أن توقف عن العمل أن يأخذ طابع الفردية ليحل محله طابع الجماعة، ومن أهم صفاتها المثابرة الدائمة وقوة الإحتمال والنظام، ونقصد بهذا المجتمع الشعبي الذي يبني قوته اقتصاديا، ولكن طابع هذا المجتمع الشعبي يناقض ما ذكرناه آنفا من سلبية في التفكير وتجرد من حب الوطن وقد كان الأيرلنديون في رئاسة مجالس البلديات بحق هم رواد المجتمع الذي يبني قوته اقتصاديا، وقد كانت بعض القوانين الاقتصادية التي صدرت منذ عهد روزفلت تهدف إلى تحسين اقتصاديات أفراد الشعب، وقد اتخذت النية لتعميمها بين الجميع على قدم المساواة، و بذلك يصبح الفرد في خدمة المجموع، ولنلاحظ من وجهة أخرى، أن الشعب الأمريكي كافة، وحتى الغوغاء منهم، يحبون النظام من أعماقهم، وهم قوم يميلون إلى المحافظة على كرامتهم وليسوا بثوريين، كما أنهم يحترمون و يحبون نظام حكمهم فضلا عن أنهم من الشعوب الوديعة الطبيعة. ثم إنهم لا يطبقون النظام الذي هو طابع من طوابعهم المميزة في العمل فحسب، بل في سلوك حياتهم

الخاصة زاهيك بعرض أفكارهم أيضا. و يجل الأمريكي كل ما يأتي به العلم، وهو يؤمن بالتربية وبخاصة التربية العملية، وهم يعتبرونها كسبا ثقافيا، ويؤثرونها على مجموعة من الطرق التربوية الصماء، ثم إنهم يفضلون التربية التي يمكن فهمها بسهولة، والعلم الذي لا يحتاج إلى بذل مجهود أو عناء في تفهمه ؛ والأفكار السبلة التي يسهل تناولها دون تعب أو إرهاق كما يتناول المرء حبات الدواء التي يمكن الاستفادة منها بسهولة تامة، وتزخر الولايات المتحدة بالأخصائيين في مختلف فروع الحياة ومن هنا كانوا أهل تجربة وخبرة.

ويسود مبدأ المواءمة السريعة بين أفراد هذا الشعب الذي كان قديما شعبا ضالا لا يعرف له مستقرا، وهذه المواءمة هي إحدى صفات المهاجر التي يكتسبها بمجرد استقراره في البلاد، وهي تدل أوضح الدلالات على مدى تكيفه بعد وقت. قصير مع المجتمع الأمريكي : فقد أصبح الجميع سواسية لا فرق بين هذا وذاك إلا بالعمل الصالح، وقد كان من عوامل تقوية الوحدة فيا بيهم محاولتهم توحيد الزي والسلوك والأفكار. وقد لا أكون مجافيا للصواب، إذا رأيت في هذا الاتجاه من المواءمة في كل شيء خطرا يهدد المستقبل الحضاري لهذه البلاد ؛ ولكن الأمريكي يقاوم هذا الخطر ببراعة عن طريق عمل الدعاية والنشر : وتلعب الدعاية دورا هاما في حياته فهو يتفاعل معها تماما. وتستخدم الحكومة هذا الأسلوب حين تريده أن يشاركها الرأي.

وتسود روح النقد النظام الأمريكي، وهي كثيرا ما تساعد على أن

يعم التفاهم بين أفراد الشعب، على أن هذه الروح تحترم خبرة الأخصائي أشد احترام، وتفوق الطريقة الفنية –– هذه المعجزة الشابة الحديثة الثقافة بكثير هذه العجوز الشمطاء. على أن هؤلاء المهاجرين الشيوخ الذين استقروا في هذه البلاد يحملون معمم تجارب قرون، وقد عملت أمريكا على تجديد حيويتهم ونقلهم بالسرعة المعروفة عنها من الشيخوخة إلى الشباب ثم إلى الطفولة، ويخالجنا شعور بالسذاجة. تجاه هؤلاء الأمريكيين الجدد الذين يفخرون بالات التفكير الحديثة وينسون الفكرة.. في حد ذاتها وهم لا يبخلون بالاعتراف بالجميل لإنجلترا وهي التي علمتهم مبدأ « كرامة العمل » و « الحرية السياسية »، وفي هذا النظام مهيأ الفرصة لكل فرد – دون قيد و شرط – كي يصل إلى ما يبتغي ويهوى، فقد يصبح الأمريكي مليونيرا من لا شيء، كما يصبح رئيسا للجمهورية إذا كان يتمتع بالمؤهلات التي توصله إلى ذلك.

(٥)

ولا يسعني وأنا أختي هذا البحث إلا أن أقول : إن الولايات المتحدة تستغل في وقتنا الحاضر إلى أقصى حد ممكن كل إمكانياتها، وقد بلغ نشاطها غاية منتهاه في القرن التاسع عشر، كما أثمر هذا النشاط في القرن العشرين. وقد كشفت لنا الحرب العالمية الثانية عن مدى قدرة هذه الدولة على الخلق والإبداع والتنظيم، كما ساقت إلينا الدليل تلو الدليل إبان الحرب السابقة على قدرتها على التكيف بسرعة مع الظروف الجديدة، و إن الشعب الأمريكي لم يسمح للروتين الحكومي أن

يكون وحده مصدر هدايته وإرشاده في مسالك حياته التي تحيطها غياهب الظلمات : فقد أنشأ الجيوش وفق مقتضيات الظروف التي عاش فيها وعبرت أسوار حياته، دون الرجوع إلى أية سابقة له في التاريخ، سواء في ذلك وسائل النقل أو الإدارة أو الحفاظ على روح الشعب المعنوية، وقد كان لزاما عليهم أن يوفقوا بين صفاتهم التي تنطوي على شبه تعارض أي بين المرونة والحزم.

ومن الآن فصاعدا، نستطيع أن نشير إلى أنه قد أصبح هناك انفصال تام ملموس بين « إيديولوجية القرن الثامن عشر » أي بين « الإيديولوجية الفردية) والبنيان الجماعي للآلة والذي شرع يفرض نفسه رويدا رويدا على المجتمع الأمريكي فالحكمة التي ذكرها الكاتب الفرنسي لاروشفوكو « La Rochefououald » والتي نقلها إليكم تنطبق تمام الانطباق على سيكولوجية الشعب الأمريكي. وهذه الحكمة تقول: « إن الإنسان يسوس نفسه بنفسه عندما تتهيأ له الظروف، وفي الوقت الذي يتجه فيه إلى بلوغ هدف ما عن طريقة تفكيره، تراه يتجه بقلبه نحو هدف آخر دون أن يشعر أو يحس ». فالإيديولوجية الفردية فضلا عن المتحررة منذ القدم، قد أصبحت لا تتلاءم بتاتا مع مقتضيات مجتمع انتشرت فيه الصناعة على نطاق واسع المدى.

وفي القرن التاسع عشر، كانت هناك نسبة كبرى من الأمريكيين تبذل. جهدا مشكورة في أعمالها : فالعمال والزراع والمنتجون، كانوا يسعون من أجل وضع حل لتدخل الدولة في حياتهم الخاصة، ويطالبونها بتحمل بعض المسئوليات الجديدة التي تقع على عاتقهم... ولقد كانت

الديمقراطية في هذا القرن تعني أول ما تعني « الفردية والمركزية » ؛ أما في القرن العشرين، فإن الصناعة الميكانيكية كانت تعني العمل كجماعات في ظل نظام جماعي، من أجل تنفيذ مشروعات ضخمة، وعلى ذلك فإن الأمر يتطلب وجوب تنظيم حياة العامل على نسق الآلة، ولما لم يعد قادرة على مواجهة أعبائه الجديدة، أحس أنه مضطر إلى اللجوء إلى الدولة وقبول نظامها الاجتماعي الذي نظمته ثلاثة قوانين بدأت منذ. عهد روزفلت لتحقيق العدالة الاجتماعية، فقد ذكر مستر روبنسون « Robinson » أن الطرائق الفنية في الصناعة هي حجر الزاوية لتحقيق المشاريع الضخمة.

وقد طابت أمريكا نفسا لهذا النظام الذي يحقق لها مستوى من الحياة أفضل كما رضيت عن تحديد ساعات العمل، وقد كان لهذه الحياة من باهظ، حيث أخضعت ملايين الزراع والصناع لنظام الآلة، بعد أن كانوا يعملون في جو هب عليهم فيه نسائم الحرية التي ليس لها حدود ولا تحدها قيود... هذا وقد ظلت الإيديولوجية القومية، كما كانت منذ مائة وخمسين عاما فردية ومبادأة وحرية وتنافسا كما غدا الرجل الأمريكي مخلصا لهذه الإيديولوجية يدفعه إلى ذلك الإيمان العميق، بيد أنه في الوقت الذي يتجه فيه إلى بلوغ هدف معين – عن طريق تفكيره – كما يقول الحكيم الفرنسي لارو شفوكو. نرى تيار العصر يسوقه – إلى الاتجاه بقلبه صوب هدف آخر دون ما شعور أو إحساس... والواقع أن هذه المشكلة هي المشكلة الأمريكية الحقة، بل هي مشكلة كافة أقطار الغرب

الخاتمة

الحضارة الغربية

تعريفها.... ومستقبلها

مما قدمنا من الصور الست في الفصول السابقة، نستطيع أن نستخلص بعض الصفات المميزة للحضارة الغربية، على أن هذه الصورة تبين لنا مدى ما بلغته من نجاح وتفوق، كما تبين لنا أن نتصور غروب شمسها وأفول نجمها وتغيرها المرتقب.

وقد أمكننا منذ وقت طويل أن نوحد بين أوروبا والجنس الأبيض والحضارة الغربية في ترابط من المعاني، كما كان لفظ « الغرب » يقتصر على القارة القديمة فقط، قبل ظهور الاكتشافات الحديثة، وعندما تفرق الجنس الأبيض في العالم هادفة إلى الإكتشاف والغزو والاستغلال فإن القارة القديمة التي ظلت موطنه الأصلي لم يعد قاصرة عليها، وعندما انتشرت هذه الحضارة وسطعت شمسها على شواطئ القارة، تجاوزت ذلك إلى ما وراء شواطئها : فأمريكا الشمالية مثلا، قد أصبحت مركز الإشعاع لهذه الحضارة، على حين لم تتأثر «رابطة الأورو آسيوية » بها. ونحن نشك كثيرا في مقدرة الغرب على الاحتفاظ بمميزاته القديمة التي صنعت شخصيته مع مسايرتها للتيارات المختلفة، وفي ظل اتجاه الاستقرار له.

(١)

إن مصادر الحضارة الغربية جد قديمة ومتنوعة في آن معا، وهي ترتكز على ثلاثة مفاهيم : المعرفة، والإنسان، والطريقة الفنية في الإطار الحديث للثورة الصناعية.

من ناحية المعرفة، نحن مدينون لليونان في طريقتي التفكير والحكم على الأمور : فقد أخذنا عن اليونانيين روح النقد ما اقتبسنا ملاحظة الظواهر ومناقشة المشكلات بحرية تامة، وقد عرف اليونانيون قدما استقلال الفكر الإنساني المتحرر من السحر والنبوات والمخالف للفعل والدين نفسه : فقد سبق المهم أن « عامنوا» أي أبعدوا المعرفة عن الدين عند البحث عليها، وقد أخذنا عنهم كذلك سلوك طريق المنطق في الحكم على الأمور، وفن توضيح الفكرة عن طريق أدلة وحجج يؤمن بها ويثق فيها الفهم تمام الوثوق ؛ بل إن الآلهة عندهم كانوا يلتزمون باتباع المنطق، ويتمثل الحاجز الأول بين الشرق والغرب في طريقة التفكير عند كل، ونحن نستشف من الآداب والعلوم الآشورية والمصرية أن الرجل الشرق يأمر ويؤنب ويرجو ويتنبأ بالمستقبل، وأنه عندما يلاحظ، يحكي ملاحظاته، ثم يعدها، ويجمعها واحدة واحدة، وأخيرا يكون منها مجموعة، و يتبع الرجل الإغريقي نفس الطريقة، ولكنه يبحث على أن يستخلص من ملاحظاته قوانين عامة ؛ بالكشف عن ماهية الأشياء.

وقد كان المصريون علماء في قياس الأرض ومهم أو كليد Euclide الذي كان يدرس الرياضة بالإسكندرية في عهد بطليموس الأول في القرن الثالث قبل الميلاد، وهو أول من اخترع على الهندسة، و بين الطريقتين فرق كبير ؛ فالطريقة الثانية قد أحرزت في مجال التطور الإنسان تقدما ملحوظا حتى إن أعرق الحضارات الآسيوية كالحضارة الصينية مثلا لم تلحق بها في هذا المضمار. واليوم فإنا نعتبر المرء يعيش بعقلية الغرب متى استطاع في أي بقعة من العالم ملاحظة الأمور والتفكير فيها وتحقيقها على طريقة الإغريق.

وتنطوي الممارسة في الحكم على الأمور بالحجة والبرهان على مراقبة الإنسان لنفسه ومحاسبتها ومراجعتها، على أن مثل هذا الإنسان يكون مطبوعا على الحرية والخضوع للقوانين التي منحها لنفسه أو رضي بها والتي يستفيد بها في شئونه السياسية فحسب، وهو يريد من القانون ضمانات يكفل بها احترام كرامته الإنسانية وحريته النقادة، وقد أخذ عن الإغريق فما أخذ مفهوم الفرد من وجهة النظر السياسية، على أن الديمقراطية الغربية لا تنفصل عن الحرية أبدا، وها متلازمتان دائما، كما أنها ترتكز على قاعدة ليست مفروضة وتتعارض مع هوى الحاكم المستبد.

وتتضمن فلسفة أفلاطون إحساساً فطرياً بالعلاقات وتناسبها فيما بينها، وقد كان الشرق على نقيض ذلك ينحو منحى الضخامة في تصور العلاقات، ولا يرعى التناسب فيما بينها، كما كان الإغريق يفضلون تآلف

العلاقات التي تنشأ عن القياس بين بعضها البعض ويستطيع المرء الذي يكون على علم تام بعلاقة الأشياء بعضها البعض أن يصبح قادرة على تقدير أهدافها بالوسائل التي يقوى بها على بلوغها، و بذلك يكسب لنفسه قاعدة للسلوك خاصة به، وليس من الضرورى أن تكون قاعدة عامة من قواعد على الأخلاق. وعندما يتعرض الغرب لمشكلات خطيرة فإنه يتبع « الطريقة الإغريقية » في حل مثل هذه المشكلات دون تحفظ أو حذر حتى لو كانت هذه المشكلات تتعلق بالدين أو تبتعد عنه. ورغم ما عرف عن الإغريق من أنهم يحكمون العقل في كل ما يعن لهم من أفكار، فإنهم قد حددوها في ميدان واحد من ميادين الحياة : فالحرية لم تكن مطلقة في الميدان الاجتماعي، بل في ميدان الدراسة العلمية والأدبية والمنطقية.

وقد نضب معين الحضارة الإغريقية على طول الزمن : فالقسطنطينية التي استمدت حضارتها من الإغريق وعملت على انتشارها في بلاد الغرب، قد فقدت اليوم هي الأخرى تراث هذه الحضارة، ولولا هذا التراث الإغريقي لما كان للغرب أية حضارة.

والأخذ بالطرائق الفنية الجديدة في الصناعة هو الذي صنع للغرب ما يتمتع به اليوم من قوة، وقد بدأت الثورة الصناعية في مستهل القرن الثامن عشر، بعد أن مهد لها علماء القرن السابع عشر وفلاسفته بخلق طريقة شقت للإنسانية طرقا جديدة للرقي والتقدم، وبهذه المناسبة يجب أن نميز ما بين العلم والطريقة الفنية. وقد سبق لهؤلاء الإغريق أن تصوروا

قواعد الملاحظة العلمية، و إلى حد ما التجربة. وقد كانوا يعبرون تعبيرا صادقا عن فكرة القانون الطبيعي لدرجة أن العلماء المحدثين لم يأتوا بجديد في هذا الشأن، لكن العلماء الأقدمين، كانوا فيها عدا بعض منهم، مهتمين بالعلم النظري، و يشغفون بالتأمل في البحث عن التقدم المادي، وقد كانوا يعيشون تحت سماء مناخ البحر المتوسط المريح والذي لا يجعل من مشاغل الحياة العملية أمر حتمية بالنسبة لهم : أما في شمال غربى أوروبا، فيجب أن نشن حربا ضد البرودة والرطوبة وتقلبات الجو المفاجئة، و بذلك اتجه العلم اتجاها بعيدا عن المشاهدة والتأمل ؛ وشرعت الطرائق الفنية تتغلب على العلم. وقد ظل حب المعرفة عند المفكرين والعلماء القوة الدافقة المسيطرة، ولم يعودوا يهتمون بعد بتطبيق العلم، فنحن نرى في الطريقة التجريبية للفيلسوف الإنجليزي بيكون « Bacon » مصدرة للفعالية الحديثة، وفي طريقة الفيلسوف الفرنسي « ديكارت » التي نجدها في العقلية الأمريكية. وهؤلاء المفكرون أو الفلاسفة الذين نعتبرهم امتدادا لمفكري الإغريق هم الذين هيأوا أظهور الازدهار الصناعي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

على أن الآلة التي مارسها الغرب وانتفع بها، لا تنتج الثرة المرجوة منها بغير العلم والمنطق على الطريقة الإغريقية، وتتلخص « الطريقة الفنية» للآلة في امتلاك القوى الطبيعية التي تخضع لاستقلال الإنسان والتي تتضاعف قواها إلى غير حد، ولم تكن الآلة في العصر الحجري لتنتج إلا على حساب عضلات الإنسان التي لا تستطيع مجاوزة طاقاتها الطبيعية في الإنتاج، على أن الآلة في العصر الحديث – رغم أنها ليس

لها علاقة البتة بعضلات الإنسان – لا تعرف لها حدوداً في الإنتاج ومن ثم فلا شيء لديها مستحيل إطلاقا. وقد ترتب على هذا التطور تشكيل جديد في الحياة الاجتماعية للإنسان، لأن العلم الذي أضحى في خدمة الصناعة، كما غدا شيئا غير الرغبة الخالصة في معرفته، تحول إلى أسلوب يهدف إلى خدمة حاجيات الإنسان. والذي يسيطر على الإنسان. هو رغبة من اقتدار، وتعجل في استغلال الأرض التي يعيش عليها. والإنسان هو سيد طرائقه، ولم يعد سيد نفسه : فهناك نوع من الرومانتيكية تتسلط عليه، كما عبر عنها الكاتب الفرنسي بارس Barres بقوله : « إن أية طريقة لابد وأن تكون في خدمة رغبة دنيوية »:

وليس عمر الآلة في عداد العصور التاريخية المعروفة، ولكنه عصر قائم بذاته.. انه عصر مستقل عن العصور الأخرى في تاريخ الإنسانية : فبعد أن أوشك العصر الحجري على الانتهاء ظهر عصر الآلة : وهذا العصر يوافق سياسة الإسراف المبتذلة للثروات الطبيعية في العالم دون الاهتمام والتفكير في آثار هـ ذا الإسراف في المستقبل بالنسبة للعالم. وقد احتكر الغرب لمدة قرن ونصف القرن العلم والصناعة الميكانيكية و بذلك استمد منها قوة ليس من السهل مقاومتها. فالتوازن الذي كان بين أوروبا وآسيا لم يعد له وجود، وحين اكتشفت آسيا مؤخرا أن الطريقة الفنية الغربية ترادف السيطرة والتسلط، حاولت جهد الطاقة أن تقلدها لا عن طريق إعجابها بها بل عن طريق الدفاع عن نفسها وحماية نفسها بنفسها. واليوم تؤمن جميع القارات والبلاد والأجناس بأثر الآلة واختراعها، وتجديدها شيء آخر ؛ وهنا يكمن علو كعب الغربيين في

ميدان تجديد الآلة والعمل على صيانتها وتحسينها، ولا نعني بذلك التقدم الفني للآلة، بل النجاح الذي أحرزه الغرب في الاعتماد على العوامل المتشعبة والمصادر القديمة والمتنوعة التي نشأ منها هذا النجاح.

وقد تكونت الحضارة الغربية في وسط جغرافي خاص، حيث نشأت في الأصل في حوض البحر المتوسط عامة وفي شرق البحر الأبيض خاصة، ثم انتقلت إلى أوروبا الوسطى وشمال أوروبا الغربي، حيث هيأت نفسها للنظام الصناعي الذي هو الطابع المميز للغرب اليوم، فإذا كانت بيئة التقدم الفني قد تحددت بوجودها اليوم في العالم الجديد فإن البوادر الأولى لهذا التقدم، قد وجدت في العالم القديم أولا، إذ أن هناك بيئات جغرافية تدل دلالة واضحة على انبثاق الحضارة الغربية فيها.

وإني لأرى في حوض البحر المتوسط بيئة جغرافية إنسانية ، حيث لا تقسو الطبيعة أو تشتد تجاه الإنسان وقد كان السفسطائي الإغريقي بروتاجوراس Protagoras يقول في هذا المقام : « إن الإنسان هو مقياس الأشياء ». ويصف بول فاليري Paul Valery قول هذا الفيلسوف بأنه يمثل طابع حوض البحر المتوسط خاصة، كما يمثل أوربا أيضا. والواقع أن الإنسان في القارة القديمة قد كيف نفسه مع الطبيعة والمناخ بوجه عام فهو مناخ معتدل هادي وليس بالمناخ القاري المعروف بشدة حرارته وبرودته، أي أنه – على حد تعبيرهم – « بين بين ؛ على أنه لا يثير في الإنسان البلادة أو الحماس في العمل الذي يفيض عن

الحاجة، بل إنه على العكس يثير في المرء حالة وسط بين الأمرين. ففي مثل هذه البيئة توجد علاقة بين الإنسان والطبيعة التي يعيش فيها. ولا يفوتنا أن نشيرها هنا إلى أن أوروبا تعتبر القارة الوحيدة في العالم التي تمثل هذا الطابع المميز بين الإنسان والطبيعة.

ومن النتائج الواضحة لتأثير مثل هذا المناخ على الإنسان إمكانية قياس المجهود للوصول إلى الهدف المقصود، وهذا يبعث القدرة على مواءمة سلوكه مع مبادئ علم الأخلاق أو على الأقل الإحساس المعقول بالسلوك والتصرف، أما إذا كانت البيئة الجغرافية شاسعة المساحة غير معتدلة المناخ، كما هو الحال في إفريقيا وآسيا وأمريكا مثلا، فإن هذا النوع من التوازن بين سلوك الإنسان ومبادئ علم الأخلاق، لا تكمل صورته في مثل هذه القارات. وعلى ذلك يكون العمل فيها إما مفرط في السهولة أو الصعوبة، كما أنه لا يحدث أن تنشأ علاقة ثابتة بين المجهود المبذول ونتائجه المرتقبة. ويؤمن الفلاح الأوربي إيمانا راسخا بطاقة الإنسان المحدودة، وضرورة مسايرة إنتاجه لطاقته، وقد تكون الحرب هي التي جلبت معها هذا السلوك الاقتصادي. بيد أنه عندما نقارن تصرفاتنا في العمل والإنتاج بمثيلاتها في الأجناس الأخرى، بل مع إخواننا من الجنس الأبيض فيما وراء أوربا ؛ نجد أن أوربا قد أرست مبادئ خاصة بالعمل كانت إحدى عوامل نجاحها في المجتمع الإنساني..

ورغم أن البيض في جميع أنحاء العالم لم يرتبطوا فيما بينهم بهذه

الفكرة، ولأنهم قد ظلوا يقاومونها في آسيا، فإن الحضارة الغربية فضلا عن أنها ثمرة من ثمرات البيئة نرى أنها كذلك عمل من أعمال الجنس، والبيض وحدهم هم الذين صنعوا حضارة الغرب ؛ والمسافة التي تفصل البيض عن السود والحمر مسافة كبيرة و إذا كان الجنس الأصفر قادرة على فعالية تنافس فعالية البيض، فإنهم يقاسون من تأخر فني يقدر بثلاثة قرون. وفي هذه الظروف، فإن حضارتنا تشمل منطقة جغرافية، نشعر فيما بيننا وبين أنفسنا، أنه من الصعب تعيين حدود لها.

وقد كان للشرق حضارة في العصور القديمة، قبل أن يظهر إلى عالم الوجود ما يسمى بالغرب فيما عدا العالم الإغريقي الذي خلق طريقة جديدة في التفكير. فبحر « ايجه » مدنه الإغريقية الواقعة على الشاطئ الأسيوي كان على صلة وارتباط حضارة غير حضارة الفرس التي تمثل الحضارة الشرقية الخالصة. ففي عهد الأسكندر الأكبر امتد ظل الحضارة الإغريقية حتى وصل إلى الهند، بيد أن هذا لم يستمر طويلا ؛ ذلك أنه في القرن الثاني بعد الميلاد استرد الشرق حضارته في هذه المنطقة. وفي ظل العرب، نشطت حضارة العرب وتفوقت على الحضارة الغربية من الخليج إلى المحيط، بل إنهم كانوا أكثر ثقافة وتهذيبا من الغربيين. وقد كانوا الرواد الأول قبل الغرب في المبادأة والحرية التي اقتبسها الغرب منهم. وعند سقوط الإمبراطورية العثمانية انحسرت حضارة العرب داخل حدودها القديمة.

ترى ما هي هذه الحدود ؟ يبدو أن حوض البحر المتوسط والبلاد

الواقعة خلف موانيه، وهو الذي تأثر حضارة العرب كثيرا ما يزال يعتمد على حضارة الغرب : جميع المواني التي تقع على شاطئه مثل : الإسكندرية والقسطنطينية وسالونيك و بيروت... الخ. تختلف عن البلاد التي تقع خلف هذا الشاطئ وكأنها مواني الصحراء وسوق لها : فالقاهرة و بيت المقدس ودمشق وحلب تستظل مناخ يختلف عن مناخ تلك المواني وتنتمي إلى عالم غير عالمها. و إذن فهناك اختلاف بين حضارتين و بين منطقتين جغرافيتين أيضا. ومن صواب القول أن الحديث عن حوض البحر المتوسط يشبه حديثنا عن منطقة غير صحراوية. وبالإضافة إلى ذلك فإن حضارة الشرق قد بدأت مع بزوغ فجر الإسلام الذي استرد كل ما قامت به أثينا وروما من غزوات وفتوحات في آسيا.

على أن التشابه بين أوروبا القارة وآسيا ليس واضحا جدا. فالغرب الخالص مثل أوروبا الغربية ووسط أوروبا. على أنه عبر الاتجاه نحو الشرق نجد تغييرا غير محسوس على درجات : فاختلاف الوقت من الغرب إلى الشرق يقسم القارة إلى كتل حضارية ؛ وحين نشرف على أرض روسيا نشعر أننا لسنا على أرض آسيوية أو أوروبية، بل نشعر بالتأكيد أنا قد تركنا الغرب وراء ظهرانينا.

وأخيراً، فهناك في الغرب الأقصى جزء من حضارتنا لم يعد أوروبيا قلبا وقالبا : فالولايات المتحدة التي كانت من الممتلكات البريطانية وجنوب أمريكا أيضا، لم يعد لنا فيها حضارة غير سيادة الجنس الأبيض، و يضاف إلى ذلك المستعمرات التي أديرت بواسطة الجنس الأبيض

وهي التي اقتفت أثر حضارتنا خطوة خطوة. ويجب ألا ننسى البلاد التي لم ترتبط أصلا بالعالم الغربي وهي التي استخدمت الطرائق الفنية الغربية واتبعت مظاهر حضارتها المادية، حيث لا تزال متعلقة روحيا حضارتنا في نطاق ضيق.

وفي ضوء هذه المميزات وحين يذهب عن الحضارة الغربية غرورها ونفاقها ومظاهرها، تبقى الروح خالصة نقية ناصعة. ويعتقد الغرب ويؤمن عن أصالة بأن المرء يستطيع أن يصنع مستقبله بنفسه، بل إنه يجب أن يصنعه، فلا ينتظر من السماء أن تزف إليه أسباب السعادة، وعليه بعد أن يحدد هدفه في الحياة،، أن يعمل ما وسعه الجهد من أجل الوصول إليه وأن يتابع هذا العمل حسب الخطة التي رسمها لبلوغ أهدافه ومراميه. ولا تعبر هذه الحضارة عن القدرية أو السلبية، فقد ركزت اهتمامها على المظهرين المادي والاجتماعي للأمور ؛ وهي ترنو داء إلى التقدم الإنساني. وهؤلاء الذين يعرفون قارة آسيا حق المعرفة، لا يغيب عن بالهم مدى اختلاف وجهات النظر في الأمور هنا وهناك، وإلى أي حد استسلمت الفقر والجوع والمرض والضعف الجسماني العام. وينحصر المصدر الحقيقي للسعادة عند الآسيويين في شيء آخر غير التقدم المادي

وحين يتحدث الغرب عن الله يسهب كثيرة في حديثه، بيد أنه في الأغلب لا يضع كل شئونه الدنيوية بين يديه و يكل إليه شتى أموره كلها و يحمل المثل القائل : «عاون نفسك، فإن الله سيعاونك) كل هذه

المعاني. وقد كتب La Fontaine في هذا المعنى يقول : « على المرء أن يساعد نفسه أولا، ثم تأتي بعد ذلك مساعدة الله له » وعلى ذلك، يجب أن نعمل ونجد في أمورنا دون أن ننتظر أية معونة من السماء، وهذا يعتبر « علمنة » للعمل في أي ميدان من ميادين الحياة التي يسودها حك العقل وطرائقه. وقد كان العالم منقسما بين اثنين إلا ثالث لهما : « الله وقيصر». وقد عاق المؤرخ الفرنسي أرنست رينان Ernest Renan على قول المسيح : (إعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » بأنه دعامة الحضارة الغربية، وقد خططت هذه العبارة مستقبل المسيحية في العالم كله وهي عبارة ذات روح و معنى دقيق، كما أنها هي التي دعت إلى انفصال السلطتين : « الروحية والزمنية »، وهي التي وضعت دعامة الحرية والحضارة الحقة.

وقد كانت هذه الأفكار تدور في رؤوس الشخصيات، أو أنصاف الآلهة في القصص الإغريقية واللاتينية ؛ فكان برموته Promethee الذي تقمص شخصية أحد رواد الحضارة الإنسانية ثائرة، كما كان يحث على عدم الخضوع والطاعة التي تنادي بها الآلهة. وعن طريق هذه الثورة أخذت ظروف الإنسانية في التحسن. على أن أوروبا اليوم، التي تمارس أسلوب أنصاف الآلهة، تعبر في الحقيقة ذاتها عن هذا الأسلوب الذي يحفظ عليها حيويتها. وقد نتساءل حين نأخذ بأسلوب الطاعة والخضوع في ظل الدولة ذات الحزب الواحد : هل يكون هذا أمر قاضيا على مستقبل القارة ؟ فأسلوب النقد والكفاح أمر متأصل في القارة الأوروبية : كفاح من أجل الدفاع عن الحدود أو وحدات سياسية ترفض الاندماج

مع بعضها البعض، وتناصر من يملك زعامة العالم : فتاريخ أوروبا منذ بدايته إلى نهايته ليس إلا سلسلة من الحروب الثقافية التي لا تعدو أن تكون خلافات داخلية بين دول متنافسة لا تقوى إحداها على السيطرة على الأخرى، ومع ذلك لم تتعرض الحضارة الأوروبية للضعف، وهذا يعتبر خاصية من خصائصها المميزة التي وإن باعد بين بلادها الشقاق السياسي، فإن الثقافة المشتركة لم تفرق بينها. وهناك تمايش بين بلادها في الخلق والتنظيم الوضعي والنقد الذي يعمل بروح ثورية، حيث يزن الأمور ويقيسها ويناقشها الحساب، ولا يسلم بها إلا عند الضرورة، فهل كانت أوروبا تستطيع المحافظة على حيويتها دون هذا التناقض...؟ على أن هذا التناقض قد يكون هلاكا عليها في بعض الأحيان، وقد انتقلت هذه الخاصية إلى الغرب الأقصى (أمريكا) و إن كان ذلك لم يدم طويلا

إن نفسي لتحدثني دائما بأن أية ثقافة غربية كاملة لابد وأن ت كون قد استكملت مقوماتها عن طريق ثقافة هذه الأمكنة التي تعبر تعبيرا صادقا عن الروح والتي تشكلت فيها الحضارة الغربية كما يقول العالم بارس Barres. فإذا أتيح لي أن أحج إلى هذه البلاد، فإني أبدأ بالقوقاز للبحث عن صخرة « برموتية » وفي بلاد اليونان القديمة إلى المكان الذي انتهت إليه جميع انتصارات هرقل Hercule، وسيكون المركز الرئيسي لزيارتي الأكروبول حيث أؤدي صلواتي هناك، ثم بعد ذلك أتابع رحلتي إلى بيت المقدس الذي أقدم فيه صلوات من وحى آخر غير وحى صلواتي في الأكروبول إلى المكان الذي ولد فيه المسيح الذي بشر العالم بدين تعاليه الإنسانية نفسها، وإن أنس فلا أنسى الإسكندرية وروما

ذلك البلد الذي غرس الفكرة الأساسية التصنيف في الحضارة الغربية.

إنني لأبغي كذلك التنقل في مختلف البلاد التي تكونت فيها طرائق العلمي الحديثة والطرائق الفتية للصناعة بفضل عبقرية بعض رجالها، على أن الاختيار بالنسبة لي هو من أشق الأمور على، فهل أبحث عن « ديكارت » الذي وضع لنا قواعد التفكير التي نستخدمها الآن ؟ وهل أجد في البحث عن مكان شجرة التفاح، التي شاهد (نيوتن » سقوط التفاحة منها ؟ وهل أرقد وراء وات Wat أودنيس بابان Denis Popin مخترعي الآلة البخارية التي أقامت دعائم الثورة الصناعية أم أرقد وراء كلود برنارد Claude Bernard في معمله في الكوليج دى فرانس والذي عمل على إتقان الطريقة التجريبية في العلوم أم أرقد وراء العالم Pasteur مكتشف الميكروب.

(٣)

وبعد، هل الغرب متفوق على الشرق ؟ الجواب إنه إذا كان المقصود الناحية الأخلاقية أو حياة الروح، فإن الشرق لا يعترف بهذا التفوق عليه، وفي مجال الفعالية نرى أن الغرب أكثر تفوقا على الشرق دون شك، ويجب علينا أن تحلل أسباب هذا التفوق.

إننا نلمس بوضوح وجلاء هذا التفوق في ميدان الطرائق الفنية الصناعية، وقبيل القرن السابع عشر بقليل، لم نكن نملك من أسباب هذا التفوق شيئا يذكر. وقد كان يتوفر لدى الهنود والصينيين والعرب

طوائف من الصناع المهرة في مختلف الصناعات، وبذلك تفوقوا علينا في هذا الميدان بكثير ؛ فالأنسجة الهندية والأواني الصينية والأصماغ تثير فينا دقة الصنع ومهارة الإبداع التي لم نستطع أن نتعداها أو نبلغها، وقد أخذنا كثيرا من الاختراعات التي قمنا بتنميتها عن آسيا دون أن تهتم هذه الأخيرة بمشاركتنا فيها، وقد استخدمنا مسحوق البارود في صنع قنابل المدافع. أما الصينيون فقد استخدموه في صناعة الصواريخ النارية. ولم يستطع الغرب في مجال الطرائق الفنية للحرف أن يلحق بالشرق فيها. أما في الآلة، فقد سجل الغرب أول انتصار له على الشرق بصددها. وقد عد الغرب محتكرة للآلة : فالمنتجات الميكانيكية الثقيلة لا تصنع إلا في الغرب، و يمكن صناعة المنتجات الميكانيكية الخفيفة في أي بلد آخر غير بلاد الغرب. ورغم تفوق اليابان في بعض الصناعات التي تقتصر عليها وحدها، نجد أنها قد أخفقت في صناعات أخرى.

ومع ذلك، فقد أجادت آسيا إدارة آلات الغرب واستخدمتها في خفة ونشاط وبروح من التقليد الواعي – ذلك لأن اليد العاملة لا تكلفها شيئا على وجه التقريب؛ فثمن التكلفة لصناعة الغزل الياباني أو الصيني تتحدى كل منافسة لها في العالم. ومن هنا يراود الشرقيين هذا التصور الواهم، فيقولون الغربيين : « نحن نملك من الآن فصاعدا آلاتك وتجيد استخدامها، فنحن إذن على قدم المساواة. والتفوق الذي أحرزتموه بالأمس لم يعد قاصرة عليكم اليوم ». وفي الحقيقة أن الطائرة والسيارة والآلة، لم تعد ملكا خاصا و احتكارا لقارة معينة كما لم يعد استخدامها دلالة على تفوق الغرب. وينحصر تفوق الغرب على الشرق في أن هذه

الاختراعات الميكانيكية الحديثة والاختراعات الصناعية صادرة عن بلاد الجنس الأبيض.

وفي الحقيقة أن أية قارة أو جنس لا تحتكر صناعة من الصناعات، فهل كان الغرب هو كل شيء في فترة تطور الصناعات الحديثة ونموها، ولم يفعل الشرق من جانبه شيئا ما ؟ قد يكون عظيما أن تعرف إدارة الآلة، لكن هذا وحده إلا يكفي، بل يجب أيضا أن تكون قادرة على إصلاحها، وعلى دراية بتركيبها وتحسينها ومعرفة أجزائها قطعة فقطعة إذا دعت الظروف والضرورة إلى ذلك. فآسيا تقليد على أحسن الوجوه، و إن كانت لا تجدد ما تستورده من أفكار ؛ وانطواؤها على خبراتها التي تفصلها عن المصدر الأصلي الأوروبي أو الأمريكي للمخترعات يجعلها ضعيفة أو متخلفة. وفي الوقت الذي يتابع فيه الغرب تقدمه وتفوقه، نرى أن الشرق لا ينفك سادرة في جموده النسبي، وليس هذا ناشئا عن نقص في الإدراك أو النشاط، بل عن نقص في الإلهام والطريقة الخالقة، وربما يكون عن نقص في الإيمان بالتقدم الإنساني أيضا.

وأعتقد أننا لم نصل بعد حتى الآن إلى السبب المباشر لنجاح الغرب في انجازاته الحديثة : فقد يكون « قدرته على الإدارة » ؛ ذلك أن الإنتاج الإنساني ينقسم تاريخيا إلى بعض المراحل الكبرى من التطور المعقد في ترتيب تعاقبها ففي العصر الحجري كانت مرحلة استخدام الآلة اليدوية، ثم تبع هذه المرحلة، مرحلة الآلة الميكانيكية التي ترتب عليها انتشار الصناعة الحديثة التي هدفت – بعد تفوقها في الإنتاج على

نطاق واسع و بكميات ضخمة – إلى توجيه. الإنتاج صوب مرحلة جديدة هي « المرحلة الإدارية »،لأن إدارة المشاريع الكبرى تتطلب تنظيما متنوعة يفوق الميدان الخاص بالطرق الفنية ؛ فقد أوضحت جميع الإحصائيات الأخيرة في البلاد الصناعية الكبرى أن النسبة العددية المجموع العمال تتناقص على حين يتزايد مجموع الإداريين والتجار تزايداً سريعاً. وفي المؤسسات التي يقوم فيها الإنتاج على من التكلفة، يتضاءل الاهتمام بموقع المصنع، على حين يزداد الاهتمام بموقع الإدارة. وقد أصبح لزاما على الرؤساء في المصانع شيئا فشيئا أن يكونوا إداريين ومنظمين من الدرجة الأولى قبل أن يكونوا فنيين، والذي ملك هذه الموهبة الفذة في الإدارة وحده في وقتنا الحاضر، هو الغرب.

إن الصفات المطلوب توافرها لإدارة أي مشروع حديث بنجاح جد معروفة فيجب أولا أن تحدد الهدف الذي نضعه نصب أعيننا وننسق الوسائل من أجل بلوغ هذا الهدف كما ينبغي أن نكون على مقدرة بقياس الوقت الضرورى للانتهاء من إنجاز المشروع ؛ و بالإضافة إلى ذلك، يجب أن نقدر مسألة «عطب » بعض الآلات كى نسهر دائما على صيانتها وتجديدها عندما تكون على وشك الاستهلاك وحين يكون المشروع ضخما يكون مجموع العال كثيرة، وذلك يستلزم توجيها حكما متزن للمحافظة على النظام وفعالية الجهود الجماعي المشترك في ذات الوقت. وقد تبرهن التجربة فضلا عن ذلك على تمتع الغربي بكافة الصفات اللازمة الإدارة المشاريع الكبرى ؛ ولكنها ما تزال غريبة على الرجل الشرقي، و إذا ناقشنا الموضوع في دقة تامة فإننا نرى أنه يجب

على مدير أية مؤسسة أن يتحلى بصفات القيادة، وهذه الصفات ما تزال غريبة على الرجل الشرق. وتنحصر في أنه ينبغي عليه أن يحدد لنفسه هدفا، ويحزم أمره على بلوغ هذا الهدف في وقت يفرضه على نفسه و يلتزم به، وهو يعرف كيف يضحى براحته الشخصية وعاطفته في سبيل إنجاز عمله، ولأنه على علم تام بقيمة الوقت، ترى أنه لا يضيعه سدى، كما أنه يتمتع بالخبرة الطبية و يعرف قيمة وفعالية الآلات التي يشرف عليها. ويعلم أنه إذا أهمل صيانتها فما أسرع ما تستهلك ؛ و تستوجب العناية بها الاهتمام والتنبؤ بما ستكون عليه في المستقبل. ومن خصائص الغرب العناية والصناعة، ولا يستطيع الرجل الآسيوي أن يصون آلة ما. وتضرب جذور الإهمال في أعماق المنزل الشرقي ؛ و يحدث ذلك دون أن يبدو على مالكها أي امتعاض ولو كان موسرة متمتعا بالذوق السليم. إن كل ما يفتقر إليه الرجل الآسيوي هو الثقة في ذاتيته، وتحمل المسئولية الشخصية، ولا يعمل الناس في آسيا منفردين بل مجموعة متكاتفين متعاونين، والمجهود المشترك لدى الآسيويين على غرار ما لدي الأوروبيين. فالمسئولية موزعة فيما بينهم وكأنها مسئولية عائلية. والأخلاقية هي أخلاقية الطاعة للوالدين أو للنظم الاجتماعية. ويعمل الرجل الآسيوي ساعات أكثر من الأوروبي وله في الصبر والتحمل باع أطول منه. وتقوم المهارة عند الآسيويين مقام التنظيم عند الأوربيين ولا تجارى صناعتنا التي تقوم على الطرائق الفنية الصناعة الصينية التي تقوم على أساس الإنتاج بثمن التكلفة. ويهتم الرجل الشرقي بالمشاريع النظرية أكثر من اهتمامه بالمشاريع العملية، ويعتمد على المهارة الشخصية أكثر

من اعتماده على الطريقة، كما أنه لا يرى في الحياة إلا سلسلة من الحوادث العارضة وأن الحظ والحيلة أو الدسيسة هي له كل ما يريد.

وإذا ذهبنا إلى الشرق، فإننا نجد فيه صناعات ومشاريع وإدارات تتشابه واجهاتها مع واجهات مؤسساتنا المختلفة. بيد أننا نلاحظ أن أمهر الشرقيين في ميدان الفعالية، لا يجاري الأوروبي المتوسط في هذا الميدان.

وعلى أية حال فإن هؤلاء وأولئك ليسوا من طبقة واحدة، وإذا عهدنا إلى الأوربي الذي يبدو لنا عاديا دون ثقافة. بمسئولية القيادة لأية مؤسسة فإنه يكون بالأحرى من الوطنيين اللامعين ؛ وقد ظلت الأيدي الغربية حتى يومنا هذا تشرف على شركات الملاحة والمؤسسات العالمية

فمن أين لهؤلاء الغربيين بتلك الإمكانيات الفذة؟ لا شك أن من مصادرها، طرائقهم الفنية المنظمة في إنتاج عمل جماعي قائم على وسائل علمية برهنت على مدى نجاحها ؛ بيد أنه يجب أن نعود إلى الوراء إلى مصادر أكثر عمقا، لأن هذه الطرائق العامية لم تكن في حد ذاتها إلا وجها من وجوه طريقتنا في الحكم على الأمور عن طريق العقل والتي أخذناها عن واضعي علم المنطق أمثال بأكون Bacon وديكارت Descartes، كلود برنار Claude Bernard الذين يقومون على معالجة القضايا باستبعاد كل ما لا يطابق العقل. أما الآسيوي، والأفريقي فقد أقاما لكل قضية براهين وحججه فوق ما يحتمله العقل... هذه البراهين والحجج تتحكم في كل ما يتخذونه من قرارات. وقد ترتب على ذلك،

أننا قد رأينا في ريف الصين طرقا معوجة، لأن الأرواح الشريرة لا تكثر ولا توجد إلا في الطرق المستقيمة، وتبعا لهذا الاعتقاد، نجد الصينيين يستشيرون الجن عندما يفكرون في اختيار مكان لبناء منزل أو مصنع. ونحن نعتقد بوجود مثل هذه الخرافات و خاصة بين الأوساط الريفية. أما في الأوساط الصناعية، فليعدها وجود.

ومعركتنا التي تقوم على فصل ما هو مطابق للعقل عن ما هو غير مطابق العقل، إنما تهيئ استقلال السلطة المدنية والدينية. وقد كان المؤرخ رينان Renan يرى في ذلك « دعامة الحرية الحقيقية والحضارة الحقيقية ». وقد صنعت هذه الحرية من التفكير الغربي قوة دافقة في العمل. وفي ظل هذا، يعبر بوجى Pegay عن فعالية الطريقة التي وضعها ديكارت Descartes بقوله : « إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن طريقة ديكارت أخلاقية، أخلاقية في التفكير أو أخلاقية لكي نفكر بها، و بعبارة أخرى : كل شيء في هذه الطريقة أخلاق لأن كل ما فيها يسير وفق سلوك خاص لا يحيد عنه قيد أنملة ؛ ور ما يكون اختراع ديكارت هذا وجدته قد جعل طريقته هذه تعمل عمل الفكرة والحركة » و إذا كان الأمر كذلك، فإن الغربي رجل يسلك بفكرته سلوك الفعل ؛ ومن هذا الفعل ترتسم فكرة واعية قادرة على مراقبة نفسها بنفسها، و بذلك نعود إلى المنبع الأصلي للفكرة وهي « الحرية الناقدة »، بيد أن الحرية الناقدة تعتمد بنفسها على الحرية السياسية، و يحضرنا في هذا المقام القول المأثور عن الإغريق : « نحن رجال أحرار» وليس من المبالغة في شيء إذا قلنا: إنه عندما كانت تختفي الحرية السياسية في أوربا، كانت

حيويتها تصاب بالضعف. وقد كان الاقتصاد الموجه الذي يمتد إلى ميدان الفكرة يقضى على مصدر لا يعوض هو الحرية ؛ فكل نظام استبدادي يقضي على مستقبلنا. ولقد كان سير روبرت بيل Sir Robert Peel في خطابه الشهير يطالب في عام ١٨٤٦ بإلغاء الرسوم المفروضة على القمح. وكان يقدر مدى الفائدة التي تجنيها أنجلترا من مواردها في الفحم ومن صناعتها وفعاليتها الاقتصادية التي لا تقبل المنافسة، لكنه كان يقدر فوق كل ذلك نظام الحرية الذي يجب أن تستفيد منه الدولة فضلا عن حرية المناقشة التي هي طابع هذا البلد، وقد أنهى خطابه بهذه العبارة : « أهذه حال بلد يخشى المنافسة ؟ ». على غرار هذا القول، يكون طابع الغرب و بقدر محافظة الغرب على الحرية، يظل تفوقه ثابت الأركان.

(٤)

إن كل ما يهدد مستقبل الحضارة الغربية يرد عليها من الداخل لا من الخارج، وقد لا نعدم سببا لزوالها ؛ بيد أن هذا السبب يكمن في اختلال المبادئ التي توجه إلى الحضارة وفي غرابة أطوار الشعوب التي تمسك بقيادتها.

وقد أوضحنا أن دعامة الغرب تتركز في ثلاثة مفاهيم : المعرفة، والفردية، والطريقة الفنية، لكن يجب أن يكون هناك توازن دائم لا يختل بين هذه المفاهيم ؛ بمعنى أن الطريقة الفنية لا بد أن تكون في خدمة

الفرد في حين لا يكون الفرد في خدمة القوى التي نشأت عن الطريقة الفنية. وقد غزت الحضارة الغرب قبل ظهور الثورة الصناعية، فهل نحافظ على مستقبل هذه الحضارة مع الفعالية الميكانيكية التي طغت على كل آرائنا، وتزداد ماديتنا المزمنة في ظل النظام الديمقراطي الشعبي وتفقد اتصالها بتقاليد تنطوي على الزهد والتنسك وهي التي كانت منبعا للنشاط والقوة الأخلاقية. فروح المبادأة في نفسها في دولة تتمسك بالتدخل في كل شيء وتفرض التوحيد في كل شيء أعني التهيؤ المضاد للخصائص المميزة للحضارة الغربية. ومثل هذه الحالات العارضة لا تعتمد على رأي متشائم فقد نراها تحدث تحت سمعنا و بصرنا. وتدخل الحكومة المسرف، و إصدار التعليمات المبالغ فيها، و إغراق الصناعات بكثرة التنظيمات، والبعد عن الطبيعة السمحة، وتشويه الحياة الاجتماعية الطبيعية يترتب عليه خطورة تنشأ عن المبالغة في التوجيهات أكثر مما تنشأ عن نقص في التفكير. ويبالغ الرجل الغربي في تنظيم جهازه، وقد تدفعه المبالغة أحيانا إلى اقتراف أمور لا تتفق مع العقل والصواب.

وقد كانت أوربا حتى هذا الوقت مهد الثقافة الأوروبية – وفيا بعد – رغم تأرجح هذه الثقافة بين ماردين: ها الولايات المتحدة وروسيا – نراها قد احتفظت بحيويتها الفكرية الخلاقة، ولكنها قد فقدت إلى حد ما قدرتها على الإنتاج فهل تتعرض حضارتنا إلى تغيير خصائصها ما دامت الآن في يد قادة، ليسوا بأوروبيين أو غربيين خاص ؟.

وتعد الولايات المتحدة الآن الذائدة عن عرين الحضارة الغربية وحامية حماها وهم مثلنا تماما في أنهم يمثلون التقاليد الديمقراطية والمسيحية التي تعبر عن احترام الفردية والحرية والمبادأة ونحن نعلم تماما أن أمريكا تعيش في إطار جغرافى لا يشبه بتاتا الإطار الذي تشكلت فيه أوربا. وعلى ذلك فهل تستمر وتصمد فلسفة الغرب بقدر محدود في الإنتاج وتقف على قدميها ؟

نحن نعرف المكانة التي يتمتع بها الإنتاج من حيث الكمية والرقم القياسي لها. فكل شيء في هذا المبدأ، يهدف من ناحية الإنتاج إلى تغطية مطالب الجموع البشرية من الشعب، ومن جهة أخرى فإن المناخ على مر الزمن عنصر هام في تغيير الجنس الأبيض الذي استقر به المقام في هذه الأرض الجديدة. ولابد أن نعترف ببعض التغيرات من تصدع بعض التقاليد التي سبق أن ورثتها أوربا عن ماضيها القديم « المتوسطى » نسبة إلى البحر المتوسط : فالأمريكيون قوم مهاجرون أوربيون أو « متوسطيون » عبروا المحيط الأطلسي ؛ لكن ذوبانهم في هذه الأرض قد قطع الصلة نهائيا بينهم وبين أصوليتهم القديمة. وقد ظل تأثير المسيحية قويا في نفوسهم لكنه ضعف بتأثير الإيمان بالنجاح في الحياة.

على أن التراث الكلاسيكي لم يصادف قبولا في هذا العالم الجديد ولم يكن له صدى في جامعاتهم أو كتبهم. وقد تعرض روح النقد في هذه البلاد للزوال نتيجة لذلك، فالاستعداد للتوحيد في كل شيء قد أضحى اتجاها مشتركا في أمريكا، وهو يتجاوب مع الميول الغريزية لنظام

أقيم على مبدأ التنظيم. وقد تقلص ميدان الاختيار والمفاضلة والمبادأة على حساب نظام لم يعد يترك للفرد المكانة والحرية التي كانت له في قديم الزمان، ولم تعد هذه الظروف هي الظروف التي تشكلت فيها أوروبا غير الموحدة، والمفتتة، والثائرة، أوروبا الأم. وهناك شيء ما جديد في سبيله إلى الظهور في هذه القارة... هذا الشيء الجديد سيبقى يمثل الغرب، ولكنه لن يظل غر بنا نحن

وفي الطرف الآخر من هذا العالم الغربي، روسيا التي تمثل نفس هذه الظروف ببيئاتها الجغرافية وكثافة سكانها وإمكانياتها الاقتصادية تختلف اختلافا بينا عن أوربا. وإذن فليس من المحتمل أن تظل مثل هذه الطاقة دون عمل أو فعالية، وقد اتجهت أخيرا إلى اتخاذ حاول تشبه الحلول الأمريكية في رفع مستوى شعبها. والتصوف عند هذا الشعب الذي يصل إلى المادية التي تعلن عن نفسها بأنها مذهب الدولة الرسمي، لا تنتمي إلى الغرب في شيء ووجود الطريقة الفنية والتصوف الاجتماعي الذين يضعفان من الثقافة، يناقض المفهوم الإغريقي والمسيحي للفرد. وهو الذي يعتبر وحدة روحية مستقلة. وانتصار الشيوعية في العالم معناه القضاء على الغرب، ولا تخفي موسكو الرغبة في الوصول إلى ذلك بتاتا

ولا يغيب عن ناظرنا أن أوروبا قد تعلمت من خطر كان فيه القضاء على التكامل الروحي لشخصيتها، فقد توحدت جميعها ضد الله الجرمانية في عهد النازي وهي التي وزعت قواتها في جميع أنحاء أوروبا وقد انهزمت أمامها، وكذلك حافظت على خصوبتها الحضارية. إن الحملات والغزوات التي قام بها الإغريق في آسيا قد ضاعفت من قوتهم العسكرية، كما

ضاعفت حملات هتلر من قوته العسكرية حيث بلغت عشرة أمثالها عن ذي قبل، وجعلت منها سيدة العالم في هذا المجال. وقد فقدت بلاد الإغريق بهذه الغزوات صفاء فنها وفقدت أوروبا جمال روحها.

على أن هناك تأثيرات أخرى اليوم ستعمل على تغيير أوجه الحضارة الغربية. وقد أوضحنا الدور الذي قام به كل من اللاتينيين والفرنسيين والإنجليز والألمان والروس والأمريكيين في هذا التغيير. وعلى أية حال، فقد يبدأ فصل جديد في تاريخ العالم، وربما يحتاج هذا الفصل إلى كتاب جديد.



الفهرس